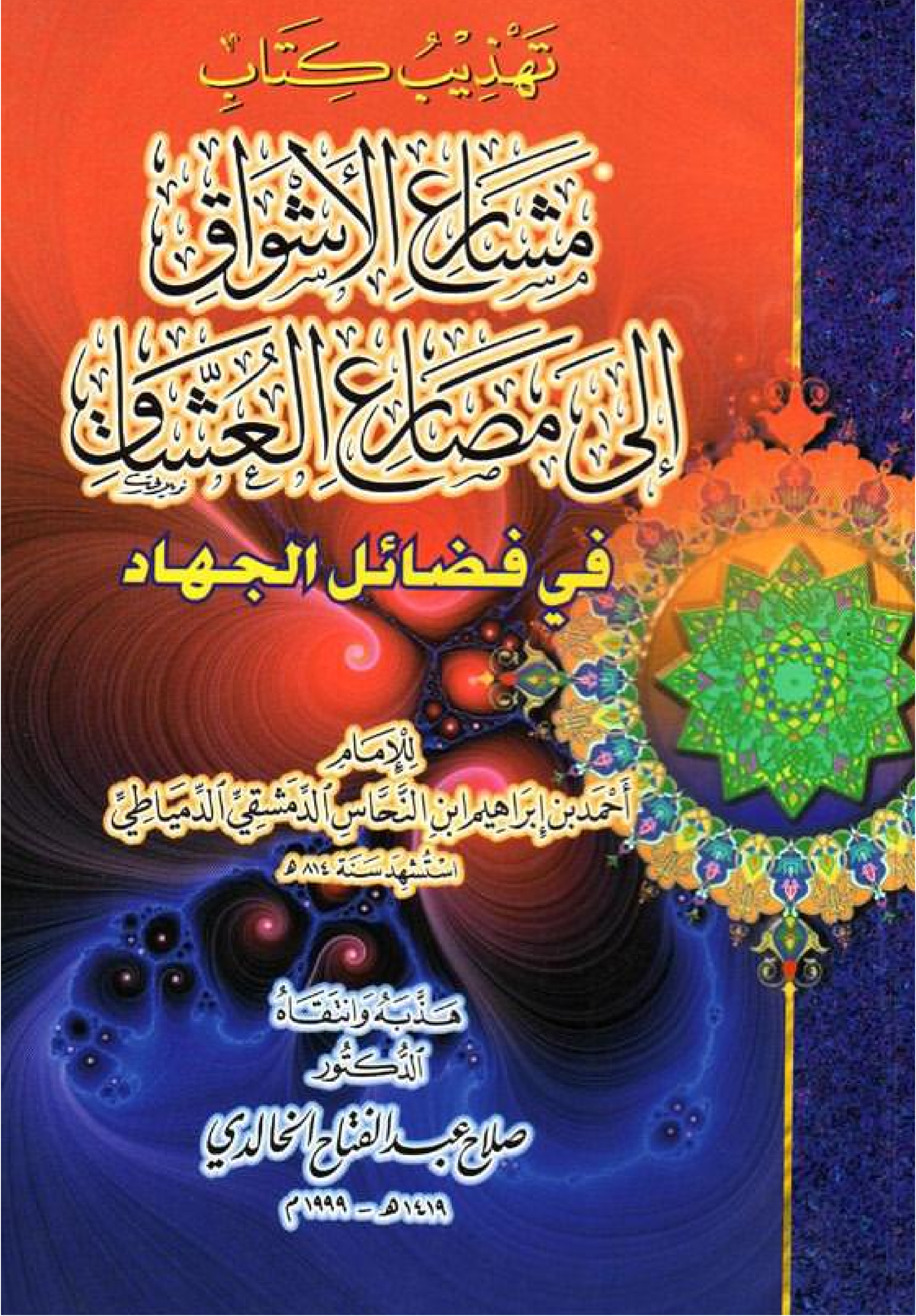

تهذيب كتاب
مشارع الأشواق
إلى مصارع العشاق
في فضائل الجهاد
للإمام
أحمد بن إبراهيم ابن النحاس الدمشقي الدمياطي
استشهد سنة ٨١٤ هـ
هذبه وانتقاه
الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

تقديم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الجهاد أصيل مكين في هذا الدين، وهو روح الإسلام وخلاصته، وهو سر قوته، وعنوان وجوده وحيويته، وهو السبيل المضمون المأمون الذي يسلكه المؤمنون الصادقون، ويصلون به إلى جنات النعيم، وينالون رضوان رب العالمين.

وحديث القرآن عن الجهاد في سبيل الله عميق، وبيان القرآن لميادين الجهاد. وأساليبه، وصوره ومجالاته بيان شاف. وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تقرر حقيقة الجهاد وتحث عليه وترغب فيه كثيرة منوعة.

وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم سيرة جهادية، وأصدق عنوان لهذه السيرة هو: إنها سيرة نبي مجاهد. حيث كانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها جهاداً في سبيل الله، وقتالاً لأعداء الله، ونشراً لدعوة الله، وتبليغاً لدين الله.

وقد ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام على الجهاد، فتعمق خط الجهاد في حياتهم، وتجذر في شخصياتهم، ولون حركتهم، واستغرق أعمارهم، وبذلك كانوا مجاهدين مقاتلين، رهباناً بالليل، فرساناً بالنهار، أشداء على الكفار، رحماء بينهم.

واستمر خط الجهاد عميقاً قوياً، يميز المسلمين الصادقين المجاهدين، على مختلف قرون التاريخ الإسلامي، وواجه هؤلاء المجاهدون أعداء الأمة، وجاهدوهم جهاداً كبيراً، وصبروا وصابروا ورابطوا، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وبالجهاد الصادق المبرور حافظت الأمة المسلمة على وجودها ودينها، وحفظت أوطانها وبلدانها، وتصدت لأعدائها الكافرين، من الصليبيين المغول وغيرهم. وتحطمت على صخرة الجهاد أسلحة الأعداء، وأحبطت مكائدهم، وفشلوا في تحقيق أهد افهم ومآربهم.

وغشيت الأمة المسلمة في هذا العصر غاشية سوداء عامة طامة، وأصيبت هذه الأمة بقاصمة شديدة، حيث نجح الأعداء في القضاء على الخلافة الإسلامية، التي كانت مظلة الحماية والأمان للأمة المسلمة، وتمكن الأعداء من إزالة النظام الإسلامي من الوجود الفعلي الواقعي في أقطار المسلمين، وغيبوا الإسلام الحي المؤثر عن حياة المسلمين الفردية والجماعية، في مختلف جوانبها ومجالاتها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والأدبية والثقافية والفنية والفكرية..

وحصروا الإسلام في المساجد وبعض الزوايا المغلقة كالأحوال الشخصية والمؤسسات الخيرية الاجتماعية!

وهجم الأعداء الكافرون هجوماً شاملاً على دين الأمة المسلمة وأخلاقها، وعلى أبنائها وبناتها، وعلى أموالها وأعراضها، وعلى خيراتها ومواردها، وعلى طاقاتها وقدراتها، وعلى بلدانها وأوطانها..

واستعمر الأعداء أقطارها، واحتلوا بلدانها، وقتلوا أفرادها، واقتطعت أجزاء عزيزة من بلدان المسلمين، وأصبحت تحت سيطرة هؤلاء الأعداء، في آسيا وأفريقيا وأوروبا..

وصار الدم الإسلامي يسفك بغزارة على مختلف الجبهات، والدم الإسلامي هو أرخص الدماء في هذا العصر، وحورب المسلمون حربا حاقدة انتقامية صليبية في الشرق والشمال والجنوب: في أثيوبيا وأريتريا والصومال، وفي السودان وتشاد، وفي نيجيريا والسنغال، وفي البوسنة والهرسك وألبانيا، وفي الشيشان وداغستان، وفي أرمينيا وأذربيجان، وفي الهند وباكستان، وفي كشمير وأفغانستان، وفي تايلاند وبورما وفيتنام، وفي إندونيسيا والفليبين، واليابان والصين...

ووقعت قاصمة الظهر التي قصمت ظهر الأمة المسلمة في هذا العصر، حيث تمكن اليهود الملعونون الكافرون من إقامة كيان لهم على أرض فلسطين، وتمكن اليهود من تحقيق حلمهم الذي مضت عليه عدة قرون، واصطلت الأمة المسلمة بنار الحقد اليهودي الدفين.. وخسرت الأمة في معاركها مع اليهود: سنة ٤٨، وسنة ٥٦، وسنة ٦٧، وسنة ٧٣، وسنة ٨٢..

وآثر حكام الأمة عقد اتفاقيات سلام مع اليهود في كامب ديفيد، وفي أوسلو، وفي مدريد، وفي واشنطن، وفي وادي عربة، وفي القاهرة... وعملوا على تطبيع الأمة مع اليهود، وحقق اليهود كثيراً مما يريدون، وما زالوا ماضين في تحقيق أطماعهم التوسعية اليهودية العدوانية..

وقام مجاهدون صادقون بواجبهم في جهاد الأعداء وقتالهم على مختلف الجبهات، في فلسطين والسودان، والبوسنة والشيشان، وفي الهند وأفغانستان، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً.

ولكن المؤامرة كانت أكبر منهم، والمعركة كانت أكبر من طاقاتهم، والأعداء كانوا أقوى منهم، وخذلهم الكثيرون من الشعوب والحكومات في بلاد المسلمين، فلم يتمكنوا من تحقيق مكاسب عسكرية، ونتائج مادية واقعية، لكنهم قدموا نماذج عالية في الصبر والمصابرة، والثبات والمرابطة، والجهاد والبسالة، والقتال والشجاعة، وصارت هذه النماذج معالم منيرة، وروائع يقتدى بها، وقمماً عالية سامقة في عالم الدعوة والجهاد والاستشهاد.

وسيبقى خط الجهاد أصيلاً عميقاً في كيان الأمة المسلمة. وسيذهب هذا الجيل من أجيال هذه الأمة بملايين أفراده، وستأتي أجيال قادمة، تتشرب روح الجهاد من القرآن والسنة، والسيرة وحياة الصحابة، وحركة المجاهدين الصادقين، السابقين والمعاصرين، وسيقومون بواجبهم في جهاد أعداء اللّه، والدفاع عن بلاد المسلمين.

وإن المعارك الإسلامية الطاحنة الشديدة قادمة بعون اللّه، عندما تسترد الأمة عافيتها، وتتعافى من أمراضها، وتصدق مع ربها، وتلتزم بإسلامها، وعندها سيرى اليهود وأمثالهم مالم يكونوا يتوقعون، وويل لليهود والصليبين والهندوس والوثنيين من الشباب الصادقين المجاهدين!

وإن الجهاد مستمر متواصل، كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الجهاد ماض إلى يوم القيامة.. ". وإن الطائفة الثابتة الصادقة لا تزال موجودة في هذه الأمة، كما أخبرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم:

"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله.. ".

وإن المجاهدين الصادقين الراغبين في دخول الجنة تحت سيوفهم موجودون مستمرون، وسيزيدون ويكثرون في مستقبل الأمة، ويحققون قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف...".

لهؤلاء المجاهدين الصادقين نقدم هذا التهذيب لكتاب ابن النحاس في فضائل الجهاد، ليجاهدوا على بصيرة، ويتعرفوا على الجهاد وفضله وميادينه، فيزدادوا حماسا له، و إقبالاً عليه، ورغبة فيه.

كما أننا نقدم هذا التهذيب لكتاب ابن النحاس لشباب الأمة، ليعرفوا ما أوجبه الله عليهم من الجهاد ومواجهة أعداء الله، فيتخلوا عن التثاقل والنكوص والتردد والتخلف، ويصدقوا مع الله، وِينصروا دين الله، ويواجهوا أعداء الله، ويتحسسوا مواقعهم تحت راية القرآن والجهاد، ويساعدوا في تحقيق الموعود القادم، ويسارعوا في وصول المرغوب المأمول والى الله نتوجه بهذا التهذيب، ونرجو منه سبحانه أن يكتب لمؤلفه العالم المجاهد الشهيد ابن النحاس الدمشقي جزيل الأجر والثواب، وأن يكتب للأخوين الكريمين اللذين حققاه وخدماه جزيل الأجر والثواب، وأن يشرِكنا معهم في الأجر والثواب.. وأن يجزي خيراً كل من ساهم في نشر الكتاب وتوزيعه، إنه هو الجواد الكريم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

الجمعة ١١/ ٢/ ١٤١٩ هـ

٥/ ٦/١٩٩٨ م

هذا التهذيب

ألف الإمام العالم المجاهد الشهيد أبو زكريا: أحمد بن إبراهيم بن محمد، الشافعي الدمشقي الدمياطي، المعروف بابن النحاس، المتوفى سنة ٨١٤ هـ شهيدا في منطقة دمياط في مصر كتابه الحافل في الجهاد وأحكامه وفضائله والحث عليه.

وسمى كتابه "مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام.".

وقد عاش الإمام الجهاد حالة واقعة في حياته، حيث نشأ في دمشق نشأة جهادية، ومارس الجهاد فيها عملياَ، ولما انتقل إلى مصر وأقام في دمياط حوالي عشر سنوات، جاهد فيها جهادا صادقا عملياً، وكان يقود أهل دمياط وما حولها في جهاد الصليبيين، وصد غاراتهم، وختم الله حياته الجهادية بالشهادة، واتخذه شهيداَ، حيث استشهد في معركة "الطينة" قرب دمياط سنةَ ٨١٤ هـ.

وبهذا جمع الإمام ابن النحاس بين العلم والعمل، وبين الكلام عن الجهاد، والممارسة العملية للجهاد، التي توجت بالاستشهاد.

وبهذا كان لكتابه مذاق خاص، وتأثير خاص، ومعلوم أن العالم الكاتب الشهيد يكتب الله لكتبه القبول، لأنه كتبها مرتين: مرة بمداد العالم، ومرة بدماء الشهيد، وكان ابن النحاس ممن تحقق فيه وفي كتابه هذا الوصف الكريم!

والذي دفع ابن النحاس إلى تأليف كتابه هو ما رآه من وجوب الجهاد على مسلمي زمانه، بسبب الهجوم المغولي والصليبي عليهم، ولكنهم انصرفوا عنه، وتثاقلوا ونكصوا عن ميدانه، فأراد ابن النحاس أن يشحذ هممهم، فألف لهم هذا الكتاب لتحقيق هذه الغاية. وألفه في حوالي عشرة أشهر، قبل استشهاده بسنتين، قال رحمه الله: "وكان فراغه على يد مؤلفه، فقير رحمة ربه، وآمل عفوه وغفرانه، أحمد بن إبراهيم بن محمد بن النحاس الدمشقي، تاب الله عليه. بخمس بقين من جمادى الآخرة، سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، وابتدأ تأليفه في شهر رمضان سنة إحدى عشرة وثمانمائة.".

وقد أجمع العلماء على أن كتاب ابن النحاس هو أفضل كتاب في الجهاد، وأكثر الكتب المؤلفة في الجهاد جمعاً وتحقيقا، وأغزرها معلومات وفوائد.

وكان ابن النحاس لاحظ تطويل كتابه، فاختصره في حياته. وسماه "مختصر مشارع الأشواق ".

وبسبب إعجاب العلماء بكتاب ابن النحاس، وإقبالهم عليه، فقد اختصره بعضهم، ومنهم الشيخ محمود العالم المترلي المتوفى سنة ١٣١١ هـ، الذي سمى مختصره "فكاهة الأذواق في اختصار مشارع الأشواق ".

وظل كتاب ابن النحاس مخطوطاً حتى أذن الله بطبعه وإظهاره في هذا الزمان.

وافقت كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة أم القرى بمكة المكرمة على تحقيق كتاب ابن النحاس من قبل اثنين من الباحثين، لينالا به درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية.

وتم تقسيم الكتاب بين الأستاذين:

الدكتور إدريس محمد علي: وقد عهد إليه تحقيق القسم الأول من الكتاب، من الباب الأول حتى الباب الخامس والعشرين.

والدكتور محمد خالد اسطنبولي: وقد عهد إليه تحقيق القسم الثاني من الكتاب، من الباب السادس والعشرين حتى آخر الكتاب.

وتقدم الأستاذان الباحثان بعملهما إلى الكلية، ونالا عليه درجة الماجستير عام ١٤٠٥ هـ ثم قدما الكتاب إلى المطبعة، وتولت طبع الكتاب ونشره دار البشائر الإسلامية في بيروت.

وكتب الناشر الأستاذ رمزي سعد الدين دمشقية مقدمة للكتاب، بين فيه جهد الدار الناشرة في إخراج الكتاب.

وقدم الكتاب الأستاذ الدكتور عبد العزيز الحميدي عميد كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى. وأثنى على الكتاب ومؤلفه وجهود محققيه.

وصدرت الطبعة الأولى للكتاب عن دار البشائر الإسلامية في ١٤١٥ - ١٩٩٠.

وصدر الكتاب في مجلدين، مجموع صفحاتهما ألف ومائتان وثلاثون صفحة.

والكتاب مخدوم خدمة جيدة طيبة من الأستاذين المحققين الفاضلين: الدكتور إدريس محمد علي والدكتور محمد خالد اسطنبولي، حيث خرجا أحاديث الكتاب الكثيرة، وحكما على معظمها، وعرفا بكثير من الأعلام والرجال المذكورين في النص، وأحالا على المراجع التي أخذ منها المؤلف الشهيد ابن النحاس، وحققا بعض المسائل الواردة فيه، وضبطا النص ضبطاً جيداً، فجزاهما الله على عملهما خير الجزاء.

وأخرجت دار البشائر الإسلامية الكتاب إخراجاً طيباً جيداً وممتازاً، واعتنت به عناية فائقة، جزى الله القائمين عليها خير الجزاء.

واستقبل المثقفون والدارسون الكتاب استقبالاً جيداً، واستفادوا مما فيه، باعتباره أفضل كتاب في الجهاد وأحكامه وفضائله في القديم والحديث.

وسارعت باقتناء نسخة من الكتاب بعد شهور من صدوره، وذلك قبل أكثر من ثماني سنوات، وقرأته بإمعان، واستفدت منه الكثير.

لكنني وجدت فيه تطويلاً في بعض الأمور، واستطراداً في بعض القصص والحكايات والرؤى المنامية، وبعض الأحاديث التي لم تصح.

كما وجدت تطويلاً في تحقيق الأستاذين المحققين، في كلامهما على الرجال والأحاديث، وحكمهما على رجال الإسناد، من خلال الهوامش. وما في هذه الهوامش من فوائد علمية حديثية وإسنادية وتوثيقية، قد لا تعني القارئ العادي كثيراً، لأنه لا يستفيد منها إلا الباحثون وطلبة العلم الشرعي.

ورأيت أن الكتاب بحاجة إلى اختصار وتهذيب، ولا سيما أن مؤلفه ابن النحاس شعر بتطويله فاختصره في حياته، واختصره بعض العلماء من بعده.

وهممت بتهذيبه قبل ثماني سنوات، لكن الهمة فترت عن ذلك، وأقبلت على أعمال علمية أخرى.

وفي ربيع هذا العام جاءني إخوان كرام لا يرد لهم طلب، وطلبوا إلي أن أقوم بتهذيبه، لينتفع به المسلمون، فبعث ما كان كامنا في نفسي، وقمت بهذا التهذيب، واستفدت استفادة كاملة من النسخة المطبوعة، ومن جهد الأستاذين المحققين فيها، وأنا مدين لهما في كل ما قاما به من جهود مشكورة في تحقيق الكتاب وتخريج ما فيه.

وقد تكرم الأخ المفضال الشيخ إبراهيم العلي حفظه الله ورعاه، بمراجعة تخريج ما في هذا التهذيب من الأحاديث، وتد استفدت من جهوده، وأخذت بملاحظاته، جزاه الله خيرا.

تعريف بالمؤلف

هو محي الدين أبو زكريا: أحمد بن إبراهيم بن محمد، الشافعي، الدمشقي، ثم الدمياطي، المشهور بابن النحاس.

من علماء القرن الثامن الهجري، حيث عاش معظم حياته في القرن الثامن، وكانت وفاته في مطلع القرن التاسع.

ولم تذكر المراجع سنة ولادته، ولا شيئا عن أسرته، ولا من أين جاءه لقب ابن النحاس. ولد ابن النحاس في دمشق، وتلقى العلم فيها على العلماء، ولم تذكر لنا المصادر العلماء الذين تتلمذ عليهم، لأنها لم تتحدث عن حياته العلمية والعملية.

وقد عرفت دمشق في القرن الثامن مجموعة من كبار العلماء الأعلام، من أشهرهم:

ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وأبو الحجاج المزي، وشمس الدين الذهبي، والحافظ ابن كثير.

وكان يحكم مصر والشام في حياة ابن النحاس المماليك، وكانت مصر تعيش خطر الصليبين، والشام تعيش خطر المغول.

وما أن أوشك القرن الثامن الهجري على الانتهاء، حتى كان ابن النحاس من كبار علماء دمشق، الذين يشار لهم بالبنان.

وكان ابن النحاس عالم بالحديث والفقه، وكان حريصا على فعل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الباع والانحرافات، كما كان حريصاٌ على تعليم الناس وإرشادهم ونصحهم وتربيتهم وتوجيههم.

وكان عازفا عن الشهرة، مؤثرا للخمول، متواضعا في غاية التواضع.

بقي ابن النحاس في دمشق يقوم بواجبه في العلم والتعليم، والدعوة والتذكير حتى سنة "٨٠٣١" هـ.

وقد وقعت في هذه السنة محنة شديدة قاسية، وقاصمة طامة، حيث تمكن ملك المغول تيمور لنك من احتلال معظم بلاد الشام، حيث احتل حلب وحماة، وتوجه إلى دمشق، وحاصرها أياماَ عديدة، ثم دخلها واحتلها، وحل بأهل دمشق ما لا يوصف من الأحوال. حيث قتل جيش تيمور لنك عشرات الألوف من الرجال والنساء، وهتكوا أعراض النساء والرجال، وصادروا الأموال، وأخذوا معهم من الأسرى والسبايا، وعند مغادرتهم دمشق أشعلوا فيها النار. وأحرقوا ما فيها من البيوت والأموال والمتاع، وتركوا دمشق أطلالاَ مدمرة محترقة، لا مال ولا رجال، ولا مساكن ولا حيوان.

فكانت سنة ٨٥٣ هـ من أقسى السنوات التي مرت على دمشق في تاريخها الإسلامي كله.

وقد خرج كثيرون من أهل دمشق سنة ٨٥٣ هـ إلى مصر، وكان منهم عدد من العلماء والفقهاء.

فسافر ابن النحاس من دمشق إلى مصر سنة ٨٥٣ هـ. وأقام في مدينة "المترلة" فترة، ثم تحول إلى مدينة "دمياط " فأقام فيها المدة المتبقية من حياته، إلى أن استشهد سنة ٨١٤ هـ وكانت مصر تتعرض للخطر الصليبي، المتمثل في الغارات البحرية التي كان الصليبيون يشنونها على مصر، وبالذات على منطقة الدلتا.

وفي سنة ٨١٤ هـ. هاجم الصليبيون قرية " الطينة " لما القريبة من دمياط، فخرج أهل دا، ط لقتالهم، وكان في مقدمة هؤلاء المجاهدين الإمام ابن النحاس، فقاتل الصليبيين قتالا شديداً، ولقي الله شهيداً في تلك المعركة، حيث قتل مقبلاً غير مدبر.

قال الإمام ابن حجر العسقلاني في " إنباء الغمر بأبناء العمر " عن هذه المعركة: "وفي ربيع الآخر من سنة ثمانمائة وأربع عشرة للهجرة وصلت طائفة من "الجنوية" - نسبة إلى مدينة جنوا في إيطاليا التي كان يخرج منها الصليبيون لمحاربة المسلمين - ، إلى الإسكندرية، فقاتلهم أهلها، واسروا منهم كثيرين، وقتلوا منهم كثيرين...

وسار هؤلاء "الجنوية" إلى "الطينة" وسبوا منها نساءَ وصبياناً، وكانت فيها وقعة كبيرة. وخرجت طائفة من أهل دمياط لنجدة أهل الطينة، وكبيرهم محي الدين ابن النحاس، وكان ملازماً للجهاد بثغر دمياط، وفيه فضيلة تامة، وجمع كتاباً حافلاً في أحوال الجهاد، فقتل في المعركة، مقبلا غير مدبر... " [١].

وقد كان العلماء يعرفون لابن النحاس فضله وعلمه وجهاده.

فها هو الإمام ابن حجر يقول عنه: "وكان ملازماَ للجهاد بثغر دمياط، وفيه فضيلة تامة". وها هو ابن العماد الحنبلي يقول عنه: " الشيخ الإمام، والعلامة، القدوة. " [٢].

وها هو المؤرخ السخاوي يقول عنه: "وكان ابن النحاس يعرف الفرائض والحساب أتم معرفة، بحيث كان يصرح باقتداره على إخراج طرف الحساب بالهندسة، وصنف فيه، مع المعرفة الجيدة بالفقه والمشاركة في غيره من الفنون.

وكان حريصا على أفعال الخير، مؤثراً للخمول، لا يتكبر بمعارفه، بل ربما يتوهمه من لا يعرفه عامياَ، مع الهيئة الحسنة، واللحية الجميلة، والقصر مع اعتدال الجسم. كثر المرابطة والجهاد، حتى قتل شهيدا" [٣].

وقال عنه الزركلي: "أحمد بن إبراهيم بن محمد، أبو زكريا، محي الدين الدمشقي ثم الدمياطي، المعروف بابن النحاس: فرضي فاضل، مجاهد، من فقهاء الشافعية.

---

[١] إنباء الغمر لابن حجر: ١/ ٢٤- ٢٥.
[٢] شذرات الذهب لابن العماد: ٧/ ١٥٥.
[٣] الضوء اللامع للسخاوي: ١/٢٥٣- ٢٠٤.

ولد في دمشق، ورحل أيام تيمورلنك إلى مصر، فسكن "المنزلة"، ولازم المرابطة والجهاد بثغر "دمياط". وقتل شهيداً في معركة مع الفرنجِ ، مقبلاً غير مدبر، بقرب " الطينة" شرقي بحيرة المنزلة، ودفن بدمياط. له تآليف حسنة..." [١].

وبهذا جمع ابن النحاس بين العلم والعمل، والدعوة والجهاد، وكان في مقدمة المرابطين المجاهدين، وقد ختم الله حياته بالشهادة، التي طالما تمناها وحرص عليها، وسأل الله أن يرزقه إياها.

وقد خلف الإمام ابن النحاس عدداً من المؤلفات النافعة، ويهمنا في هذا التعريف الموجز به أن نشير إلى ثلاثة كتب مطبوعة له:

١ - بيان المغنم في الورد الأعظم.

كتبه ابن النحاس، وقسمه إلى ستة وعشرين باباَ، أولها فضل القرآن. وفضل المعلمين[٢].

٢ - تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين، وتحذير السالكين من أفعال الهالكين.

جعل كتابه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحذير المسلمين من المعاصي والبدع والمخالفات.

ومما قاله في مقدمة كتابه:"... ولما رأيت ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد وهى جانبه، وكثر مجانبه... واندرست معالم السنة ورسمها، ولم يبق من حقائقها إلا اسمها.. وصار إنكار المنكر زلة عند العامة لا تقال، ومزلة لا يثبت عليها أرجل الرجال، فعمت الخطوب والعظائم، إذ لم يبق إلا من تأخذه في الله لومة لائم..

فعن لي أن اعلق أوراقاَ في هذا الشأن، نصحا لأمثالي من أهل العصيان، ومن حاله كحالي من الغفلة والنسيان..."[٣].

وقد طبع الكتاب في الرياض، بمقابلة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله على نسخة خطية، وأشرف على طبعه الشيخ صالح بن محمد لحيدان، وعلق عليه بعض التعاليق..

رحم الله الإمام العالم، والمجاهد المرابط، والداعية المصلح، والمقاتل الشهيد ابن النحاس رحمة واسعة، وجزاه عن دينه وأمته خير الجزاء.

---

[١] الأعلام للزركلي: ١/ ٨٧.
[٢] الأعلام للزركلي: ١/ ٨٧.
[٣] مشارع الأشواق: مقدمة المحققين: ١/ ١٣.

مقدمة المؤلف

اللهم صل وسلم على أشرف خلقك محمد، وآله وصحبه، أبداً، أحمدك اللهم ربي، وأسألك أعلى رتب الشهادة. وأشهد أن لا إله إلا أنت، وأستودعك هذه الشهادة، وأستغفرك لما تعلمه مني، وأنت عالم الغيب والشهادة، وأبوء لك بنعمتك علي، وأستزيدك منها. والشكرُ قمنٌ[١] بالزيادة، وأبرأ إلى عظيم قدرتك من الحول والقوة والإرادة، وأعترف بذنوبي، ومن اعترف بما اقترف، اغترف من بحر العفو مراده.

إلهي: فجدْ بما تعلقت به أيدي الآمال من جزيل كرمك، ومت علي من قدير الافتقار إلى غناك، فمدها أيضا من نعمك، واعطف على ذُل الأطماع، فخزائن جودك لا يُغيضها[٢] الإنفاق والعطاء، واعف عن هفواتنا، وتدارك فواتنا، قبل كشف الغطاء. رب وأسدل حجاب ستركَ المنيع علينا، وأسبل جلباب المريع[٣] لدينا، ووفقنا لما تحبه وترضاه. فبيدك أزمة[٤] التوفيق، وأنلنا ما نتمناه، فأنت بالكرم خليق[٥]. وأحشُرنا مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، وأنزلنا برحمتك بحبوحة[٦] جنتك دار السعداء، ومتعنا اللهم فيها بالنظر إلى وجهك الكريم، فأنت ذو الفضل العظيم، والمن الجسيم[٧].

رب: وضاعفت سلامك وصلواتك ورحمتك وبركاتك، عددَ معلوماتك، ومداد كلماتك، وزنة مخلوقاتك، وملء أراضيك وسماواتك، على نبيك المصطفى، ورسولك وحبيبك المجتبى، وخليلك أشرف المخلوقات أجمعين طُـرّا، وأفضل أهل السماوات والأرضين قدرا، محمد الذي جاهد فيك حق الجهاد، حتى أتاهُ اليقين، وحضً على الغزو والرباط، بفعله وقوله المبين، وعلى آله وصحبه الرحماء الأشداء على الكافرين، وعلى أزواجه وذريته الشُرفاء الطاهرين. صلاةً وسلاما يتجددان مع التضعيف أبداً في كل حين، مع ذكر الذاكرين، وسهو الغافلين، ولمح الناظرين، يا أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.

أما بعد:

فمن المعلوم أن الخلق كلهم ملك لله وعبيد، وأنَّ الله يفعل في مِلْكِهِ ومُلْكِهِ ما يُريد، لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون، ولا يُقال لما لم يُردْ لم لا يكون؟

---

١ قمن: جدير. أي: شكر الله طريق زيادة نعمه.
٢ لا يُغيض: لا ينقِص. أي: إعطاء الله عباده لا ينقص خزائن جوده.
٣ المريع: الخصب. أي: أنعم علينا بالخصب والرزق حتى يعمنا.
٤ أزمة: جمع زمام، وهو ما تقاد به الدواب. أي: توفيق عبادك بيدك وحدك.
٥ خليق: جدير. أي: أنت الكريم الجدير بالكرم.
٦ البحبوحة: الوسط. أي: أنزلنا وسط الجنة وأشرفها برحمتك.
٧ الجسيم: العظيم. أي: أنت ذو المن والعطاء العظيم الكثير.

ومع هذا، فقد اشترى من المؤمنين نفوسهم لنفاستها لديه، إحساناً منه وفضلاً، ورقَمَ ذلك العَقدَ[١] الكريم في كتابه القديم، فهو يقرأ أبداً بألسنتهم ويتلى، فقال تعالى مبيناً للزوم هذا العقد أزلاً في محكم الفرقان: "إنَ الله اَشتَرى مِـنَ المُؤمنينَ أنفسَهُم وَأموَالُهم بأنْ لَهُمْ اَلجَنَّةَ يُقتلُون في سَبيل اَللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقتَلونَ وَعْدًا عَلَيه حَقَّاً في التَوراة والإنجيلِ وَالقرآن" (التوبة: ١١١).

ثم أرشد من اشترى منهم نفوسهم إلى الوفاء بالتسليم، وحضهم عليه ببيان ما لهم فيه من الربح الجزيل، والفضل العميم، فقال تعالى: " يَا أيّها الذينَ آمَنُوا هَلْ أدُلُكُمْ عَلَى تِجَارَة تُنْجيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَليم * تُؤمنونَ بـالله وَرَسُـوله وَتُجَهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بأمْوالكُم وَأنْفُسكُم ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُم إنْ كُنْتُم تَعْلَمون * يَغْفِر لَكُم ذنوبَكُم وَيُدْخِلْكُم جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهار وَمَسَاكِنَ طَيبَة فِي جَنْات عدن ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ " (الصف: ١٠ -١٢)

وخاطب المقرّين بالبيع، المماطلين بالتسليم خطاباً بل عتاباً وتوبيخاً يقرأ أبداً في محكم التتريل، فقال تعالى: " يَـا أَيُهَا الذين آمَنوا مَالَكُم إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرا فِي سَبِيل الله اثَّاقَلْتُم إلى الأَرض أرضِيتُمْ بالحَيَاة الدُنيا مِنَ الآخرة فَما مَتَاع الحَيَاة الدُنيا فِي الآخِرة إلاّ قَلِيل " (التوبة:٣٨).

ثم حذّرهم من الإصرار على المماطلة، وتوعّدهم على التسويف بعد وجوب النفير، فقال سبحانه: "إلاّ تَنْفِـروا يُعَذِبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبدِل قَوْماً غَيْرَكُم وَلاَ تَـضُرُّوه شَيْئاً والله على كُلِّ شَيء قَديرٌ" (التوبة: ٣٩).

واعلموا - إخواني - أن الدين على التحقيق هو المعاملة، وأن سبيل اليقين هي الطريق الفاضلة. والسلعة تشـرف بالمساوم والمشتري، والمماطل بعد لزوم العقد هو الظالم والمفتري، ولَيُّ الواجد[٢] يحل عرضه وعقوبته، ومـن حـرم التوفيق فقد عظمت مصيبته. ومما يجب اعتقاده أن الأجل محتوم، وأن الرزق مقسوم، وأن ما أخطأ لا يصـيب، وأن سهم المنيّة[٣] لكل أحد مصيب؟ وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن ما قدر أزلاً لا يخشى فيه الفوت، وأن الجنة تحـت ظلال السيوف، وأن الرّيَّ الأعظم في شرب كؤوس الحتوف[٤]، وأن من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله علـى النار، ومن أنفق ديناراً كتب بسبعمائة - وفي رواية: كتب بسبعمائة ألف - دينار، وأن الشهداء عند الله من الأحياء، وأن أرواحهم في جوف طير خضر، تتبوأُ من الجنة حيث تشاء، وأن الشهيد يغفر له جميع ذنوبه وخطاياه، وأنه يشفع فيْ سبعين من أهل بيته ومن والاه، وأنه يأمن يوم القيامة من الفزع الأكبر، وأنه لا يجد كـرب المـوت ولا هـول المحشر، وأنه لا يحس ألم القتل إلا كَمَس القرصة، وكم للموت على الفراش. من سكرة وغصة، وأن الطَاعمَ النائم في الجهاد أفضل من الصائم القائم في سواه، ومن -ض س في سبيل الله لا تبصر النار عيناه، وأن المرابط يجري لـه أجر عمله الصالح إلى يوم القيامة، وأن ألف يوم لا تساوي يوماً من أيامه، وأن رزقه يجري عليه كالشهيد، أبـداً لا

١ ردمَ العقد: كتبه. أي: كتب الله وسجّل عقد المبايعة في القرآن.
٢ لَيُّ الواجِد: مماطلة القادر على الدفع. وهذا يجوز الكلام عنه وعن مماطلته، وتجوز عقوبته.
٣ المنيّة: الموت: أي: الموت يصيب كل أحد، ولا ينجو منه أحد.
٤ الحُتوف: جمع حَتف. وهو الموت. أي: الرَّيُّ الأعظم عن طريق الموت قتلاً في سبيل الله.

ينقطع، وأن رباط يومٍ خيرٌ من الدنيا وما فيها أجمع، وأنه يؤمن من فتنة القبر وعذابه، وأن الله يكرمه يوم القيامة بحسن مآبه.. إلى غير ذلك من الفضل الذي لا يضاهى، والخير الذي لا يتناهى.

وإذا كان الأمر كذلك، فيتعين على كل عاقل التعرض لهذه الرتب، وان كان نيلها مقسوما، وصرف عمره في طلبها، إن كان منها محروما، والتشميرُ للجهاد عن ساق الاجتهاد، والنفير إلى ذوي العناد من كل العباد، وتجهيز الجيوش والسرايا، وبذل الصلات والعطايا، وإقراض الأموال لمن يضاعفها ويزكيها، ودفع سلع النفوس - من غير مماطلة - لمشتريها. وأن ننفر في سبيل الله خفافا وثقالاً، ونتوجه لجهاد أعداء الله ركبانا ورجالاً، وأن نجز الخميس العرمرم القمقام[١] ، إلى أولياء إبليس الطِّغام[٢] اللئام، حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم، ويعطوا الجزية صغرةً[٣] بأيمانهم، أو نستلب نفوسهم من أبدانهم، ونجتذب رؤوسهم من تيجانهم. فجموع ذوي الإلحاد مكسرة، وان كانت بالتعداد مكثّرة، وجيوش أولي العناد مدبرة مدمرة، وإن كانت بعقولهم مقدمةً مدبرَة، وعزماتُ رجال الضلال مؤنثة مصغرة، وإن كانت ذواتهم مذكَرة مكبَّرة.

ألا ترى الله سبحانه جعل كل مسلمٍ يغلب منهم اثنين، وللذكر من العقل والتدبير حظ الأنثيين، فوجب علينا أن نطير إليهم زُرافات[٤] ووحداناَ، ونُغير عليهم رجالاً وفرسانا، وأن نخاطر[٥] معهم بالنفوس والمُهج[٦]، وأن نركب قفر البرّ[٧] وثبجَ البحر[٨] لنيل الدرج، وأن نقطع لجج[٩] البحار الغزار بسفن كالدياجي، مقلعة بالنهار، وأن نغترب إليهم في أغربة[١٠] ،تطير بغير جناح في كل مطار[١١] وذوات أرجل تسابق العناجيج[١٢] والأطيار، وأن ننشر أعلام الإسلام على جوار كالأعلام، وأن نخترق مَهامه[١٣] الأقدام على نجب[١٤] بلا أقدام، وأن نجري في البرّ بحراَ بالعجاج[١٥] عجاج، وبالسوابح الصواهِل[١٦] متلاطم الأمواج، إلى أن تغصّ[١٧] سيول الخيول الوهاد والذرى[١٨] ،وتُرَضَنَ[١٩] بنصولِ الفحول البلاد والقرى، وأن يبيت كل منّا والسيف العَضبُ[٢٠] له ضجيعا، ويُصبح ومعترك الحرب الضروس له

١ الخميس: الجيش. والعَرَمَرَم: الكثير. والقَمقَام: كثير العدد.
٢ الطغام: الأوغاد.
٣ صَغَرَةَ: أذلاء.
٤ الزرافات: الجماعات.
٥ نُخاطر: نواجه ونحارب.
٦ المُهج: الأرواح.
٧ قَفرُ البر: وجهُ الأرض.
٨ ثَبج البحر: وسطه.
٩ لجج البحر: أمواجه.
١٠ الأغربة هنا: السفن.
١١ المطار هنا: المكان.
١٢ العناجيج: الخيل.
١٣ المَهامِهُ: الصحاري.
١٤ النجب: الإبل.
١٥ العجاج: الدخان.
١٦ السوابح الصواهل: الخيول.
١٧ تغصن: تملأ.
١٨ الذرى: المرتفعات.
١٩ تَرُضّ: تَدُقّ.
٢٠ السيف العضبُ: السيف القاطع.

ربيعا، وحرّ الوطيس[1] له غيثا مريعاً، وأن يلبي داعي الموت سامعا له مطيعا، ويؤمّ الصوت وان أمسى مجدَّلاً[2] صريعاً، وأن نجتهد في خلاص كل أسير ومكروب، واقتناص كل خطيرٍ ومحبوب، ونبيد بأيدي الجلاد حماة الشرك وأنصاره، ونصول بنصول[3] الحداد على دعاة الكفر لنهتك أستاره، وأن نتطهر بدماء المشركين والكفار، من أرجاس الذنوب وأنجاس الأوزار، وأن نلتحف رداء الصبر في هيجاء[4] القتال، عند اصطفاف الجحافل[5] بالشجعان والأبطال، واختلاف القساطل[6] والرهج العال، والتفاف الرامح[7] بالنابل في حومة المجال[8]، وتراشق الرّماة بالسهام والنبال، وتضايق الحماة في منازل النِّزال، وتصادق الكماة[9] في الطعان[10] بالطوال، وائتلاف كعاب[11] الرماح بالرماح، ومصافحة القوم بأكف[12] الصفاح، واختطاف عقاب[13] المنية حبّ الأرواح، واستلاب النفوس كفاحاً[14] بيد الكفاح، وإدارة كؤوس الآجال على ذوي النجل[15] والسّماح، ولمع البيض[16] البواتر، في ظلمات نقعٍ[17] كالدياجر، وجريان الدّمِ الزّاخر[18] من الحناجر بالخناجر.

هنالك فتحت من الجنة أبوابها، وارتفعت فرشها، ووضعت أكوابها، وبرزت الحور العين عروبها[19] وأترابها، وقام للجلاد[20] على قدم الاجتهاد خطابها، فضربوا ببيض المشرفية[21] فوق الأعناق، واستعذبوا من المنية مُرَّ المذاق، وباعوا الحياة الفانية بالعيش الباق، فوردوا مورد الشهادة منهلاً، لم يظمئوا بعده أبداً، وربحت تجارتهم، فكانوا أسعد السعداء، وأولئك في صفقة بيعهم هم الرابحون، " فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُم الله مِن فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرونَ " (آل عمران : ١٧٠)

---

١ حر الوطيس: ميدان المعركة.
٢ مجدّلاً: ملقى على الأرض.
٣ نصول الحداد: السيوف.
٤ الهيجاء: الحرب.
٥ الجحافل: الجيوش.
٦ القساطل والرّهج: الغبار.
٧ الرامح: الضارب بالرمح، والنا بل: الرامي بالنبل.
٨ حومة المجال: ميدان القتال.
٩ الكماة: الجنود الشجعان.
١٠ الطوال: الرماح الطوال.
١١ كعاب الرماح: مقابض الرماح.
١٢ الصِّفاح: عرض السيف.
١٣ عقاب المنية: كناية عن الموت.
١٤ كفاحاً: مواجهة.
١٥ ذوي النجل: آباء الأطفال.
١٦ البيض البواتر: السيوف القاطعة.
١٧ النقع: الغبار.
١٨ الدم الزاخر: الدم الغزير.
١٩ العروب: المتحببة إلى زوجها. والأتراب: المتساويات في العمر.
٢٠ الجلاد: الطعن والضرب.
٢١ بيض المشرفية: السيوف الحادة.

إليك اللهم نمدُّ أكفَ الضراعة أن تجعلنا منهم، وأن لا تحيد [١] بنا عند قيام الساعة عنهم، وأن ترزقنا من فضلك شهادة، ترضيك عنّا، وغفراً للذنب الذي أثقل الظهر وعنّا [٢]، وقبولاً لنفوسنا إذ عرضناها لك، تفضلاً منك ومنّاً، وحاشا كرمك أن نؤوب بالخيبة ممّا رجونا وأملنا، وأنت أرحم الراحمين.

ولما رأيت الجهاد في هذا الزمان قد درست [٣] آثاره فلا ترى، وطمست أنواره بين الورى، وأعتم[٤] ليله بعد أن كان مقمراً، وأظلم نهاره بعد أن كان نيِّراً، وذوى [٥] غصنه بعد أن كان مورقاً، وانطفأ حسنه بعد أن كان مورقاَ، وقفلت أبوابه فلا تطرق، وأهملت أسبابه فلا ترمق [٦]، وصفنت[٧] خيوله فلا تُركض، وصمتت طبوله فلا تنبض [٨]، وربضت [٩] أسوده فلا تنهض، وامتدت أيدي الكفرة الأذلاء إلى المسلمين فلا تقبض، وأغمدت السيوف من أعداء الدين، إخلاداً إلى حضيض[١٠] الدّعة والأمان، وخرس لسان النفير إليهم، فصاح نفيرهم في أهل الإيمان، وآمت[١١] عروس الشهادة إذ عدمت الخاطبين، وأهمل الناس الجهاد كأنهم ليسوا به مخاطبين، فلا نجد إلا من طوى بساط نشاطه عنه، أو تثاقل إلى نعيم الدنيا الزائل رغبةً منه، أو تركه جزعاً من القتل وهلعاً[١٢]، أو أعرض عنه شحاً على الإنفاق وطمعا، أو جهل ما فيه من الثواب الجزيل، أو رضي بالحياة الدنيا من الآخرة، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل.

أحببت أن أوقظ الهمم الرقد، وأنهض العزم المقعد، وألين الأسرار الجامدة، وأبين الأنوار الخامدة، بمؤلف أجمعه في فضل أنواع الجهاد، والحضّ عليه، وما أعدّ الله لأهله من جزيل الثواب عنده، وجميل المآب لديه، وما ادخر لعباده المرابطين والشهداء، وما وعدهم به من الكرامة في جنته دار السعداء.

فاستخرت الله سبحانه، وألقيت إليه مقاليد الإذعان، وبرأت إليه من الحول والقوة وما يعتري الإنسان من النسيان.

وألفت هذا الكتاب من الأصول المشهورة، وانتقيته من الدّواوين المذكورة وهي:

١ - كتاب الجهاد: للإمام عبد الله بن المبارك، وهو أول مؤلف في هذا الشأن فيما أعلم

٢ - المصنف: للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني.

---

١ لا تحيد: لا تعدى ولا تميل
٢ عنَّى: أخذه أسيراً.
٣ درست: أصبحت قديمة دارسة.
٤ أعتم: أظلم.
٥ ذوى: ذبل.
٦ لا ترمق: لا ينظر لها ولا يلتفت إليها.
٧ صفنت خيوله: وقفت الفرس على ثلاثة قوائم.
٨ لا تنبض: لا تتحرك.
٩ ربضت أسوده: أقامت ولم تتحرك.
١٠ حضيض الدعة: آثرت القعود والراحة.
١١ آمت العروس: ترملت بعد أن مات زوجها.
١٢ الهلع: أشدُ أنواع الخوف والفزع.

٣ - كتاب السُّنن: للإمام سعيد بن منصور الخراساني.

٤ - المسند: للإمام أحمد بن حنبل الشيباني.

٥ - المصنف: للإمام أبي بكر، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة.

٦ - الجامع الصحيح: للإمام أبي عبد الله البخاري.

٧ - الجامع الصحيح: للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري.

٨ - السُّنن: للإمام أبي داود السجستاني.

٩ - الجامع: للإمام أبي عيسى الترمذي.

١٠ - السُّنن الكبرى: للإمام أبي عبد الرحمن النَّسائي.

١١ - السُّنن: للإمام أبي عبد الله بن ماجة القزويني.

١٢ - الصحيح: للإمام أبي عوانة، يعقوب بن إبراهيم المهرجاني.

١٣ - المسند: للإمام أبي يعلى الموصلي.

١٤ - المسند: للإمام أبي بكر البزّار.

١٥ - المعاجم الثلاثة: للإمام أبي القاسم الطبراني.

١٦ - الصحيح: للإمام أبي حاتم بن حبان.

١٧ - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف: للإمام أبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر. وهو كتاب عزيز الوجود، في نحو خمسة عشر مجلداً.

١٨ - التفسير: للإمام ابن المنذر.

١٩ - المستدرك على الصحيحين: للإمام أبي عبد الله الحاكم.

٢٠ - السنن الكبرى: للإمام أبي بكر البيهقي.

٢١ - شُعب الإيمان: للإمام أبي بكر البيهقي أيضاً.

رحمهم الله أجمعين، وجمع بيننا وبينهم في عليّين.

وأضفت إلى ذلك جملةَ من الأحكام وغيرها، من أصولٍ معتمدة، مثل:

٢٢ - تفسير القرآن العظيم: لابن أبي حاتم.

٢٣ - تفسير القرآن: للقرطبي.

٢٤ - التذكر ة: للقرطبي.

٢٥ - الإشراف على مذاهب الأشراف: لابن المنذر.

٢٦ - الشرح الكبير: للرافعي.

٢٧ - الروضة، مختصر الشرح الكبير: للنووي.

٢٨ - شرح مختصر ابن الحاجب لابن عبد السلام. على مذهب الإمام مالك.

٢٩ - الهداية في شرح البداية: للمرغناني، على مذهب الإمام أبي حنيفة.

٣٥ - المغني: لابن قدامة. على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

ثم أضفت إلى ذلك زوائد أخرى كثيرة، معزوّةً إلى مواطنها، كما سنقف عليها إن شاء الله.

ومنها جملة هن كتاب يسمى " شفاء الصدور "، للخطيب أبي الربيع، سليمان بن سبع السَّبتي. وقد وقفت عليه بثغر الإسكندرية، في نحو أربعة أسفار، يشتمل على أحاديث في فضائل الأعمال. وقد وضع فيه مؤلِّفه من عجائب الغرائب أصولاً وفروعاً، وجمع فيه ما دبّ ودرج[١]، فأوعب[٢] وأوعى. أحاديثه عرية[٣] عن الإسناد، خاليةٌ من التصحيح والتضعيف، اخترت منه جملة، اتبعت الرخصة في نقلها، وخرجت من عهدتها بعزوها إلى أصلها.

وكنت قديماً قد سالت بعض مشايخ الحفّاظ النقاد عن أفضل كتاب وضع في فضل الجهاد. فذكر أن أبسط وأفضل ما صنّف فيه الأوائل والأواخر كتاب الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم بن عساكر.

فظللت نحو اثنتي عشرة سنة أتطلّبه وأسأل عنه، وأتلهّف على أن أقف على شيء منه، إلى أن وقع لي مفرّقاً في مجلّدين، فوجدته مما ينبغي أن يتناول باليدين، وأن يكتب دون المراد بالعسجد[٤] واللجين. إذ هو في هذا الشأن أجمع كتاب صنّف، وأرفع مجموع في هذا الباب ألف، غير أنه طال بكثرة أسانيده وطرقه وأبوابه، وإعادة الحديث باللفظ

---

١ دبّ ودرج: مثل يضرب، والمراد به هنا: جمع في كتابه كل شيء.
٢ أوعب وأوعى: مثل يضرب، والمراد به هنا: استوعب وحفظ وسجل كل ما وصته.
٣ عرية: خالية من الإسناد.
٤ العسجد: الذهب. واللجين: الفضة.

الواحد عن جماعةٍ من الصحابة، وذكر أبواب الأليق بها كتب الأحكام، وأحاديث ليس لطالب الآخرة بها كبير اهتمام.

فنظرت بعين تحقيق الاعتبار أنه يرجع إلى نحو خمسه عند الاختصار، مع أنه رحمه الله أهمل كثيراً مما في هذا الكتاب، ولم يبين صحيح أحاديثه من عليلها، وهو لبُّ اللُّباب، ولم يشرح ألفاظه الغريبة ليزول لارتياب، ولم يزد على الإسناد والمتن شيئا، إلا نادراً في ضمن باب!

فاخترت منه ما لم أره في الكتب المذكورة مما ينبغي أن يختار، وأضربت[1] عما هو مذكور فيها إيثاراً للاختصار.

ولم آل [2] جهداً في تهذيب هذا الكتاب، وتبويبه، ونظم كلّ حديثٍ في سلك مماثله وقريبه، وشرح ما في كل حديث من مشكله وغريبه، وتمييز صحيح الحديث غالباً من ضعيفه وغريبه، وذكر حكمٍ ، يجب على المجاهد أن يفهمه ويعتني به، واكتفيت بتعليق الأسانيد عن نقلها، وربما اغتنيت بيسير طلِّها [3] عن غزير وبلها.

مع أنّ فهمي قاصر، وباعي قصير، وعزمي متقاصر وجناحي كسير، وهمّي متكاثر [4]، وشغلي كثير، وعجزي ظاهر، ومالي ظهير [5].

لكنَ الربّ سبحانه عند القلوب المنكسرة، وإذا رجاه المقصّرُ سَتر وصْمه وجبره، وهو حسبي وكفى.

وسمّيته: "مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومُثير الغرام إلى دار السلام".

ورتبته على ثلاثة وثلاثين باباً وخاتمة.

وإلى ذي الغنى المطلق أمدّ كفت الفقر المحقّق، أن يجعلني فيه من المخلصين، وبأذيال كرمه العام، أعلّق يد الفاقة والإعدام، أن يجعله ذخيرةً لي يوم الدين، وبباب عفوه الغزير أقف وقفة المعترف بالعجز والتقصير، سائلاً ستر عيوبي جمعاً، وإليه أضرع أن لا يجعلني من: " الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً" (الكهف : ١٠٤).

ومن فيضه الجمّ، أسأله المعونة، على حزن [6] الأمر وسهله، وفيما خصّ وعمّ، أتوكل عليه، وأعتصم بحبله، وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

١ أضربت عن الشيء: أعرضت عنه.
٢ لم آلُ جهداً: لم أُقصّر.
٣ الطلّ: الندى. والوَبل: المطر الغزير.
٤ همّي متكاثر: همّي متزايد.
٥ مالي ظهير : مالي مُعين ولا مساعد.
٦ الحزن: الغليظ الشديد الصعب. والسهل: الهيّن اليسير.

الباب الأول

في الأمر بجهاد الكفار، وذكر وجوبه، والوعيد لمن تركه

قال الله تعالى: " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ " البقرة "٢١٦" .

وقال تعالى: "وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" البقرة "٢٤٤".

وقال تعالى: "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" البقرة"٢٥١" .

وقال تعالي: "فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ " التوبة "٥".

وقال تعالى:"قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" التوبة "٢٩" .

وقال تعالى:وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" الحج "٤٠".

قال الإمام أبو عبد الله الحليمي في كتابه "شعب الإيمان " عن معنى الآية: أخبر الله أنه لولا دفعه المشركين بالمؤمنين، ولولا تسليط المؤمنين على المشركين، لدفعهم عن الإسلام، وكسر شوكتهم وتفريق جمعهم - لولا ذلك لغلب الشرك على الأرض، وارتفع الدين الحق عنها!

ويثبت بهذا أن سبب بقاء الدين، وتمكين أهله من العبادة، هو الجهاد! وبما أن الجهاد بهذه المترلة فحق له أن يكون من أركان الإيمان، وأن يكون المؤمنون من أحرص الناس عليه، في أقصى الحدود والغايات. وقال تعالى: "فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ... محمد "٤" .

والآيات في الأمر بجهاد المشركين وقتال أعداء الدين كثيرة جداً.

ومن الأحاديث التي تتحدث عن الجهاد:

١ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: "أُمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلاّ بحقها، وحسابهم على الله..." ١.

وقد روى هذا الحديث أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم، عن جماعة من الصحابة.

٢ - روى البيهقي والحاكم عن بشير بن الخصاصية رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بايعه على الإسلام. فاشترط علي تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله...

قلت: يا رسول الله: أما اثنتان فلا أطيقهما: الزكاة، لأنه ليس لي إلا عشر ذود، هن رسل أهلي وحمولتهم.

وأما الجهاد فإنهم يزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله، وأخاف إن حضرني قتال كرهت الموت، وخشعت نفسي. فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، ثم حركها، ثم قال: لا صدقة، ولا جهاد، فبماذا تدخل الجنة؟ قلت: يا رسول الله: أبايعك، فبايعني عليهن كلهن" ٢.

الذود هي الإبل، فلم يكن بشير بن الخصاصية يملك إلا عشرة من الإبل، منها "رسل" أهله، والرسل هو اللبن، حيث كانوا يحلبونها ويشربون ألبانها، ويركبونها في تنقلاتهم.

---

[1] أخرجه البخاري برقم ٦٩٢٤. ومسلم برقم:٣٣.
[2] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ٢٠. والحاكم في المستدرك ٢/٨٠. وصححه ووافقه الذهبي.

٣ - روى النسائي وأحمد عن سلمة بن نفيل رضي الله عنه قال: بينما انا جالس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ دخل رجل فقال: يا رسول الله: إن الخيل قد سيبت، ووضع السلاح، وقد زعم أقوام أنه لا قتا ل، وأ نه قد وضعت الحرب أوزارها! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبوا! الآن جاء القتال! وإنه لا تزال أمة من أمتي يقاتلون في سبيل الله، لا يضرهم من خالفهم، يزيغ الله بهم قلوب أقوام، ليرزقهم منهم، يقاتلون حتى تقوم الساعة. ولا يزال الخير معقودا في نواصي الخيل إلى يوم القيامة. تضع الحرب أوزارها، حين يخرج يأجوج ومأجوج.. " ١.

٤ - روى أبو داود والنسائي والحاكم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم.. " ٢.

وجهاد الكفار بالألسنة يكون بإسماعهم ما يكرهونه ويشق عليهم سماعه، من هجاء وكلام غليظ، ونحو ذلك.

٥ - روى ابن أبي شيبة وعبد الرزاق عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ا لإسلام ثما نية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والحج سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له.. " ٣.

٦ - روى الترمذي عن الحارث بن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - بعد أن ذكر ما بلغ يحى بن زكريا عليهما السلام بني إسرائيل من الأوامر الخمسة - ""... وأنا آمركم بخمس، أمرني الله بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة.. فإن من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع .. "٤. والربقة هي العروة التي يوضع بها الحبل لتساق به الدابة.

٧ - روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:""لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا..""٥.

---

[1] أخرجه النسائي: ٦/ ٢١٤. وأحمد في المسند: ٤/ ١٠٤وإسناده صحيح

[2] أخرجه أبو داود: ٣/ ٢٢. والنسائي: ٦ /٧. والحاكم: ٢/ ٨١. والحديث صحيح.

[3] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ٥/ ٣٥٢. وعبد الرزاق في، المصنف: ١٧٣/٥-١٧٤والحديث صحيح

[4] أخرجه الترمذي: ٤/ ٢٢٥- ٢٢٦. والحديث صحيح.

[5] أخرجه البخاري برقم : ٢٧٨٣. ومسلم برقم: ١٣٥٣.

ويدل هذا الحديث على أنه إذا عين الإمام أحدا للجهاد، فإن الجهاد في حقه فرض عين، لأنه يقول:"" إذا استنفرتم فانفروا.".

٨ - روى البيهقي والدارمي عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، قال: "خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر الجهاد، فلم يفضل عليه شيئا، إلا المكتوبة .."١.

ومن أقوال وأفعال الصحابة والتابعين في الجهاد:

روى الحاكم وابن جرير الطبري عن أبي راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم - رضي الله عنه - جالسا على توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظم جسمه، وهو يريد الغزو! فقلت له: لقد أعذر الله إليك! قال المقداد: أبت عليّ سورة البعوث. قال تعالى:" انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ" التوبة "٤١" .

وسميت سورة التوبة سورة ""البعوث"" - بفتح الباء وكسرها - لأن موضوعها هو الجهاد وإرسال السرايا والبعوث. وفي روايات "البحوث " بالحاء، أي أنها تبحث وتنقب عن المنافقين، وتفضحهم وتكشفهم.

روى ابن المبارك في كتاب الجهاد عن عطية بن أبي عطية: أنه رأى عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه يوماً من أيام القادسية، وعليه درع سابغة، يجرها في الصف في ميدان الجهاد ٢.

وكان عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه أعمى، وقد أعذره الله، ولكنه خرج للجهاد، واشترك في معركة القادسية، وحمل اللواء فيها، واستشهد فيها!

روى ابن المبارك عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه قرأ هذه الآية: " انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ" التوبة:"٤١"

---

[١] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ٤٨. والدارمي في سننه: ٢/ ٢٠٧. والحديث صحيح.
[٢] كتاب الجهاد لابن المبارك: ١/ ١١٩.

فقال: أمرنا الله واستنفرنا، شيوخا وشبانا، جهزوني للجهاد. فقال له بنوه: يرحمك الله، لقد غزوت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر، فنحن نغزوا عنك! فلم يلتفت لهم وخرج إلى الجهاد، وغـزا في البحر، فمات رضي الله عنه، فطلبوا جزيرة يدفنونه فيها، فلم يجدوا جزيرة إلآ بعد سبعة أيام. ولم يتغير جسمه[1]!

روى ابن جرير الطبري في التفسير عن ابن شهاب الزهري قال: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد سقطت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل! فقال: قد استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم أتمكن من ا الحرب والقتال كثـرت عدد المسلمين وسوادهم، وحفظت المتاع! [2]

روى ابن أبي شيبة وابن جرير عن الحسن البصري قال في قوله تعالى: " انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً ... ": قال: الشـيخُ والشابّ[3].

روى ابن أبي شيبة والطبري: عن منصور بن زاذان أنه قال في الآية: " انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً..." : انفروا مشاغيل وغير مشاغيل " [4].

وقال بعضهم: الثقيل: الذي له ضيعة وأرضٌ يكرهُ أنْ يَدَعَها، والخفيفُ هو الذي لا ضيعة له. وقـال آخـرون: الخفيف: الشجاع، والثقيل: الجبان. وقال الإمام القرطبي في تفسيره: الصحيح في معنى الآية: أن الله أمر الناس جميعا ً أن ينفروا للجهاد، سواء خفت عليهم الحركة أو ثقلت.

ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره أن بعض المجاهدين رأْوا في فتح بلاد الشام رجلاً مجاهداَ، قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر! فقال له أحدهم: يا عمِّ، إن الله قد أعذرك! قال: يا ابن أخي: لقد أمرنا الله بالنفير خفافاَ وثقالاً[5].

روى الإمام عبد الرزاق في المصنف عن مكحول: أنه كان يستقبل القبلة، ثم يحلف عشرة أيمانْ: أن الغزو واجب عليكم أيها المسلمون. ثم يقول: إن شئتم زدتكم![6] .

---

[1] كتاب الجهاد لابن المبارك: ١/ ١١٦. والمستدرك للحاكم: ٢/ ١٠٤.
[2] تفسير ابن جرير الطبري: ١٠/٩٨.
[3] المصنف لابن أبي شيبة: ٥ / ٣٠٦. وتفسير الطبري: ١٠/ ٨٥.
[4] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/ ٦ ٠ ٣. وتفسير الطبري :٠ ١/ ٩٧
[5] تفسير الطبري: ١٠/ ٩٨.
[6] المصنف لعبد الرزاق: ٥/ ١٧٤.

ومعنى قوله: إن شئت زدتكم من الأيمان، لتطمئن قلوبكم!!

فـــــــصل

هل الجهاد فرض كفاية أم فرض عين ؟

اعلم أن جهاد الكفار في بلادهم فرض كفاية، باتفاق العلماء. وحكي عن ابن المسيب وابن شبرمة أنـــه فـــرض عين. ومعنى فرض الكفاية: إذا قام بالفرض من فيه كفاية، سقط الحرج والإثم عن الباقين، وإن تركه الجميع كـــانوا آثمين.

والراجح أن أصحاب الأعذار الذين أعذرهم الله لا يأثمون. وأقل الجهاد في كل سنة مرة، والزيادة أفضـــل بـــلا خلاف، ولا يجوز أن تخلو سنة من غزوٍ وجهاد، إلا لضرورة، كضعف المسلمين، وكثرة العدو، وخوف استئصـــال المسلمين إذا هم بدءوا الكفار القتال، أو لعذرٍ كقلة الزاد، وقلة علف الدواب، ونحو ذلك. فإن لم تكن ضرورة ولا عذر لم يَجُز تأخير الغزو سنة. وهذا ما نصّ عليه الشافعي وأصحابه.

وقال إمام الحرمين الجُوَيْني: المختار عندي مسلك الأصوليين، قالوا: الجهاد دعوة قهريّه، ولذلك تجـــب إقامتـــه حسب الإمكان، حتى لا يبقى في الأرض إلاّ مسلم أو مسالم، ولا يختص الجهاد بمرةٍ في السنة، ولا يعطّل إذا أمكنت الزيادة.

وما ذكره الفقهاء من كونه مرةً في السنة حملوه على العادة الغالبة، فإنّ تجهيز الأموال وتجبييش الجيوش يتأتى مرةً في السنة[1]!

وقال ابن قدامة في المغني: أقل ما يفعل الجهاد في كل عام مرة، إلا إذا تعذر ذلك، وإن دعت الحاجة إلى القتـــال أكثر من مرة في العام وجبت، لأنه فرض كفاية، وفرض الكفاية يجب كل ما دعت عليه الحاجة[2].

---

[1] روضة الطالبين للنووي: ١٠/ ٢٠٩.
[2] المغني لابن قدامة: ٨/ ٣٤٨.

وقال الإمام القرطبي في التفسير: فرض على الإمام إغزاء طائفةٍ إلى العدو، كلّ سنة مرة، يخرج معهم بنفسه، واذا لم يمكنه ذلك يخرج معهم من يثق به، يدعوهم إلى الإسلام، ويكفت أذاهم، ويظهر دين الله، حتى يدخلوا في الإسلام، أو يعطوا الجزية عن يدا وهم صاغرون١.

ولا يجب الجهاد على صبي، ومجنون، وامرأة، ومن به مرض يمنع من القتال.

ويجب الجهاد على أعور، وذي صداع، ومن به وجع ضرس، وحمّى خفيفة، وعلى ذي عرج يسير٢. وأجمعوا على أنّ الغزو لا يجوز إلا بإذن الأبوين المسلمين. والجدُ والجدةُ كالأبوين عند عدمهما.

ولو أذن الأبوان لابنهما في الجهاد، ثم رجعا في الإذن - أو رجع أحدهما فيه - قبل حضور الابن ميدان المعركة وجب عليه الرجوع والعودة إلى الأبوين. إلا أن يخاف على نفسه أو ماله إن عاد، أو خاف انكسار قلوب المسلمين برجوعه.

وإن رجع الأبوان في الأذن عند الشروع في القتال حَرُمَ على الابن الانصراف من الميدان في هذه الحالة ٣.

واختلف في خروج المدين للجهاد:

الإمام مالك كان يُرَخصُ لمن عليه دين لم يستطع قضاءه الخروج للجهاد.

وكان الإمام الأوزاعي يجيز له الخروج للجهاد بدون إذن الدائن.

وخالفهما الشافعي، فكان لا يرى للمدين الخروج للجهاد إلاّ إذا أذن الدائن، سواء كان الدين لمسلم أو لكافر٤.

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٨/ ١٥٢
[٢] المغني لابن قدامة: ٨/٣٤٧-٣٤٨.
[٣] المرجع السابق ٨/ ٣٥٨-٣٥٩
[٤] الأم للشافعي: ٤/ ١٦٣.

والدليل على جواز خروج المدين للجهاد خروج عبد الله بن حرام الأنصاري رضي الله عنه إلى غزوة أحد، وعليه دين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك، ولم ينكر عليه.

وقل استشهد عبد اللّه بن حرام في أحد، وأدى ابنُه جابر - رضي الله عنهما - دينه فيما بعد ١.

ولكن على المدين الخارج للجهاد أن يترك ما يفي ويسدُّ به دينه، كما فعل والدُ جابر، حيث ترك ما يســـدُّ بـــه دينه، وسدَّه عنه ابنه جابر.

ونص الإمام أحمد على أنه إذا ترك المدين وفاءً لدينه، جاز له الخروج للغزو بغير إذن، واستدلّ بقصة عبد الله بن حرام رضي الله عنه ٢.

واشتراط إذن الوالدين للابن، والدائن للمدين، في الجهاد الذي هو فرض كفاية.

وهذا الاشتراط يسقط إذا دخل الكفار بلدةً للمسلمين، أو أشرفوا عليها من بعيد، وكان عددهم ضعفي أهلـــها أو أقل قليلاً.

إنّ الجهاد في هذه الحالة يصبح فرض عين على كلّ مسلم ومسلمة، فيخرج العبد بدون إذن سيده، وتخرج المرأة بدون إذن زوجها - إن كان في المرأة قوة دفاع، على أصح الوجهين - ويخرج الولد بغير إذن الوالدين، ويخرج المدين بغير إذن صاحب الدين.

وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ٣.

وان داهم الكفار بلدةً للمسلمين واحتلّوها، ولم يتمكن المسلمون فيها من الإجتماع والتأهب لقتـــال الكفـــار، فيجب على كل مسلم أن يواجههم بنفسه.

---

[1] أخرج قصة عبد الله بن حرام البخاري في صحيحه برقم: ٢٣٩٥.
[2] المغني لابن قدامة: ٨/ ٣٦٠- ٣٦١.
[3] انظر روضة الطالبين للنووي: ١٠/ ٢١٤. والمغني لابن قدامة: ٨/٣٦٤.

إن علم المسلم أن الكفار يقتلونه إن استسلم وجب عليه أن يتحرك ويدفع عن نفسه بما أمكنه، حتى لو قتلوه وهو يواجههم ويدافع عن نفسه.

لا فرق في ذلك بين الحُرِّ والعبد، والرجل والمرأة، والأعمى والأعرج والمريض.

ويجوز له أن يستسلم لهم وأن يأسروه، إذا علم أنهم لا يقتلونه إن استسلم، ولكن قتالهم أفضلُ من استسلامه لهم، وإن قُتل يكون شهيداً. ولو علمت المرأة المسلمة أن الكفار يعتدون على عِرضِها إن استسلمت، لزمها الدفاع عن نفسها ومقاتلتهم ولو قُتلت، لأن من أُكره على الزنا لا يجوزُ له أن يستسلم للزنا ليدفع عن نفسه القتل!

والظاهر أن الأمردَ الجميل حكمه حكم المرأة في وجوب الدفاع عن نفسه.

وإذا نزل العدوُّ بقعةَ من بلاد المسلمين، فيجبُ على المسلمين في المناطق الأخرى مساعدة المسلمين في تلك البقعة.

ومن كان في مكان، ونزل العدوّ قريباً منه، دون مسافة القصر - وهي ما يزيد قليلاً على ثمانين كيلو متراً في قياسات هذا العصر - كان قتالهم فرض عينٍ عليه، كما هو فرض عينٍ على أهل البلدة التي نزل بها الكفار.

وعلّل الإمام الماوردي وجوب القتال عليه في هذه الحالة: لأنه قتال دفاع، وليس قتال غزو، لذلك يكون هذا القتال فرضاً على كل مطيق له.

وعندما ينزل الكفار بلدةَ للمسلمين، وجبت مساعدة أهل البلدة على كلِّ من كان على بعد مسافة قصرٍ عنهم، إن كفى هؤلاء وأغنوا، وإن لم يكن بهم كفايةٌ وجب النفير على الباقين الذين هم أبعدُ منهم!

وان خرجَ للكفار من تحصل بهم الكفاية، سقط الحرج عن الباقين، ولكن فاتهم الأجر العظيم والثواب الجزيل.

وعند بعض العلماء أنه تجب النجدة والمساعدة على الأقربين للبلدة التي نزل فيها الكفار، ثم من يليهم، بدون ضبطٍ ولا تحديد، حتى يبلغ الخبرُ المسلمين بأنه قد تتمَ تحرير تلك البلدة وإخراج الكفار منها.

وإذا احتل الكفار جبلاً أو سهلاً أو مكاناً في دار الإسلام بعيدٍ عن البلدان والأوطان، وليس فيه سكان، فإنه يأخذ حكم البلدة التي يحتلُها الكفار، ويجب على المسلمين النفير لتحرير ذلك المكان!

قال الإمام النووي: لا يجوز تمكين الكفار من الاستيلاء على دار الإسلام![1]

وقال القرطبي: لو اقترب الكفار من دار الإسلام ولم يدخلوها، لزم المسلمين الخروج إلى الكفار، حتى يظهر دين الله، وتحمى البلاد، وتحفظ الحدود والثغور[2].

قال البغوي: إذا دخل الكفار دار الإسلام، فالجهاد فرض عين على من قرب، وفرض كفاية في حقَّ من بعد![3].

هذه بعض المسائل الفرعية التي تتعلق بالجهاد بين كونه فرض عين، أو فرض كفاية!!

فصل

في ذكر بعض ما ورد في وعيد من ترك الجهاد رغبة عنه

قال الله تعالى: "قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" التوبة"٢٤".

في هذه الآية الشريفة ما فيه الكفاية، من التهديد والتحذير والتخويف لمن ترك الجهاد، رغبةَ عنه، وسكوناً إلى ما هو فيه من الأهل والمال. فاعتبروا يا أولي الأبصار. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ "٣٨" إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "٣٩" " التوبة: ٣٨ - ٣٩.

[1] روضة الطالبين للنووي: ١٠/ ٢١٦.
[2] تفسير القرطبي: ٨/ ١٥١-١٥٢.
[3] شرح السنة للبغوي: ١٠/ ٣٧٤.

قال الإمام القرطبي حول هذه الآية: هذا توبيخ من الله على ترك الجهاد، وعتاب على القعود، وعدم المبادرة إلى الخروج.

ومعنى قوله: " اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ... ": تثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بها.

والتثاقل عن الجهاد، مع إظهار الكراهة له حرامٌ على المسلم. وإذا عيّنَ الإمامُ قوماً، وأمرهم بالجهاد، لا يجوز لهم أن يتثاقلوا عنه، لأنه بتعيين الإمام لهم، صار الجهاد فرض عين عليهم ١.

وقال تعالى: "فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ "٨١" فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ "٨٢" فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ "٨٣" وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ "٨٤"" التوبة "٨١ -٨٤"

فانظر - رحمك الله - إلى هذا الوعيد الشديد والخزي العظيم والوبال الأليم لمن تخلف عن الجهاد، وقعد عنه، وكره الإنفاق فيه.

ورغم أنَ هذه الآيات نازلةٌ في أقوام معيّنين من المنافقين، تخفوا عن غزوة تبوك، إلاّ أن فيها ترهيباً وتهديداً لمن فعل مثل فعلهم، وتخلَف عن الجهاد الواجب عليه، وحسبك بفعله فعلا شنيعاً، ووعيداً فظيعاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن الأحاديث الصحيحة في النهي عن التثاقل عن الجهاد:

٩ - روى أبو داود وأحمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا تبايعْتُم بالعِينَة، وأخذتُم أذنابَ البقر، ورضيتُم بالزرع، وتركتُم الجهاد، سَلَطَ اللهُ عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم... " ٢.

---

[١] تفسير القرطبي: ٨/ ١٤٠.
[٢] أخرجه أبو داود: ٣/ ٧٤٠. وأحمد في المسند بتحقيق أحمد شاكر ٧: ٣٣ والحديث صحيح.

قال البيهقي في "شُعب الإيمان": التبايع بالعينة - بكسر العين - أن يقول الرجل لآخر: إِشتر كذا وكذا، وأنا أشترَيه منك بكذا وكذا.

وقال أبو عبيد الهروي في "الغريبين": التبايُع بالعينَة: أن يَبيع رجل لآخر سلعةً بثمنٍ معلوم، إلى أجل مسمى، ثم يشتريها منه بثمن أقلّ، فهذا منهي عنه.

وسُميت "عينة" بسبب حصول النقد لصاحب العينة، وهو الفرق بين السعرين، وذلك أنّ العين هي المال الحاضر، فالمشتري إنما يشتريها ليبيعها بمال حاضرٍ يحصل عليه،

وقال الماوردي في الحاوي: سميت عينة، لأنها أخذ عينٍ بربح. والعين هي الدراهم والدنانير.

ومعنى الحديث: إذا ترك الناس الجهاد، وأقبلوا على الزرع ونحوه، تسلَّطَ عليهم العدو، لعدم تأهُبهم له، وعدم إستعدادِهم لمواجهته، ولرضاهم بما هم فيه من الأسباب الدنيوية، ولذلك يوقعُ اللهُ بهم الذلَ والهوانَ عقوبةَ لهم، ولا يتخلَصون منه حتى يرجعوا إلى أداء ما أوجبه اللهُ عليهم، من جهاد الكفار، وإقامة الدين، ونصرة الإسلام وأهله.

ودلَ قوله صلى الله عليه وسلم: "حتى ترجعوا إلى دينكم " على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا، خروج عن الدين ومفارقة له، وكفى به ذنبا وإثمَاَ مبيناً!

واذا ترك الناس الجهاد فإن الله يضربهم بالفقر أيضاً، عقاباً لهم. وقد لا يكون الفقر فقراً في المال، ولكنه فقر في النفس، يتمثل في الحرص والشح، فمن كان هكذا فهو فقير، وإن كان كثير المال. ١٠ - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغِنى غِنى النفس..." ١.

إن الغنى هو غنى القلب، والفقر هو فقر القلب. والذي نشاهده من الناس: أنهم لما أعرضوا عن الجهاد، وأقبلوا على الاكتساب من مختلف الجهات، المباحة والمحرمة، سلط الله عليهم فقر قلب، وشدة حرص، وغلبة شح، فمنعوا

[1] أخرجه البخاري برقم: ٦٤٤٦ مسلم برقم: ١٠٥١.

كثيراَ من الحقوق الواجبة، وتناولوا كثيراَ من الأمور المحرمة، كالمكوس والضرائب وغيرها. وصار متاع الدنيا القليل عندهم كثيراَ جليلاً.

لقد أذلَهم الحرص والطمع، وقل أن تجدَ منهم أحداَ إلا وقد استولت عليه الذلة، فهو ذليلٌ للشخص الذي يرى أنَ رزقه يأتيه من جهته، استعبدهُ الطمعُ للمال، والخوفُ من فواته. ولو كان غنياً في نفسه وقلبه لكان حُراً، فهو في الحقيقة فقير، لهان كانَ صاحبَ ثروة، وهو ذليل، وإن كان في ظاهره عزيزاً، استولى الذلُ على قلبه، وسكن فيه.

إن المجاهد الذي يرتزق بسيفه عن طريق الغنائم لا يشعر بالفقر ولا بالذل، لأن رزقه مأخوذ بالسيف، ليس لأحد غير الله له فيه منة. والغنيمة حلا ل محض صافِ لا شبهة فيه، فهي سببٌ في تنوير القلب، وطرد ظلمات الشح والبخل والحرص عنه.

وان المجاهد الذي يأتيه رزقه من الغنيمة غنيُ النفس وان كان فقيرَ اليد، وشعاره العزة والعظمة، وإن كان دثاره الظاهر الذل والمسكنة، فهو ينطبق عليه كلام الله عن المؤمنين: فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ ..." المائدة ٥٤.

أما من اكتسب رزقه من الشبه، وأذلّه الطمع للناس، فهو وان كان عزيزاَ في الظاهر، فإنّ قلبه بأنواع الذل عامر، وهو وإن كان في الظاهر غنياً بما جمع، فهو في الباطن فقيرٌ بالحرص والطمع. وتأبى المكاسب الدنية إلا أن تورث أصحابها هذه الأخلاق الردية. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وهذا المعنى أكَده عليُ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة، ومن ترك الجهاد في سبيل الله ألبسه الله الذلة، وشمله البلاء، ودُيث بالصغار، وسيم الخسف، ومنع النصف! ومعنى "دُيثَ بالصغار": ُذللَ بالذل والهوان.

١١ - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ ماتَ ولم يغزُ، ولم يُحَدِّثْ به نفسه، ماتَ على شعبةِ من النفاق... " ١.

---

[1] أخرجه مسلم في كتاب الإمارة. باب ذم من لم يغز. رقم: ١٩١.

١٢ - روى أبو داود وابن ماجة عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ لم يَغزُ، أو يُجهز غازياَ، أو يَخلفُ غازيا في أهلِه بخير، أصابه اللهُ بقارعةٍ قبلَ يوم القيامة... " ١.

والقارعة هي: الداهية الشديدة، أو المصيبة، يوقعُها الله به عقوبة له. قال القرطبي: فإن قيل: كيف يصنع الواحد إذا قصّر الجميع في الغزو؟

قيل له: يعمد إلى أسير واحد عند الأعداء فيفديه منهم. ويعمل على إطلاق سراحه وإعادته إلى المسلمين، فإنه إذا فدى أسيراً مسلماً واحداً فقد أدى في هذا الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة، لأنه لو اكتتب أغنياء المسلمين في فداء الأسرى، فقد لا يزيد الواجب على الواحد منهم عن درهم.

وعلى المسلم الحريص على الجهاد أن يغزو بنفسه إن استطاع، وان لم يستطع الجهاد بنفسه يجهز غازياً! ٢

فـــــصل

في تفنيد حجج المتثاقلين عن الجهاد

اعلم أيها الراغب عما افترض عليه من الجهاد، الناكب عن سنن التوفيق والسداد، أنك قد تعرضت للطرد والإبعاد، وحرمت - والله - الإسعاد بنيل المراد! وما ذلك إلا لقعودك عن الجهاد!! ما سبب إحجامك عن القتال؟ واقتحام معارك الأبطال؟ وبخلك عن سبيل الله بالنفس والمال؟

ما هو إلا طول أمل، أو خوف هجوم أجل، أو فراق محبوب من أهلِ ومال، أو ولدِ وخدمِ وعيال، أو أخِ لك شقيق، أو قريبِ عليك شفيق، أو ولي كريم، أو صديقِ حميم، أو ازدياد من صالح الأعمال، أو حب زوجة ذاتِ حسن وجمال، أو جاهٍ منيع، أو منصب رفيع، أو قصر مشَيد، أو ظلٍ مديد، أو ملبسِ بهي، أوَ مأكل هني! ليس غير هذه الأسباب ما يُقعدك عن الجهاد، ويبعدك عن رب العباد،والله ما هذا الموقف منك بجميل! أما تسمع قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ "٣٨"" التوبة: ٣٨.

---

[1] أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد: ٣/٢٢. وابن ماجه في كناب الجهاد: ٢/ ٩٢٣ و اسناده حسن.
[2] تفسير القرطبي: ٨/ ١٥٢.

إصغِ لما أملي عليك من الحجج القاطعة، واستمع ما ألقي عليك من البراهين الساطعة. لتعلم أنه ما يقعدك عـــن الجهاد سوى الحرمان، وليس لتأخرك سببٌ إلا النفس والشيطان.

تفنيد الحجة الأولى:

أما سكونك إلى طول الأمل، وخوفك هجوم الأجل، واحترازك من الموت الذي لا بد من نزوله، وإشفاقك مـــن الطريق الذي لا بد من سلوك سبيله، فهذا باطل، وحجتك فيه واهية مردودة.

والله إنّ الإقدام لا ينقص عمر المتقدمين، ووالله إن الإحجام لا يزيد عمر المستأخرين. والله تعالى يقول: "وَلِكُـــلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ "٣٤""الأعراف: ٣٤".

والله يقول: " وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ "١١""المنافقون: ١١".

والله يقول:"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ "٥٧""العنكبوت: ٥٧ " .

إن للموت لسكرات أيها المفتون، وان هول المطلع شديد ولكن لا تشعرون، وان للقبر عذاباً لا ينجو منـــه إلاَ الصالحون، وفي القبر سؤال الملكين الفاتنين. والله عز وجل يقول: "يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ "٢٧" ""إبراهيم: ٢٧".

وفي الاَخرة الخطر العظيم، والإنسان إما أن يكون سعيداَ إلى جنات النعيم، وإمّا أن يكـــون شـــقياً إلى عـــذاب الجحيم.

والشهيد آمن من جميع ذلك، لا يخشى شيئاً من هذه المهالك! والقتل غير مؤلم للشهيد، فلا يجد إلا ألم القرصة.

١٣ - روى الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما يَجِدُ الشهيدُ من أَلَمِ القتل إلا كما يجدُ أحدكم من مسِ القرصة... " ١.

---

[1] أخرجه الترمذي: ٣/ ١٠٩. والنسائي: ٦/ ٣٦. وابن ماجة: ٢/ ٩٣٧ وإسناده حسن.

فما يقعدك أيها الأخ عن انتهاز هذه الفرصة؟ وبعدها تجار في القبر من العذاب، وتفوز عند الله بحسن المآب، وتأمن من فتنة السؤال، وما بعد ذلك من الشدائد والأهوال، فالشهداء عند ربهم أحياء يرزقون لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، فرحين بما آتاهم الله من فضله مستبشرين، أرواحهم في جوف طير خضر تسرحُ في عليين.

فكم بين هذا القتل الكريم، وبين الموت الأليم؟ والله إن البون بينهما بعيد، ومن رزق التوفيق فهو السعيد!

تفنيد الحجة الثانية:

وان قلت: يعوقني عن الجهاد: أهلي ومالي، وأطفالي وعيالي، فأنت مخطىء، وحجتك هذه باطلة مردودة. لقد قال الله قولا بيناً لا يخفى: "وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى٠٠٠" "سبأ:٣٧".

وقال تعالى:"زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ "١٤" "عمران: ١٤".

وقال تعالى:"اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ "٢٠" "الحديد:٢٠".

والآيات في مثل هذا كثيرة، والحجج واضحة منيرة. ١٤ - وروى الترمذي عن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جَناح بعوضة ما سَقى منها كافراً شُربةَ ماء٠٠" ١.

١٥ - وروى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "موضعُ سوطِ أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها، وغَدوة في سبيل الله أو رَوحة خير من الدنيا وما فيها، وخِمارُ جاريةٍ من أهل الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها.." ٢

---

[1] أخرجه الترمذي: ٣/٣٨٣. والحديث صحيح.
[2] أخرجه البخاري برقم: ٢٨٩٢.

فكيف يصدُك عن هذا الملك العظيم في الجنة أهلٌ ، عن قريبٍ يكونون في الأموات، وتمزقهم أيـدي الشـتات، وتفرقهم نوازل الآفات؟ مع ما يصدر منهم من النكد والعداوات، والأخلاق السيئات، والحقد على ما عرَضـت حظوظهم منك للفوات! وهجرانهم إياك عند قلة المال، وتحولهم عن وُدك عند تغيُرِ الأحوال!

وأعظم من ذلك فرارهم منك في المآل، ومحاسبتهم إياك على مثاقيل الذرِ في موقف السؤال، حتى يود كل واحدٍ منهم لو نجا، وحمَلَكَ ما عليه من الذنوب والأثقال! أم كيف يصدكَ المال عن الجهاد وهـو في معـرض الـذهاب والزوال، ينفر عنك عند فقده الأخلاء، وتتفرق العيال، ويهجرك كل صديقٍ كان يكثر لك الوصال؟

ثم يوم القيامة تسأل عن المال: من أين اكتسبته؟ وفيم أنفقته؟ ويا له من سؤال، في يومٍ تشيبُ فيـه الأطفـال، وتعظم فيه الأهوال! يكثرُ فيه الزحام، ويشتدُ فيه الخصام، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها من هولِ ذلك المقام، ويعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام أ ويحاسب فيه الأغنياء على النقير والقطمير، والخطير والحقير، والناقص والتمام، ويسبق الفقراءُ الأغنياءَ إلى الجنة بخمسمائة عام، كما أخبرنا رسـول الله عليه الصلاة والسلام!

١٦ - روى الترمذي وابن ماجة وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: "يَدخلُ فقراءُ المسلمين الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بنصفِ يوم، وهو خمسمائة عام" ١.

وإن تذكرت ولدك الكريم وحنوت عليه حنوَّ الأب الشفيق الرحيم، فتذكَر قول الله تعـالى: "إِنَّمَـا أَمْـوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ "١٥"" "التغابن:١٥".

ووالله إن الله أرحم بالولد من أبيه وأمه، وأخيه وعمِّه، وكيف لا وهو قد رباه قبلهم برحمته في ظلمات الأحشاء، وقلبَهُ بيدِ لطفه ورأفته في أرحام الأمهات وأصلابِ الآباء!. وكيف يقعدك عن دار النعيم وجوار الربّ الكريم، ولدٌ إن كان صغيراً فأنت به مهموم، وإن كان كبيراً فأنت به مهموم! وان كان صحيحاً فأنت عليه خائف، وإن كـان سقيماً فقلبك لضعفه واجف!

[1] أخرجه الترمذي: ٤/ ٨-٩ وابن ماجة: ٢/ ١٣٨٠. وأحمد في المسند: ٢/ ٢٩٦. والحديث صحيح

إِن أدّبته غضبَ وشرد، وإن نصحته حرد وحقد! مع ما تتوقَعهُ من العقوق المعتاد، من كـثير مـن الأولاد! إن أقدمت جبّنك، وإن سمحت وأنفقت بخّلك، وإن زهدت رغّبَك! لقد عظمت به الفتنة، وأنت تعدُّها مِنة! وعمَ بـه البلاء، وأنت تراه من النعماء!

تودُ سروره بهمك، وفرحَه بحزنك، وربحه بخسرانك، وزيادة درهمه وديناره بخفّة ميزانك! تتكلَفُ من أجله مـالا تُطيق، وتدخلُ بسببه في كل مَضيق!

ألقه يا هذا عن بالك إلى من خلقك وخلقه، وتوكل في رزقه بعدك على الذي رزقك ورزقه! كيف أسـلمت إلى الله تدبيره في الملك والملكوت، ولم تسلم إليه تدبير ولدك بعدما تموت؟ وهل لك من تدبير ولدك قليل أو كثير، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير؟!

والله لا تملكُ له ولا لنفسك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا تستطيع أن تزيد في عمره يسيراً، ولا في رزقه نقيراً. وقد تفترسك المنية بغتةً فتمسي في قبرك صريعاً، وبعملك أسيراً، ويصبح ولدك العزيـز بعـدك يتيماً، ويأخذ مالك وإرثك عدواً كان أو رحيماً، ويفترق عيالك ظاعناً ومُقيماً!

عندها تقول: يا ليتني كنتُ مع الشهداء فأفوز فوزاً عظيماً، فيقال لك: هيهات هيهات، فاتَ ما فات، وعظمت الحسرات، وخلوت بما قَدّمتَ من حسناتِ أو سيئات!

اسمع قول الله العزيز الغفور، محذراً لك ما أنت عليه من الغرور: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ "٣٣" " لقمان :٣٣".

هذا: وإن كان ولدك من السعداء، فستجمع بينك وبينه الجنانُ، وانْ كانَ من الأشقياء، فلـيكن مـن الآن، لا يجتمع أهلُ الجنة مع أهل النار، ولا الأخيارُ مع الأشرار!

ولعل الله يرزقك الشهادة، فتشفعُ فيه، وتكونُ بفراقك له ساعياً في أن تنجيه، احرص على ما ينجيك من العذاب ولا تزهد فيه، فيوم القيامة يفرّ المرء من أخيه وأمه وأَبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه.. إنَّ هذا لهو البيان العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم..

تفنيد الحجة الثالثة:

وإن قلت : أقعد عن الجهاد لأنه يشق عليّ فراقُ الأخ والقريب، والصديق والحبيب، فكلامك باطل، وحجتك مردودة. تذكر القيامة وقد قامت على الخلق أجمعين، والأخلاءُ يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، فإن كانت الصداقة لله فستجمع بينكما علّيون، في نعيم أنتم فيه خالدون، وإن كانت الصحبة لغير الله فالفراق الفراق، قبل أن يحشر الرفاق مع الرفاق.

إن المرء في الأخرة مع محبوبه، لمشاركته ايّاه في مطلوبه، فإن كان من الأتقياء نفعه أخاه، وان كان من الأشقياء ضرَه وأرداه!! مع ما يتوقَعُ في هذه الدار من الأقرباء والأصدقاء من الجفاء، والصّد وقلة الوفاء، وكثرة الكدر وعدم الصفاء، وتغيّرهم لديك، وتلونهم عليك، وإساءتهم إليك. وهجرهم إيّاك عند فوات الأعراض، وما تحويه قلوبهم من العِلل والأمراض!

إن وقعت في شدة تخفوا عنك، أو وقعت في زلة تبرّءووا منك، إنهم إخوان السرّاء، وأعداءُ الضراء.. صداقتهم مقرونةٌ بالغنى، وصحبتهم مشحرنةٌ بالعَنا.. إن قل مالُك مَلوك، وإن تغيّرَ حالُك فما أخوك أخوك! وإن شككت في شيء من هذا البيان، فسيظهرُ لك يقيناً عند الإمتحان، وإنْ ظفرت يدكَ منهم بأخٍ من إخوان الصّفا - وأين ذاك؟ - أو خِلٍ من خُلاّنِ الوفا - وما أراك - فأنتما غداً كما قال أصدق القائلين: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ "٤٧" " "الحجر:٤٧".

فلا يجوزُ يا هذا أن يقعدك عن الجهاد حبيب أو قريب، فربّما افترقتُما قبلَ المغيب، ففاتك الثوابُ العظيم، وانفصل عنك الصديقُ الحميم، وبذلك تحرمُ مما تريدُه من الدرجات، وتندمُ فلم يغنكَ الندمُ على ما فات.

١٧ - روى البيهقي والحاكم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: " جاءَ جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد: إن اللهَ يقول لك: عِش ما شئتَ فَإنكَ مَيت، واحبب مَن شِئتَ فإنك مفارِقُه، واعمَل ما شئت فإنكَ مَجزِيّ به.. واعلم أن شرفَ المؤمَن قيامُه بالليل، وعزه. استغناؤه عن الناس" ١.

فانظر ما اشتملت عليه هذه الكلمات اليسيرة، من ذكر الموت وفراقِ الأحبة، والجزاءِ على الأعمال. فهل بعد هذا الإنذار إنذار؟ إنَّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

[1] شعب الإدمان للبيهقي: ٣/٣٧٣ والمستدرك للحاكم: ٤/ ٣٢٥.

تفنيد الحجة الرابعة:

وإن قلت: يُقعدني عن الجهاد منصبي وجاهي الرفيع، وعزّي وحجابي المنيع. فكلامك خطأ، وحجتك باطلة مردودة.

ليت شعري كم فارق منصبك محبّ له إلى أن وصلَ إليك، وكم زالَ ظلّه عن مغبطِ نفسه إلى أن ظلّل عليك، وسينفصلُ ويبينُ عنك كما عنهم بانَ، وكأنَكَ بذلك وقد كان، فإذا أنت لفراقه ثكلان، وقلبك مغمورٌ بالحسد، وصدرك معمورٌ بالأحزان، فلم يدُم لك ما أنت فيه من المنصب والجاه، ولم تفز بما أنتَ طالِبُه من أسبابِ النجاة.

واَخِرُ من يخرجُ من النار من الموحدين، ويدخلُ الجنةَ بعد الداخلين، يُعطيه الله" في الجنة عشرةَ أمثالِ مُلوك الدنيا أجمعين! فما ظنّك بمن يكونُ مع السابقين الأوَلين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟!

مع ما يخفى عليك مما في المنصب من النصَب والتعب، وشَرّ العاقبة وسوءِ المنقلب، وما تكسبُ به من كثرة الأعداء والحسادَ، وما اشتملت عليه بواطنهم من

الضغائن والأحقاد، وشماتتهم بك عند زواله، وتلهُفِك حزناً على ما فات من إقباله، وزوالِ أكثرِ حَشمِك وخدَمِك، وإعراضِ مَن كانَ يسرُ بتقبيلِ قدمِك!

اطلب الجنةَ ونعيمَها، واسمعْ قولَ العزيز الغفار:"جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ "٢٣" سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ "٢٤"" "الرعد:٢٣ -٢٤".

والله إن هذا هو الذي تقرُّ به العيون، ولمثلِ هذا يجب أن يعمل العاملون!

تفنيد الحجة الخامسة:

وان قلت: يشقُ عليَّ فراق قصري وظله، وبنائه المشيد وعلوّ محلّه، وحشمي فيه وخدمي، سُروري فيه ونعمي، فكلامك باطل، وحجتك مردودة داحضة.

ما قصرك الذي تتحدث عنه والذي أقعدك عن الجهاد؟

ما هو إلاّ بيتٌ من طينٍ وحجرٍ وتراب، ومدرٍ وحديدٍ وخشب، إنْ لم يُكنس كثرت فيه القمامة، وإن لم يسرج فما أشدَ ظلامه، وإن لم تتعاهده بالبناء فما أسرع انهدامه، وإن تعاهدته فمآله إلى الخراب، وعن قليل يصير كالتراب، يتفرق عنه السكان. وتنتقل عنه الناس القطّان، ويُعفى أثره، ويندرس خبره، ويمحى رسُمه، وينسى اسمه.

استبدل أيها المغرور قصرك مع سرعة فنائه، بدارٍ باقية، قصورها عالية، وأنوارها زاهية، وأنهارها جارية، وقطوفها دانية، وأفراحُها متوالية. إن سألت عن بناء الجنة، فلبنةُ فضة، ولبنةُ ذهب، لا تعبَ فيها ولا نصب. وإن سألتَ عن ترابها فالمسكُ الأذْفر، وان سألت عن حصبائها فاللؤلؤُ والجوهر. وإن سألت عن أنهارها، فأنهار من لبن، وأنهارٌ من عسل، ونهرُ الكوثر. وإن سألت عن قصورها، فالقصرُ من لؤلؤة مجوَّفَة، طولُها سبعون ميلاَ في الهواء، أو من زمرُدَة خضراء باهرةِ السناء، أو ياقوتةٍ حمراء، عاليةِ البناء، وللمؤمن في كل زاوية من زواياها أهل وخدم، لا يبصرُ بعضهم بعضاً لسعة الفناء.

وإن سألت عن فُرُشِها، فمن إستبرقٍ بطائنها، فما ظنّك بظهائرها؟

وهي مرفوعةٌ بين الفراشين أربعين سنة، وليس عليها نومٌ ولا سِنَة، بل هم عليه متكئون، مُقبلٌ بعضهم على بعضٍ يتساءلون. وإن سألت عن أُكُلِها فموائدُها موضوعة، وأُكُلُها على الدوام، وثمارُها لا ممنوعة ولا مقطوعةٌ لطول المقام، بل فاكهةٌ مما يتخترون، ولحم طيرٍ مما يشتهون، ويُسقَوْن فيها من رحيقٍ مختوم ختامُه مسكٌ ، وفي ذلك فلْيتنافس المتنافسون.

لا يَتَغَوَّطُ أهلُها، ولا يبولون، ولا يبصقون، ولا يمتخطون، أكلهم يرشحُ من جلودهم كالمسك ريحاً، ولوناً كالجُمان، فإذا البطنُ قد ضمرَ كما كان.

وإن سألتَ عن خدمها، فالولدان المخلَدون، الذين قال الله عنهم: "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً "١٩" وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً "٢٠" عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً "٢١" إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً "٢٢" "الإنسان: ١٩ - ٢٢".

وبالجملة فكل ما ذكرت لك، فهو مما جاء في الخبر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاّ ففي الجنة مـــا لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر! وإن سألتَ عن مدة بقاءِ أهلِ الجنةِ في هذا النعـــيم العظـــيم والمقامِ الكريم، فهم أبداَ فيه خالدون، أحياءٌ لا يموتون، شبابٌ لا يهرمون، أصحّاء لا يسقمون، فرِحون لا يحزنون، راضون لا يسخطون.. من خوف القطيعة والطردِ أبداً آمنين، في مقامٍ أمين، دعواهم فيها سبحانك اللهمّ، وتحيتُهم فيها سلام، وآخرُ دعواهم أن الحمدُ لله رب العالمين.

وعليك أن تقيس بعقلك ما بين هذا الملكِ العظيمِ الخطير، وبين قصرك ذي العُمُر القصير، والقدرِ اليسير. وانظر إذا فارقت قصرك بالشهادة إلى ماذا تصير.. إنَّ المقام فيما أنتَ من القصورِ لَغُرور، ولا ينبئك مثلُ خبير..

تفنيد الحجة السادسة:

وإن قلت: أقعدُ عن الجهاد لأني أرغب في طول العمر لإصلاح العمل. فكلامك هذا باطل، وحجتك مردودة.

إن هذا الكلام عندك ناتج من الغرور، ووالله لا يتمُ تأخير في الأجل المقدور. والله يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ "٥" إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَـــا يَـــدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ "٦" " "فاطر: ٥ -٦".

وما هذا الكلامُ إلا من مصايد إبليس اللعين، وليس من مقاصد الأولياء والصالحين. ألـــيس الصـــحابة وأخيـــار التابعين، أولى منك بهذا القصد إن كنت من الصادقين! ولو ركن الصحابة والتابعون إلى تأخير الآجال، لم ارتكبوا في الله عظيم الأهوال، ولو فعلوا ذلك لما جاهدوا المشركين والكفار، ولما اقتحموا البلادَ والأمصار!

ألا تصغي بأذنك يا هذا المفتون إلى قوله تعالى: "انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ "٤١"" "التوبة: ٤١".

ألا تلقي بالك إن كنت فطيناً فهيماً، وتفكر في قوله تعالى:"" "النساء: ٩٥".

١٨ - وروى الترمذي والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إنَّ قيامَ الرجلِ في الصّفّ في سبيل اللّه، أفضلُ من عبادتهِ في أهله سبعين عاماً" ١.

أيها المغرور: اعلم أن نوم المجاهد أفضل من قيام الليل وصيام الدهور! وهب أنك صادقٌ فيما تقول، أليس عملُك متردداً بين الرّدِّ والقبول؟ أليس أمامك ما يُفزع ويهول؟ أليس قدّامك يوم الحشر المهول؟ ولا والله إنك لا تدري هل ينجيك عملك الذي عملته أو يُرديك!! وان الله يعلم ما تُخفون وما تُعلنون. ولئن مُتم أو قُتلتم لإلى اللهِ تحشرون!

تفنيد الحجة السابعة:

وإن قلت: إنني أقعدُ عن الجهاد لأن نفسي لا تطيق فراق زوجتي، فأنا مُغرمٌ بجمالها، وأنسي بقربها، وسُروري بوصالها. فكلامُك خطأ، وحجتك دا حضةٌ مرد ودة. هب أن زوجتك أحسنُ النسوان، وأجملُ أهلِ الزمان، أليسَ أولُها نطفةً مذرة، وآخرُها جيفةَ قَذرة، وهي فيما بين ذلك تحملُ العَذرة! حيضُها يمنعك عنها شطرَ عُمرها، وعقوقُها لك أكثرُ من بِرّها، إنْ لم تكتحل تَعَمَشَت عَينُها، وإن لم تتزين ظهر شَينُها، وان لم تتمشط شعث شعرها، وإن لم تَدّهِن طفى نورُها، وإن لم تتطيب تفلت، وإن لم تتطهر نتنت، كثيرةُ العلل، سريعةُ الملل، إن كَبُرَتْ أيسَت، وإنْ عَجزَت هَرِمَتْ، تُحسنُ إليها جُهدَك، فتنكر ذلك عند السَّخَط. ١٩ - روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال عن جحود المرأة فضل زوجها: "لو أحْسَنتَ إلى إحداهُنّ الدهر، ثم رأت منك قالت: ما رأيتُ منك خيراً قط " ٢.

أنت تروم من زوجتك أقذر ما فيها، وتخاف هجرها، وتخشى تجافيها، يحملك حبُّها على الكدِّ والتعب، والشقاء الشديد والنَّصَب، تورِدُك الموارد المهلكة، وترضى في أدنى هواها بهلاكِك وما أوشكه، تودُّك هي لتحقق مرادَها منك، فإن فاتَ أعرضتْ عنك، وهجرتك وطلبَت سواك، ومَلَتك وأظهَرت قِلاك، وقالت بلسانِ حالها - إن لم تفصح بمقالها -: واصلني وأَنْفق، أو فارِقني وَطَلق! وبالجملةِ فإنكَ لا يمكنُ أن تستمتعَ بها إلاَّ على عِوَج، ولا تَدومُ صحبتك إياها إلا معَ ضيقِ وحَرَج.

---

[1] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٩/١٦٠- ١٦١. والترمذي: ٣/ ١٠١-١٠٢. والحاكم: ٢/ ٦٨. وإسناده حسن.
[2] أخرجه البخاري برقم: ٢٩. ومسلم برقم: ٩٠٧.

يال للعَجب، كيف يُقعدُك حبُّ هذه عن وصال من خلقت من النور، ونشأت في ظلال القصور، مع الولــدان والحور، في دار النعيم والسرور.. والله لا يجفُّ دَمُ الشهيد حتى تَلقاه، وتستمتع بشهودِ نورها عيناه.

إنها حوراءُ عيناءُ، جميلة حسناء، بكرٌ عذراء، كأنَّها الياقوت، لم يطمثها إنسٌ قبلَكَ ولا جان. كلامُهــا رخــيم، وقَدُّها قويم، وشَعرُها بهيم، وقدرُها عظيم، جَفنها فاتر، وحُسنُها باهر، وجمالها زاهر، ودلالها ظاهر..

كحيل طَرفها، جَميل ظَرفها، عَذبٌ نطقُها، عَجيب خَلقها، حَسَن خُلُقُها، زاهيةُ الحِلي؛ بهيةُ الحُلَل، كثيرةُ الوِداد، عديمةُ المَلَل، قد قَصرَت طَرْفَها عليك، فلم تنظر إلى سواك، وتحببتْ إليك، بكُلِّ ما وافق هواك! لو بــرزَ ظُفرُهــا لطمسَ بَدرَ التمام، ولو ظهرَ سُوارُها ليلاً، لم يُبقِ في الكون ظلام، ولو بدا معصمُها لَسبى كل الأنام، ولو أطلَعَت بين السماء والأرض، لملأ ريحُها ما بينهما، ولو تَفلَت في البحر المالح، عاد كأعذبِ الماء.

كلما نظرتَ إليها إزدادت في عينك حُسناً، وكلما جالستها زادت إلى ذلك الحسن حسناً. أيجمل بعاقلٍ أن يسمع بهذه ويقعد عن وصالها؟ وكيف وله في الجنة من الحور العين أمثالُ أمثالِها.

واعلم أن فراقك لزوجتك تلك أمر لا بدَّ منه، وكأن قد وقع، والجنةُ إن شاءَ الله تجمعُ بينكما، ونعمَ المجتمع، وما بينك وبينَ وَصلها إن كانت من الصالحات، إلاّ وقت لا بدَّ مِن فراقِك لها فيه، وهو الممات، فتجدُها في الآَخرة أجمل من الحورِ العين بما لا يعلمهُ إلاّ ربُّ العالمين.

قد ذهبَ ما تكرهُ منها، وزالَ ما يسوءُ عنها، وحَسُنَ خُلُقُها، وكَملَ خَلقُها، كحْلاءَ نجلاء، حسناءَ زهراء، بكراً عذراء، قد طهرت من الحيض والنفاس، وكرمت منها الأنواعُ والأجنــاس، وزال اعوجاجهــا، وزاد ابتــهاجُها، وعظمت أنوارها، وجل مقدارها، وفضلت على الحور العين في الجمالِ والأنوار، كفضلِهن عليها في هذه الدار.

فإن أعرضت عن زوجتك اليوم لله بخروجك للجهاد في سبيل الله، فسوف يعوِّضُك الله عنــها، وإن كانــت في الآخرة من أهل الجنة، فلا بدَّ لك منها. ولا يُلهيَنَّك يا هذا عن دار القرار، الاغترارُ بشيءٍ من زُخرف هذه الــدار، فوالله ما هي بدارِ مقام، ولا في محل اجتماعٍ والتئام.

الدنيا دارٌ إنْ أضْحكت اليوم أبكت غداً، وإن سَرَّت اليوم أعقبَ سرورَها الردى، وإن جلَّت فيها النعم جميعــاً، حَلَّت فيها النقم سريعاً! الدنيا إن أخصبت أجدبت، وان جمعت فرَّقت، وإن ضَمَّت شَتَّتتْ، وإن نَقَصَت نقصَــتْ،

وإن أغنَتْ عنَّتْ، وإن زادتَ أبادتْ، وإن عَمَّرَت دَمَّرَت، وَإنْ أسفَرَتْ أَدْبَرَت، وإن راقَتْ أراقَـتْ، وإن صـافتْ حافَتْ، وإن عَمَّتْ بنَوالِها غمَّتْ بوَبالِها، وَإن جادَتْ بوِصالِها جاءت بفصالها.

قربها بعيد، وحبيبها طريد، شرابها سراب، وعذبها عذاب، دار الهموم والأحزان، والغموم والأشـجان، والـبين والفراق، والشقاء والشقاق، والوصب والنصب، والمشقة والتعب.

كثيرُها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيُّها فقير، وجليلها حقير، غزيرة الآفات، كثيرةُ الحسرات، قليلةُ الصَّفاء، عديمةُ الوفاء، لا ثقة بعهودها، ولا هي تُوفي لوعودها. مُحِبُّها تَعبان، وعاشقُها ولهان، والواثقُ بها خَجلان. قـد سَـتَرَتْ معايبَها، وكتَمتْ مصائِبَها، وأخفَتْ نوائِبَها، وخدعَت بأباطيلها، وغَرَّتْ برشاويها وبَراطيلها، ونَصَـبَتْ شِـباكَها، ووضعَتْ أَشراكَها، وبهرجت زيفها، وجردت سيفها، وأبدت ملامحها، وسترت قبائحها.

ونادت: الوصال الوصال أيها الرجال! فمن رام وصالها وقع في حبالها، وبدا له سوءُ حالِها، وعظم نكالها، ووقع في أسرها بجهله بشرِّها، وحاق به مكرُها، حيث لم يتبصّر في أمرها، فعضَّ يديه ندماً، وبكى بعد الدمع دماً، وأسلمه ما طلب، إلى سوء المنقلب، وجهد في الفرار فما أمكنه الهرب!

فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك، وأطلق نفسك من أسْرِها قبل أن يعسرَ الفكاك! وانهض على قـدم التوفيـق والسعادة، عسى اللهُ أن يرزقك من فضله الشهادة..

ولا يقعدك عن هذا الثواب سببٌ من الأسباب، فذو الحزم السديد، من جرَّد العزم الشديد، وذو الرأي المصيب، من كان له في الجهاد نصيب.

ومن أخلد إلى الكسل، وغرَّه الأمل، زلّت منه القدم، وندِمَ حيثُ لا ينفعه الندم، وَقَرعَ السنَّ على مـا فـرَّط وفات، إذا شاهد الشهداء في أعلى الغرفات!

واللهُ يقولُ الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الثاني

في فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله

قال الله تعالى: "لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِـدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً "٩٥" دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيمـاً "٩٦" "النسـاء: ٩٥ ٩٦".

وقال تعالى: "فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً "٧٤"" "النساء: ٧٤".

وقال تعالى: "الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ "٢٠" يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ "٢١" خَالِدِينَ فِيهَا أَبَـداً إِنَّ اللّـهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ "٢٢" " "التوبة: ٢٠ -٢٢"

وقال تعالى: " إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللّـهِ فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِـهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "١١١" " "التوبة: ١١١" .

وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ "٧" " "محمد: ٧".

وقال تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ "١٥" " "الحجرات: ١٣".

وقال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ "١٠" تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَرَسُـولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ "١١" يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ

جَنَّات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "١٢" وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّـــنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ "١٣" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُـــوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ "١٤" " "الصف: ١٠ - ١٤".

والآيات في فضائل الجهاد كثيرة. وفضائل الجهاد لا تنحصر، وسنذكر أهمها:

فــــصل

في أن الجهادَ مَن أفضلِ الأعمال

٢٥ - روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "سألتُ رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أيّ؟ قال: برُّ الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهادُ في سبيل الله.." ١

٢١ -وروى البيهقي والدارمي عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال:" خطبَ رسولُ الله صـــلى الله عليـــه وسلم. فذكَرَ الجهاد، فلم يفضلْ عليه شيئاً إلا الصلاة المكتوبة ٠٠" ٢

وكان عبدُالله بن عمر رضي الله عنهما يرى أن الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال بعد الصلاة ٣.

فــــصل

في أن الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله

[1] أخرجه البخاري برقم : ٢٧٨٢. ومسلم برقم: ٨٥.
[2] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم: ٩/ ٤٨. والدارمي: ٢/ ٢٠٧، والحديث صحيح.
[3] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ٤٨.

٢٢ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهادُ في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور"١.

وينبغي حمل هذا الحديث على من ليس له والدان يبرُهما، أو له والدان لكنهما أذنا له في الجهاد، أو على الجهاد الذي هو فرض عين لأنه مقدم على بر الوالدين. ٢٣ - وروى البخاري ومسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: "سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟

قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله. قلت: فأيُّ الرقاب أفضل؟ قال: أنفَسُها عند أهلها وأغلاها ثمناً"٢.

٢٤ - وروى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه:" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قامَ خطيباً، فذكرَ أن الجهادَ في سبيل الله والإيمان بالله أفضلُ الأعمال. فقامَ رجل فقال: يا رسولَ الله: أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله أتكفَّرُ عني خطاياي كلها؟ فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: نعم، إن قُتلتَ في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر.

ثم قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيفَ قلتَ؟ قال: أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله، أتكفرُ عني خطاياي؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، وأنتَ صابر محتسب، مقبل غير مدبر. إلا الدَّينَ! فإن جبريل قال لي ذلك "٣.

فصل

في أن الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام

---

[1] أخرجه البخاري برقم: ٢٦. ومسلم برقم: ٨٣ .
[2] أخرجه البخاري برقم: ٢٥١٨. ومسلم برقم: ٨٤.
[3] أخرجه مسلم برقم: ١٨٨٥.

٢٥ - روى مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال:" كنتُ عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسـلم. فقال رجل: ما أبالي أنْ لا أعملَ عملاً بعد الإسلام، إلاّ أن أسقيَ الحاج! وقال الآخر: لا أبالي أنْ لا أعملَ عملاً بعد الإسلام إلاَّ أن أعمرَ المسجدَ الحرام! وقال آخر: لا. الجهادُ في سبيل الله أفضلُ مما قلتم!

فزجرهم عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسـلم، وهو يومُ الجمعة. ولكن إذا صَليتُ دخلتُ فاستفتيتُه فيما اختلفتُم فيه.

فأنزل الله قوله تعالى: "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِـي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "١٩" " "التوبة: ١٩"[1].

فـصل

في أن الجهاد أفضل الأعمال على الإطلاق

٢٦ - روى أحمد والبيهقي عن عمرو بن عبسة السُّلميّ رضي الله عنه قا ل: "جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما الإسلام؟ قال صلى الله عليه وسلم: أن يُسلمَ قلْبك لله، وأنْ يَسلمَ المسلمون مـن لسـانك ويدك!

قال: فأيُ الإسلام أفضل؟ قال صلى الله عليه وسلم: الإيمان.

قال: وما الإيمان؟ قال صلى الله عليه وسلم: أنْ تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمنَ بالبعث بعد الموت!

قال : فأيُ الإيمان أفضل؟ قال صلى الله عليه وسلم: الهجرة! قال: وما الهجرة؟ قال صلى الله عليه وسـلم: أنْ تهجرَ السوء! قال: فأي الهجرة أفضل؟

قال صلى الله عليه وسلم: الجهاد. قال: وما الجهاد؟ قال صلى الله عليه وسلم: أن تقاتلَ الكفارَ إذا لقيتَهم.

---

[1] أخرجه مسلم برقم: ١٨٧٩.

قال: فأيُّ الجهاد أفضل؟ قال صلى الله عليه وسلم: مَنْ عُقِرَ جوادُه وأريق دمُه "[1].

فانظر رحمك الله كيف جعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم الجهاد خلاصة خلاصة الإسلام، وهو أفضل الأعمال على ا الإطلاق.

٢٧ - وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت:" يا رسول الله: نرى الجهادَ أفضلَ الأعمال، أفلا نجاهد؟ قال صلى الله عليه وسلم: لكنَّ أفضلَ الجهادِ، حج مبرور"[2].

٢٨ - وروى ابن ماجة وابن خزيمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: "قلت: يا رسول الله: هل على النساء من جهاد؟ قال: عليهن جهادٌ لا قتالَ فيه، الحجُّ والعمرة "[3].

وأورد إبن عساكر عن المفضَل بن فضالة، عن أبيه قال: أستأذن قوم على عبدالملك ابن مروان أمير المؤمنين، وهو شديد المرض.

ولما دخلوا عليه قال لهم: إنكم دخلتم عليّ، حين إقبال آخرتي، وإدبار دنياي، وإني تذكرت أرجى عمل لي، فوجدته غزوةَ غزوتها في سبيل الله، وأنا خلوٌ من هذه الأشياء، فإيّاكم وأبوابنا الخبيثة هذه[4].

أي أن عبد الملك بن مروان ينهاهم عن الاقتراب من أبواب السلاطين. وكان عبد الملك بن مروان من علماء التابعين قبل أن يكون أميراً للمؤمنين، وركب البحر غازياً مجاهداً للروم.

وخرج الخطيب في تاريخ بغداد عن محمد بن الفضيل بن عياض، قال: رأيت عبد الله بن المبارك فى النوم، فقلت له: أي العمل وجدت أفضل؟ قال: الأمر الذي كنت فيه.

قلت له: الرباط والجهاد؟

---

[1] مسند أحمد: ٤/ ١١٤. وشعب الإيمان للبيهقي: ١/ ٩. والحديث صحيح.
[2] أخرجه البخاري برقم: ١٩١٥.
[3] أخرجه ابن خزيمة برقم : ٣٨٧٤. وابن ماجة: ٢/ ٩٦٨، وإسناده صحيح.
[4] الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٤ / ٥٢٠.

قال : نعم.

قلت: فما صنع الله بك؟ قال : غفر لي مغفرةً ما بعدها مغفرة[1].

وذكر الغزو أمام أحمد بن حنبل، فبكى وقال: ما من أعمال البرّ شيءٌ أفضل منه، ولا يعدل لقاء العدو شيء، وأن يباشر القتال بنفسه هو أفضل الأعمال، والذين يقاتلون العدوّ هم الذين يدفعون عن الإسلام، وعن المسلمين وحريمهم، فأيّ عمل أفضل منه.. الناس آمنون وهم خائفون. قد بذلوا مهج أنفسهم في سبيل الله[2] .

فصل

في أن الجهاد أحب الأعمال إلى الله

٢٩ - روى الترمذي والبيهقي والحاكم عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: " قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: لو نعلم أفي الأعمال أحبُّ إلى الله عملناه.

فأنزل الله عز وجل: "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "١"

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ "٢" كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ "٣" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ "٤" " الصف: ١ -٤".

فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] .

٣٠ - وفي روايةٍ أخرى للبيهقي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أنَّ ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: "لو أرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً يسألُه عن أحبّ الأعمالِ إلى الله!

---

[1] تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ١/ ١٦٨.
[2] المغني لابن قدامة: ٨/ ٣٤٨-٣٤٩.
[3] أخرجه الترمذي: ٥/ ٨٥. والبيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ١٥٩- ١٦٥. والحاكم: ٢/ ٦٩. والحديث صحيح.

فلم يَذهت إليه أحدٌ مناّ، وَهِبنا أن نسألَه عن ذلك.

فدعا رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم أولئك النفرَ، رجلاَ رجلاً، حتى جمعَهم، ونزلَتْ فيهم هذه السورة: "سَبَّحَ للهِ...".

قال ابن سلام: فقرأها علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كلَّها١.

فــــصل

في أن المجاهد أفضل الناس عند الله

قال الله تعالى: " فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُــلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً "٩٥" دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيمــاً "٩٦" "النساء: ٩٥ - ٩٦".

٣١ - وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "أتى رجل رسولَ الله صلى الله عليــه وسلم، فقال: أيُّ الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهدُ بنفسِه ومالِه في سبيل الله.

قال: ثم مَنْ؟ قال: رجلٌ معتزلٌ في شِعْبٍ من الشِّعاب يعبدُ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شره "٢.

والشِّعْبُ هو الوادي المنفرج بين جبلين.

قال الإمام النووي: ولا يراد في الحديث نفس الشِّعْب خصوصاً، وإنما المراد الانفراد

و ا الأعتزال، و لو كان في بيته. وذكر الشِّعب في الحديث لأنه خالٍ عن الناس غالباً١.

---

[1] البيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ١٥٩ والحديث صحيح.
[2] أخرجه البخاري برقم:٢٧٨٦ومسلم برقم:١٨٨٨ .

وصرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الجهاد أفضلُ من العزلة والتفرغ للعبادة. وهو ما يدل عليـــه قولـــه تعالى: " لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـــهِمْ ٠٠٠" "النساء: ٩٥".

فـــصل

في أنه لا يعدل الجهاد شيء

٣٢ - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "يا رسولَ الله: ما يعدلُ الجهادَ في سبيل الله؟

قال صلى الله عليه وسلم: لا تستطيعونَه! فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا تستطيعونَه.

ثم قال: مَثَلُ المجاهد في سبيل اللّه كمثلِ الصائم القائمِ القانت بآياتِ الله، لا يفتُرُ من صلاةٍ ولا صيام حتى يرجعَ المجاهدُ في سبيل الله "[2].

٣٣ - وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال: "يا رسولَ الله: دلَّني على عمل يعدلُ الجهاد؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا أجدُه. ثم قال: هل تستطيعُ إذا خرجَ المجاهد أن تدخلَ مسجدَك فتقـــومَ ولا تفتـــر، وتصومَ ولا تفطر؟ قال الرجل: وَمنْ يستطيع ذلك؟.. "[3].

هؤلاء الصحابة لا يستطيعون أن يعملوا عملاً يعدل الجهاد، مع أنهم أولو الهمم العلية، والنفوس الأبية، والشهامة الدينية، وأجورهم مضاعفة لصحبتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم سبّاقون إلى كلّ كمال، وحائزون من رتب الجهاد كلّ مقامٍ عال.

---

[1] شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/٣٤.
[2] أخرجه مسلم برقم ١٨٧٨.
[3] أخرجه البخاري برقم: ٢٧٨٥.

فإذا كانوا كذلك ولا يجدون عملاً يعدل الجهاد، فكيف تقرُّ أعين أمثالنا من غير اجتهاد؟ وكيف تسكن نفوسنا إلى الأعمال اليسيرة بالهمم الدنية الحقيرة؟ مع ما يشوبها من الرياء وعدم الإخلاص، ومن الدسائس التي لا يكاد يرجى معها خلاص؟.

اللهم أيقظنا من هذه الغفلة، ووفّقنا للجهاد في سبيلك قبل حلولى النقلة، فأنت المرجؤُ لكل خير، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وخرّج ابن عساكر عن أبي الغادية المزني قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو يخطب على المنبر، ويقول: يا أهل المدينة: ألا تأخذون بحظّكم ونصيبكم من الجهاد في سبيل الله؟ ألا ترون إلى إخوانكم من أهل الشام، وإخوانكم من أهل مصر، وإخوانكم من أهل العراق؟. ووالله ليوم يعمله أحدكم وهو يجاهد فِى سبيل الله، خير من ألف يومٍ يعمله في بيته صائماَ لا يفطر، وقائماً لا يفتُر...

فصل

في أن الجهاد أفضل من العزلة والتفرغ للعبادة

تقدّم حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري ومسلم، الذي صرح فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ أفضل الناس هو المؤمن المجاهد ثم يليه المعتزل[1].

٣٤ - وروى الترمذي والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشِعْبٍ ، فيه عُيَيْنَة من ماءٍ عذبة، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشَعْب! ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له: "لا تفعل فإن مقامَ أحدكمِ في سبيل الله أفضلُ من صلاته في بيتِه سبعين عاماً. ألا تحبوّنَ أنْ يغفرَ اللهُ لكم ويُدخِلكم الجنة؟ اغْزُوا في سبيلِ الله، مَن قاتَلَ في سبيلِ الله فُواقَ ناقة، وَجَبتْ له الجنة"[1].

---

[1] انظر حديث رقم: ٣١.

وفُواقُ الناقة هو ما بين الحلبتين من الوقت، لأن الناقة تحلب، ثم تترك سويعةً يرضعُها الفصيل لتدرّ، ثم تحلب.

وهذا من باب المبالغة في التحريض على القتال والترغيب فيه. وهذا الحديث صريحٌ في أن الجهاد والغزو أفضل من العزلة للعبادة.

يا هذا: ليت شعري من يقوم مقام هذا الصحابي في عزلتِه وعبادته وطيب مطعمه، ومع هذا فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا تفعل. وأرشدهُ إلى الجهاد.

فكيف لواحد متا أن يترك الجهاد، مع أعمال يعلمها لا يوثق بها مع قلّتها؟ وخطايا لا ينجو منها لكثرتها؟ وجوارح لا تزال مطلقةً فيما منعت منه، ونفوسٍ جامحةٍ إلاّ عما نهيت عنه، ومآكل حكم حلِّها عند رازقها، وخواطر علم أصلها عند خالقها، ونيّاتٍ لا يتحقق إخلاصها، وتبعاتٍ لا يُرجى بغير العناية خلاصها.

ثم النظر في خواتم الأعمال، مجال الخطر وعظائم الأوجال. فالسعيد من وفقه الله للجهاد، ويسره عليه، والشّقي من جبن فغبن وظهر الخسران عليه.

اللهم يسِّر علينا الجهاد، ويسِّرنا له، واجعلنا بفضلك ممن رام أمراً فناله، وقرنت بالتوفيق أحواله وأفعاله. إنك قريب مجيب.

وكان الإمام عبد الله بن المبارك حريصاً على الجهاد والغزو، والمرابطة على الثغور، وكان يحثُّ الناس عليه، وينكر على المعتكف للعبادة، القاعد عن الجهاد.

قال محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة: كنت مع عبد الله بن المبارك بطرسوس، وكنّا مرابطين في الثغور، فأردت الذهاب إلى الحج، وكان الفضيل بن عياض مجاوراً عند الكعبة، معتكفاً في المسجد الحرام.

فكتب ابن المبارك لابن عياض:

---

[1] أخرجه الترمذي: ١٣/ ١٠١- ١٠٢. والبيهقي: ٩/ ١٦٠- ١٦١. والحاكم: ٢/ ٦٨ والحديث حسن.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا   لعلمت أنَّك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه   فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله في باطلٍ   فخيولنا يوم الصبيحـــة تتعـــب

ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا   رهج السنابـــك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبـــيّــنا   قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذب

لا يستوي وغبار خيل الله في   أنف امرىء ودخان نارٍ تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا   ليس الشهيد بميـــت لايكـــذب

قال: ولما لقيت الفضيل بن عياض عند الكعبة ناولته رسالة ابن المبارك له، فلما قرأها ذرفت عيناه بالدمع، وقال: صدق أبو عبدالرحمن ونصحني[1].

فـــصل

في أن المجاهد خير الناس واكرمهم على الله

٣٥ - روى الترمذي والنسائي والحاكم وابن حبان، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم جلوس في مجلس، فقال: ألا أخبرُكم بخيرِ الناس مترلاً؟ قلنا: بلى يا رسولَ الله.

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي: ٨/ ٤١٢.

قال: رجل أخذ برأسِ فرسهِ في سبيل الله، حتى يَموت أو يقّتل. ألا أخبركم بالذي يَليه؟ قلنا: بلى يا رسولَ الله. قال: امرؤٌ معتزِلٌ في شِعْب، يقيمُ الصلاة، ويُؤتي الزكاة، ويَعتزلُ شُرورَ الناس "[1].

وتقدم حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وهو قريب من هذا[2].

فـــصل

في أن نوم المجاهد أفضل من قيام غيره الليل وصيامه النهار

وأن الطاعم المفطر في سبيل الله كالصائم في غيره قال أبو هريرة رضي الله عنه: أيستطيع أحدكم أن يقوم فــلا يفتر، ويصوم فلا يفطر ما كان حياً؟ قيل: ومن يطيق ذلك يا أبا هريرة؟ قال: والذي نفسي بيده إنَّ نومَ المجاهــد في سبيل الله أفضل منه[3].

وإذا كانت - أكرمكم الله - هذه درجة النائم من المجاهدين فكيف درجة قائمهم؟ وإذا كانت هذه رتبة غافلــهم فكيف بعاملهم؟ وإذا كان هذا خطر شراك نعالهم فكيف بخطير أفعالهم؟.

إن هذا لهو الفضل المبين، لمثل هذا فليشمِّر المشمّرون، وعلى فواته فليبك العاجزون المقصِّرون، وعلــى ضــياع العمر في غيره فليحزن المفرطون.

---

[1] الترمذي: ٣/ ١٠٢. والنسائي: ٥/ ٨٣. والحاكم: ٢/ ٦٧. وموارد الظمآن: ص: ٣٨٤. والحديث حسن.
[2] انظر حديث رقم: ٣١.
[3] الجهاد لابن المبارك: ١/ ٩٥.

اللهم بصِّرنا بأسباب النجاة، ويسِّرها علينا، وانظر بعين عنايتك ورحمتك إلينا، فقد تصرّم العمر في غير طائـــل، وأنت على كل شيء قدير.

٣٦ - روى النسائي وابن المبارك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "سمعتُ رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم يقول: "إن مَثلَ المجاهدِ في سبيل الله - واللهُ أَعلمُ بمَنَ يجاهدُ في سبيله - كَمَثَلِ القـــائمِ الصـــائمِ الخاشـــعِ الراكـــعِ الساجد" [1]

٣٧ -وروى أحمد عن النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم: "مَثَلُ المجاهدِ في سبيل الله كمثل الصائم نهارُه، القائم ليله، حتى يرجعَ متى يرجع " [2]

فـــصل

في أن الله يرفع المجاهد في الجنة مائة درجة

قال الله تعالى:" فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـــلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً "٩٥" دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيمـــاً "٩٦" "النساء: ٩٥ -٩٦".

٣٨ - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"مَن آمنَ بالله ورســـوله وأَقامَ الصلاة وآتى الزكاة وصامَ رمضان كان حَقاَ على الله أنْ يدخلَهُ الجنة، هاجرَ في سبيلِ الله أو جلسَ في أرضِـــه التي وكِدَ فيها.

[1] أخرجه النسائي: ٦/ ١٨. وابن المبارك في الجهاد ١: ٦٥، والحديث صحيح
[2] أخرجه أحمد في المسند: ٤ /٢٧٢ وإسناده حسن لغيره.

قالوا: يا رسول الله: أفلا نُنبىءُ الناس بذلك؟ قال: إنَ في الجنة مائةَ درجة، أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيله، ما بينَ الدرجتين، كما بينَ السماءِ والأرض. فإذا سألتم اللهَ فأسْألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تفجَّـــرُ أنهار الجنة، وفوقَه عرش الرحمن "١.

٣٩ - وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" مَنْ رضـــيَ بالله رباً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمدِ صلى الله عليه وسلم رسولاَ، وجبت له الجنة. فعجبَ لها ابو ســعيد. - فقــال: أعِدْها عليَ يا رسولَ الله. فأعادَها عليه، ثم قال: "وأُخرى يرفعُ اللهُ بها للعبد مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله"٢.

فـــصل

في أن سياحة هذه الأمة الجهاد

قال الله تعالى في بيان صفات المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله: "التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّـــائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ" "التوبة :١١٢". والمراد بالسياحة هنا الجهاد. والسائحون هم المجاهدون.

٤٠ - روى أبو داود والبيهقي والحاكم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: أن رجلاً استأذن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم في السياحة. فقال: إن سياحةَ أُمتي الجهادُ في سبيل الله "٣.

معلومٌ أنّ السياحة هي السير في الأرض على سبيل الفرار من الناس، والنظر إلى الآثار بعين الاعتبـــار، واعتـــبر الرسول صلى الله عليه وسلم الجهادَ في سبيل الله سياحة، لأنه فرارٌ من الوجود، وسير إلى المعبود، على قدم الإيمان والتصديق بالموعود، ونظرٌ للنفس بعين الإنصاف، في تسليمها للمشتري خروجاَ من عالم الخلاف، وشتّان بين من هو سائر بنفسه يترهها، وبين من هو مجتهدٌ ليتلفها. إن المجاهد هو السائح يقيناً، والبائع نفسه بالربح الأعظم فوزاَ مبيناَ.

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٢٧٩٠.
[٢] أخرجه مسلم برقم: ١٨٨٤.
[٣] أخرجه أبو داود: ٣/ ١٢. والبيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ١٦١. والحاكم: ٢/ ٧٣، والحديث صحيح.

فــصل

في أن ذروة سنام الإسلام هو الجهاد

٤١ - روى الترمذي وأحمد والحاكم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: " كنا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فقال: إنْ شئتَ أنبأتكَ برأسِ الأمر وعمودِه وذروةِ سَنامه؟ قلت: أجل يا رسولَ الله!

قال: أما رأس الأمرِ فالإسلام، وأما عمودُه فالصلاة، وأما ذروةُ سنامه فالجهاد"[1]. وإنما كان الإسلام رأس الأمر، لأنه لا يصحُّ شيءٌ من عمل المسلم ولا يقبل إلاّ مع وجوده، وإذا فُقِدَ الرأسُ كانت الأعمال كالجسد بلا رأس، فهي كالموات، ولهذا تجعلُ يوم القيامة هباءً منثوراً.

وإنما كانت الصلاة عمود الدين، تشبيهاً لها بعمود الخيمة، لأنّ أوّل ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة، وكذلك أول ما يقام من الخيمة عمودها. وإنما شُبِّهَ الجهاد بذروة سنام البعير، لأن ذروة السّنام - وهي أعلاه - لا يعادِلُها ولا يُساويها شيء من أجزاء البعير، وكذلك الجهاد، لا يعادله ولا يساويه شيء من أعمال الإسلام. لقوله صلى الله عليه وسلم لما سُئِلَ عن ما يعدل الجهاد في سبيل الله:"لا أجدُه".

ويُحتملُ أن الرسول صلى الله عليه وسلم شبَّه الإسلام بالبعير، لأن البعير يَحملُ الإنسان ويوصله إلى المكان الذي يريده، وكذلك الإسلام يوصل المسلم في سفره الدنيوي، إلى موطنه الأول وهو الجنة.

شبَّه الرسول صلى الله عليه وسلم النطق بالإسلام برأس البعير، لأن كلَّ أحدٍ يمكنه الوصول إلى هذا الإسلام، بأن ينطق بالشهادتين، كما يمكنه الوصول إلى رأس البعير باللمس أو الرؤية.

وشبّه الجهاد بذورة سنام البعير، لأن ذروة سنام البعير لا ينالها إلاّ أطول الناس جسداً أو مالاً، كذلك الجهاد لا يناله إلاّ أفضل المؤمنين سابقة ومالاً.

---

[1] أخرجه الترمذي: ٤/ ١٢٤-١٢٥. وأحمد: ٥/ ٢٣١. والحاكم: ٢/ ٧٦، والحديث صحيح بطرقه الكثيرة.

ويحتمل أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم شبّه الجهاد بذروة السنام، لأن من وصل ذروة السنام فقد تمكن من جميع أجزاء البعير، وتحكم فيها. وكذلك من رزقه الله الجهاد، فقد أناله الله جميع ما في الإسلام من أجزاء الفضل.

إن للمجاهد أجراً في نومِه، وأجراً في سفره، وأجراً في نفقته، وأجراً في نصبه، وأجراً في تعبه، وأجراً في عطشه وجوعه، وأجراً في كل حركاته.

فـــصل

في أن المجاهد في ضمان الله وكفالته وعونه وهدايته

من حين خروجه حتى عودته أو استشهاده قال تعالى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ " "العنكبوت:٦٩".

قال سفيان بن عيينة رضي الله عنه: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور، فإنّ الله يقول:" لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا".

٤٢ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تكفل اللهُ لَمَنْ جاهدَ في سبيله، لا يُخرجُه من بيته إلاَّ الجهادُ في سبيله، وتصديقٌ كلماته، أن يدخلَهُ الجنة، أو يردَّهُ إلى مسكنه بما نالَ من أجر أو غنيمة"[١].

٤٣ - وروى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "انتدبَ اللهُ لمن يخرجُ في سبيله، لا يُخرجُه إلا الإيمانُ بي، والجهادُ في سبيلي، أنه عَلَيَّ ضامن حتى أُدخلَه الجنة، بأَيِّهما كان، إما بقتلٍ أو بوفاة، أو أرُدَّه إلى مسكنه الذي خرج منه، نالَ ما نال، من أجرٍ أو غنيمة[٢] قال الإمام النووي في شرح الحديث: معنى: تكفَّل الله: أوجب الله لهذا المجاهد الجنة، بفضله وكرمه[٣].

[١] أخرجه البخاري برقم:٣١٢٣ ومسلم برقم: ١٨٧٦.
[٢] أخرجه النسائي: ٦/ ١٦. والحديث صحيح
[٣] شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/ ٢٠

وقد يتوهَّم متوَهّمٌ من قوله صلى الله عليه وسلم: " مِنْ أجرٍ أَو غنيمة" أنَّ الأجر لا يجتمع مع الغنيمة، وأنــه إذا أخذ الغنيمة فقد حرم الأجر.

وليس الأمر كذلك، بل المعنى أن الله يردُه بأجرٍ كامل إن لم يحصل على غنيمة، أو يردُّه بأجرِ مع غنيمة، ويجمعَ له بين الأمرين. وقد أخبرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في حديثٍ آخر أن الأجر يجتمع مع الغنيمة.

٤٤ - روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما مِن غازيةِ أو سريةِ يَسلَمون أو يَغْنَمون إلاّتعجلوا ثُلُثَيْ أَجرهم " ١

و "أَوْ" بمعنى الواو. أي: يَسلمون وَيغنمون.

و" أو" في الحديث السابق بمعنى الواو أيضاَ. أي: نال من أجرٍ وغنيمة.

٤٥ -وروى النسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربّه عز وجل أنه قال: "أيّما عبدٍ من عبادي خرج مجاهداَ في سبيلي، وابتغاء مرضاتي، ضمنتُ له إنْ أرجعْته أن أرجعَه بمـا أصابَ من أجرِ أو غنيمة، وان قبضْتُه غفرتُ له"٢.

٤٦ - وروى ابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن رسول الله صـلى الله عليـه وسلم قال:" مَنْ جاهَد في سبيل الله كان ضامناَ على الله، ومَن عادَ مريضاَ كان ضامناَ علـى الله، وَمَـن غـدا إلى المسجدِ أو راح كانَ ضامناً على الله، ومَن دخلَ على إمام يُعَزِّرُه كان ضامِناَ على الله، ومَنْ جَلسَ في بيته لم يغتـبْ إنساناَ كان ضامناً على الله"٣.

٤٧ - وروى الترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: "ثلاثةٌ حقّ على الله عونُهم: المجاهدُ في سبيل الله، والمكاتَبُ الذي يريدُ الأداء، والناكحُ الذي يُريدُ العفاف"٤.

---

[1] أخرجه مسلم برقم: ١٩١٦.
[2] أخرجه النسائي في المجتبى: ٦/١٨. وسنده صحيح.
[3] أخرجه ابن خزيمة في صحيحه: ٢/ ٣٧٦. وابن حبان. ص: ٣٨٤. والحاكم: ١/ ٢١٢، وسنده صحيح.
[4] الترمذي: ٣/١٠٣. وابن حبان. ص: ٣٩٨. والحاكم: ٢/٢١٧، وسنده حسن.

ومما يدل على أن الله ضمن للمجاهد الخير في حياته وبعد مماته، قصة الزبير بن العوام رضي الله عنه. وقد أوردها البخاري في صحيحه تحت عنوان: "باب بركة الغازي في ماله حياً وميتاً"

٤٨ - روى البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني. فقمت إلى جنبه. فقال: يا بُنيَّ لا يُقتلُ اليوم إلاّ ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلاّ سأقتل اليوم مظلوماً، وإن من أكبر همّي ديني. أفترى ديننا يُبقي من مالِنا شيئا؟ وقال: يا بني: بع مالَنا، واقض ديني، فإن فضل من مالِنا شيء بعد قضاء الدَّيْن، فَثُلُثُهُ لولدكِ.

فجعل يوصيني بدينه، ويقول: يا بني: إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه مولاي! فوالله ما دريت ما أراد. حتى قلتُ له: يا أبتِ: من مولاك؟ قال: الله!! فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلاّ قلت: يا مولى الزبير اقضِ عنه دينه. فيقضيه الله!

فقُتلَ الزبير، ولم يَدَعْ ديناراً ولا درهماً، إلاّ أرضين منهما الغابة، وأحد عشر داراً بالمدينة، وداربن بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر. وإنما كان دَيْنُه الذي عليه أن الرجل كان يأتيه بالمالِ فيستودِعُه إيّاه. فيقول له الزبير: لا. ولكنه سَلَف، فإني أخشى عليه الضياع.

وما وليَ إمارة قط، ولا جِباية خَراج ولا شيئاً، إلاّ أنْ يكون في غزوةٍ مع النبي صلى الله عليه وسلم، أو مع أبي بكر وعمر وعثمان.

قال عبد الله بن الزبير: فحسبت ما عليه من الدَّينِ فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف!! فلقي حكيمُ بن حزام عبد الله بن الزبير، فقال: يا ابن أخي كم على أخي الزُّبير من الدَّيْن؟ فكتمه عبد الله، وقال: مائةُ ألف. فقال حكيم: والله ما أرى أموالك تَسَعُ لهذه! قال عبد الله: أفرأيتك إذا كان الدَّيْنُ ألفي ألف ومائتي ألف! قال حكيم: ما أراكم تُطيقون هذا. فإن عجزتم عن شيءٍ منه فاستعينوا بي.

وكان الزبيرُ اشترى الغابةَ بسبعين ومائةِ ألف! فباعها عبد الله بألفِ ألفٍ وستمائة ألف. ثم قام فقال: من كان له على الزبير حق فليُوافنا بالغابة! ولما فرغ ابن الزبير من قضاء دين أبيه قال له إخوته: اقسم بيننا ميراثنا!

قال: لا والله لا أقسم بينكم حتى أُنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزُّبير دينٌ فليأتِنا فلنقضه. فجعل كلّ سنة ينادي بالموسم. فلما مضى أربع سنين قسم بينهم.

وكان للزبير أربع نسوة، ورفع الثلث وصية. فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف. فجميع مال الزبير خمسون ألف ألف ومائتا ألف!! ١

فـــصل

في أن الله لا يضيع المجاهد وإنما يتولاه بلطفه ورحمته

٤٩ - روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "بَعَثَنَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأَمَّرَ علينا أبا عبيدة، نتلَقّى عِيراً لقريش، وزوَّدَنا جراباً من تمرٍ لم يجدْ لنا غيرَه.

فكان أَبو عبيدة يُعطينا تمرةً تمرة. فقلت: كيفَ كنتم تصنعون بها؟ قال: كنا نَمُصُّها كما يَمُصُّ الصبي، ثم نشربُ عليها من الماء، فتكفينا يومَنا إلى الليل.. وكنا نضربُ بعِصيِّنا الخبط - وهو وَرَقُ الشجر - ثم نَبُلُّهُ بالماء فنأكله.

فانطلَقنا على ساحلِ البحر، فرُفِعَ لنا على ساحِل البحر كهيئةِ الكثيبِ الضخم! فأتيناه، فإذا هو دابَّـــةٌ تُـــدعى العنبر. فقالَ أبو عبيدة: إنها ميتة. ثم قال أبو عبيدة: لا بل نحنُ رُسُل رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وفي سبيلِ الله، وقد اضطررتم، فكُلوا.

فأقمْنا عليها شهراً، ونحنُ ثلاثمائة، حتى سَمِناّ. ولقد رأيْتنا ونحن نغترفُ الدهنَ مِن وقبِ عينه - من تجويفِ العين - بالقُلال - وهي الجرار -، ونقتطعُ منه الفَدر - هو القطعة ا لكبيرةِ - كالثور! ولقد أخَذَ مناّ أبو عبيدة ثلاثـــة عشـــر رجلاَ فأقعدَهم في وَقَبِ عَينه! وأخَذ ضِلعاً من أضلاعه، فأقامَها، ثم رَحَّلَ أعظم بعير مَعَنا، فمرَّ مِن تحتِها!! وتزوَّدْنـــا من لحمِه وشائق - هي قطع اللحم المجفّف -.

فلما قَدِمنا المدينةَ أتينا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فذكَرْنا ذلك له ، فقال: هو رزقٌ أخرجه اللهُ إليكم، فهل معكم من لحمه شيء فَتطعِمونا؟ فأَرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله!" ٢ ٥٠ - وقد روى البخاري الحديث مختصراً: عن جابربن عبد الله رضي الله عنهما قال: "بعثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعثاً قِبلَ الساحل، وأَمَّرَ عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة.

[1] أخرجه البخاري برقم: ٣١٢٩.
[2] أخرجه مسلم برقم: ١٩٣٥

فخرجْنا، ولّما كنُاّ ببعض الطريق فنيَ الزاد. فأَمرَ أَبو عبيدة بأَزوادِ الجيش فجُمع، فكانَ مزوَدَي تمر، فكان يقوتُنا كلَّ يوم قليلٌ قليلٌ حتى فني، فلم يكن يصيبنُا إلاّ تمرةً؟ تمرة! فقلت: ما تُغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجَدنا فقدَها حين َفنيت.

ثم انتهيْنا إلى البحر، فإذا حوت مثلُ الظَّرب، فأكلَ منها القومُ ثماني عشرةَ ليلة. ثم أمَرَ أَبو عبيدة بضلعيْن من أَضلاعه فنُصبِا، ثم أمَرَ براحلة فرُحَلَت، ثم مرَّتْ تحتَهما فلم تُصبهما" ١

وفي هذا الحديث دليل لمن ذهب إلى أنّ المضطرَّ يأكل من الميتة إلى أن يشبع، ويتزوَّد منها. لأنّ الصحابة رضي الله عنهم إنما أكلوها على تقدير أنها ميتة أُبيحت لهم بالاضطرار، وقد أكلوا حتى سَمِنوا، وتزوَّدوا منها.

فهؤلاء الصحابة المجاهدون خرجوا للجهاد في سبيل ألله، فلم يتركهم الله بدار مضيعة ولا هوان، بل تولاّهم بلطفه، ودفع عنهم الاضطرار والجوع، بما ساقه إليهم من الطعام، وهو ذلك الحوت البحريُّ العظيم الضخم! ومن إكرام الله للمجاهدين أنهم إذا دعوه استجاب دعاءهم، وأمدَّهم بالكرامات الخارقة للعادات، لأنه ضامنٌ لهم.

٥١ - روى النسائيُّ وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " وَفْدُ اللهِ ثلاثة: الغازي، والحاج، والمعتمر. إنْ دعَوْه أجابَهم، وإن استغفروه غَفرَ لهم"٢.

٥٢ - وروى الطبراني عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثةٌ تُستجابُ دعوتُهم: الوالد والمسافر والمظلوم "٣.

٥٤ -وروى أبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكَّ فيهن: دعوةُ الوالد، ودعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر "٤.

فإذا كان اللهُ يستجيب دعاء المسافر من حيث هو، فلم لا يستجيب دعاء المجاهد، وهو أكرم الناس سفراً، وأعظمهم في سفره أجراً؟!

---

[1] أخرجه البخاري برقم ٤٣٦١.
[2] سنن النسائي: ٥/ ١١٣. وسنن ابن ماجة: ٢/ ٩٦٦. والحديث صحيح.
[3] مجمع الزوائد للبيهقي: ١٠/١٥،والحديث حسن.
[4] سنن أبي داود: ٢/ ١٨٧. وسنن الترمذي: ٣/ ٢١٠. وسنن ابن ماجة: ٢/ ١٢٧٠. والحديث حسن.

وقد خرَّج ابن أبي الدنيا في كتاب مجابي الدعوة عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج قومٌ غزاة، ومعهم محمد بن المنكدر. وبينما هم يسيرون قال رجلٌ منهم: أشتهي جُبناً رطباً! قال محمد بن المنكدر: استطعموا الله يطعمكـــم، فإنه القادر على كل شيء.

فدعا القوم، فلم يسيروا إلاّ قليلاً حتى وجدوا مكتلاً مخيطاً، فإذا فيه جبنٌ رطب! فقال بعض القوم: لـــو كـــان عسلاً؟ فقال محمد بن المنكدر: إن الذي أطعمكم جبناً هاهنا قادرٌ على أن يطعمكم عسلاً، فاستطعموه يطعمكـــم! فدعا القوم، فساروا قليلاً، فوجدوا وعاء عسل على الطريق! فأكلوا الجبن والعسل، وتابعوا سيرهم للغزو.. [1]

فـــصل

في أنواع مختلفة من فضل الجهاد والمجاهدين

٥٤ - روى النسائي وابن حبان والحاكم عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أنا زعيمٌ لمن آمنَ وأسلمَ وهاجرَ ببيتٍ في ربض الجنة وبيتٍ في وسط الجنة، وأنا زعيمٌ لمـــن آمـــن بي وأسلمَ وجاهدَ في سبيل الله ببيتٍ في ربض الجنة، وببيتٍ في وسط الجنة، وببيتٍ في أعلى غُرَفِ الجنة.

فمن فعلَ ذلك لم يَدَعْ للخيرِ مطلباً، ولا مِنَ الشَّرِّ مهرباً، يموتُ حيثُ شاءَ الله أن يموت " [2]

والزعيم هو الكفيل. وربضُ الجنة هو أسفلُها.

---

[1] كتاب مجابي الدعوة لابن أبي الدنيا: ٧١-٧٢

[2] سنن ا لنسا ئي: ٦/ ٢١. وموارد ا لظمآن ص: ٣٨٢. وا لمستدرك للحاكم: ٢/ ٧١، والحديث صحيح.

٥٥ - روى مسلم عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي - وهو بحضرة العدو - يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ أبوابَ الجنة تحتَ ظلالِ السيوف ". فقام رجلٌ رثُّ الهيئة، فقال: يا أبا موسى: أنتَ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ هذا؟ قال: نعم.

فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام. ثم كَسَرَ جفن سيفه، فألقاه، ثم مشى به إلى العدو، فضرب به، حتى قُتِل.. "[1]. وروى عبد الله بن المبارك في كتاب الجهاد عن أبي عمران الجوني أنَّ الحادثة السابقة كانت أثناء فتح أصبهان في بلاد فارس، فلما كان المسلمون يجاهدون الفرس في أصبهان وقف أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يحمِّسُهم على الجهاد، ويشجِّعُهم على القتال[2].

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ أبوابَ الجنة تحتَ ظلالِ السيوف ": أنّ من رفع يده بالسيف ضارباً في سبيل الله، أو رفع عليه الكافر السيف لأنه يجاهد في سبيل الله، فإن السيف - في الحالتين - يظِّلُ عليه، وبذلك صارَ كأنه وصلَ إلى أَبوابِ الجنة، لأنه يوشِكُ أنْ يَستشهدَ فيدخلُ الجنة في الحال، أو يؤخِّرُ فيموتُ على فراشه، فيدخلُها في المآل.

ومعلوم أنّ من قاتل في سبيل الله فقد وجبت له الجنة، فكأنَّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف حقيقة!!

٥٦ - روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف "[3]

٥٧ - روى أحمد وأبو عوانة والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أتعلمُ أولَ زمرةٍ تَدخلُ الجنةَ مِن أمتي؟ قلت: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: المهاجرون، يأتونَ يومَ القيامة إلى بابِ الجنة، ويستفتحون. فتقول لهم الخزنة: أَوقد حوسبتم؟ قالوا: بأيَ شيء نُحاسَب، وإنما كانت أسيافُنا على عواتقِنا في سبيل الله؟ فيُفتحُ لهم بابُ الجنة، فيُقيلون فيها أَربعين عاماً قبلَ أن يدخلَها الناس "[4]

---

[1] أخرجه مسلم برقم: ١٩٠٢
[2] الجهاد لابن المبارك: ٢/ ١٨٨.
[3] أخرجه البخاري برقم: ٢٨١٨. ومسلم برقم: ١٧٤٢
[4] مسند أحمد: ٢/ ١٦٨. ومسند أبي عوانة: ٥/ ٩٤. وا لمستدرك للحاكم: ٢/ ٧٠، وا لحديث صحيح.

٥٨ - روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا تحبوّن أن يغفرَ اللهُ لكم ويدخلَكم الجنة؟ قالوا: بلى. قال: فاغْزوا" [1]

٥٩ - روى أحمد والحاكم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "جاهِدوا في سبيل الله، فإن الجهادَ في سبيل الله بابٌ من أبوابِ الجنة، يُنجي اللهُ به من الهمِّ والغمَّ" [2]

٦٠ - روى البيهقي وأحمد وابن المبارك عن أبي قتادة الأنصاري قال: "كان عمروُ بن الجموح - شيخٌ من الأنصار - أعرج. فلما خرجَ النبيُ صلى الله عليه وسلم إلى بدر، قال عمرو لبنيه: اخْرِجوني. فذكَروا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم عَرَجَه، فَأَذِنَ له في الإقامة وعدم الخروج. ولما كان يومَ أُحُدِ خرجَ الناس، فقالَ لبنيه: أخرِجوني.. فقالوا: قد رخّصَ وأذِنَ لك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم! فقال لهم: هيهات، منعتُموني الجنةَ ببدر، وتمنعونيها بأُحُد؟

فخرجَ إلى أُحد. ولما التقى الناسُ في الميدان، قال: يا رسولَ الله: أرأيتَ إن قُتلت أطأ بعرَجَتي هذه الجنـة؟ قـال صلى الله عليه وسلم: نعم. قال: فوالذي بعثك بالحق لأطَأَنَّ بها في الجنة اليومَ إنْ شاءَ الله! وقال عمرو لغلام له يقال له: سَليم: ارجعْ إلى أهلك! فقال غلامُه: وما عليك أنْ أُصيبَ اليومَ خيراً معك؟ قال له: فَتَقَدَّمْ إذن! فتقدمَ العبدُ، فقاتَلَ حتى قتِل، ثم تَقَدَّمَ هو، فقاتَلَ حتى قُتِلَ أيضاً، رضي الله عنهما" [3]

٦١ - وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" مَنْ قاتَلَ في سبيل الله فُواقَ ناقة وَجَبت له الجنة " [4]

٦٢ - وروى مسلم في باب ثبوت الجنة للشهيد من كتاب الإمارة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى بدر، حتى سبقوا المشركين إليها. وجاء المشركون... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قوموا إلى جنةً عرْضُها السموات والأرض. فقال عميرُ بن الحُمام: يا رسولَ الله: جنة عرضُها السموات والأرض؟ فقال صلى الله عليه وسلم: نعم! فقال عمير: بخٍ، بخٍ! فقال صلى الله عليه وسلم: وما يحملُك على قولك: بخٍ. بخٍ؟

---

[1] سنن الترمذي: ٣/١٠٢. والحديث حسن
[2] مسند أحمد: ٥/ ٣١٤. والمستدرك للحاكم: ٢/٧٥. والحديث صحيح
[3] مسند أحمد: ٥/ ٢٩٩. باسناد حسن.
[4] سنن أبي داود: ٣/ ٤٦. وسنن الترمذي:٣/١٠٣. والمجتبى للنسائي: ٦/ ٢٥-٢٦، وابن ماجة: ٢٧٩٢، والحديث صحيح.

قال: لا واللهِ يا رسول الله إلاّ رجاءَ أنْ أكونَ من أهلها. قال صلى الله عليه وسلم: فإنكَ من أهلِها!

فأخرجَ تمرات من قَرَنه، فَجَعلَ يأكلُ منهن. ثم قال: إنْ أنَا حييتُ حتى آكلَ تمراتي هذه إنهـــا لحياةٌ طويلة! فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلَهم حتى قُتل. رضي الله عنه" ١

٦٣ - وروى النسائي وأحمد والبيهقي، عن سَبُرَةَ بن الفاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الشيطانَ قَعَدَ لابنَ آدم بطريق الإسلام، فقال: تُسلِمُ وتَذَرُ دينك ودينَ آبائك؟ فعصاه، فأَســلَمَ، فغفرَ اللهُ له.

ثم قعدَ له بطويق الهجرة، فقال : تهاجِرُ، وتَذَرُ دارَك وأرضَك وسماءك؟ فعصاهُ فهـــاجر. فقعَدَ له بطريقِ الجهـــاد، فقال: تجاهدُ وهو جهدُ النفس والمال، فتقاتِلُ فتُقتَل، فتُنكحُ المرأةُ ويُقسمُ المالُ؟ فعصاهُ فجاهد.

فقالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: فَمَنْ فعلَ ذلك، فمات، كان حقاً على الله أنْ يُدخله الجنة! وإنْ غرقَ كان حقاً على الله أنْ يدخلَه الجنة. أو وقصَتْه دابةٌ كان حقاً على الله أن يدخله الجنة " [٢]

٦٤ - روى البزار عن محمد بن حبيب المصري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تَنقطـعُ الهجرةُ ما قوتلَ الكفار"٣. والحديث دال على وجوب الجهاد وليس وجوب الهجرة، ومعناه: كلَّ من أمن وجاهـــد الكفار، فهو لاحقٌ بالمهاجرين في الفضل، ولو لم يُهاجر من بلده.

وخرَج ابن أبي شيبة في المصنف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لولا أن أسير في سبيل الله، أو أضـــع جبيني على التراب لله، أو أجالس قوماً يلتقطون طيِّبَ الكلام، كما يُلتقطُ طَيِّبُ التمر، لأحببتُ أنْ أكونَ لحقـــتُ بالله[٤].

وخرَّجَ ابن أبي شيبة عن خالد بن الوليد رضي الله عنه، قال : ما ليلةٌ تهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محبّ، أو أُبَشَرَ فيها بغلام، أحبُّ إليَّ من ليلةٍ شديدةِ البرد، كثيرةِ الجليد، في سرية، أصبحُ فيها العدوّ. فعليكم بالجهاد [١].

---

[١] أخرجه مسلم برقم: ١٩٠١
[٢] مسند أحمد: ٣/٤٨٣ والمجتبى للنسائي: ٦/ ٢١-٢٢. وشعب الإيمان للبيهقي: ٢/ ٩٥، والحديث صحيح.
[٣] كشف الأستار عن زوائد البزار: ٢/ ٣٠٤،ورجاله ثقات.
[٤] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/٣١٧.

وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه أيضاً: لقد مَنَعني الجهادُ في سبيل الله كثيراً من القرآن ! [٢].

---

[١] المرجع السابق : ٣١٧/٥-٣١٨.
[٢] مجمع الزوائد للهيثمني:٣٥٠/٩.

الباب الثالث

فيما جاء في فضل الجهاد على الحج

تقدم الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أي العمل أفضل؟ قال: إيمانٌ بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهادُ في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حجٌّ مبرور" [١].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لسفرةٌ في سبيل الله أفضل من خمسين حجة [٢].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عليكم بالحج، فإنه عمل صالح أمر الله به، والجهاد أفضل منه [٣].

وقال عبد الرحمن بن غنم الأشعري رضي الله عنه: حجَةٌ قبل غزوةٍ خير من عشر غزوات، وغزوةٌ بعد حجة خيرٌ من ثمانين حجة [٤].

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: غزوةٌ في سبيل الله أفضل من عشر حجج لمن قد حجّ [٥].

وقال ضرار بن عمرو: طالت إقامتي ببلد الجهاد، فاشتقت الحج، وأردت أن أجاور البيت الحرام، فتجهزت إلى الحج، ثم أتيت أودع إخواني. فأتيت إسحاق بن أبي فروة لأودعه. فقال: وأين تريد يا ضرار؟ قلت: أريد الحج! قال: وما نقص رأْيُك عن الجهاد؟ قلت: لا. إلاّ أنه طالت إقامتي ببلد الجهاد، وقد أحببت الحج، وأردت أن أجاور بيت الله الحرام. فقال لي: يا ضرار بن عمرو: لا تنظر فيما تحبّ، ولكن انظر فيما يحبُّ الله!

يا ضرار بن عمرو: أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحجّ البيت إلاّ مرةَ واحدة، ولكنه لم يزل غازياً مجاهداً حتى لحق بالله!

---

[١] انظر حديث رقم (٢٢) الماضي.
[٢] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/ ٣٠٤.
[٣] المرجع السابق: ٥/ ٣١٠- ٣١١.
[٤] الجهاد لابن المبارك: ٢/ ١٨٧.
[٥] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/٣٠٣-٣٠٤

يا ضرار بن عمرو: إنك إن حججت فإنما لك أجر حجَّتك وعمرتك، ولكنك إذا كنت مرابطاً أو مجاهداً، وحجَّ البيت الحرام مائة ألف ومائة ألف، كان لك مثل أجر حجتهم وعمرتهم، وكان لك من الأجر بعدد كل مؤمن ومؤمنة، منذ خُلِقَ آدمُ إلى أن ينفخ في الصور! لأن من نصر آخر المؤمنين، كان له كأجر من نصر أولهم وآخرهم، وكان له من الأجر بعدد كلِّ مشركٍ ومشركة من أن خلق الله آدم إلى أن ينفخَ في الصور، لأن من جاهد آخر المشركين كان كمن جاهد أوّلهم وآخرهم. وكان من الأجر بعدد كلّ حرفٍ أنزله الله، في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، لأنه يجاهد لئلا يُطفأ نور الله!!

يا ضرار بن عمرو: أما علمت أنه ليس من أحدِ أقرب إلى درجة النبوة من درجة العلماء والمجاهدين. فقلت: كيف ذلك يرحمك الله؟ فقال: لأنَّ العلماء قاموا بما جاءت به الأنبياء من تثبيت أمر الله في عباده وبلاده، ويدُلّون الناس على الله.

ولأن المجاهدين قاموا بما جاءت به الأنبياء عن الرب من توحيد الله، كي لا يُطفأ نوره، ولأن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى! قال ضرار بن عمرو: فتركت ما كنت فيه من قصد الحج، وأقمتُ ببلد الجهاد..

الباب الرابع

في ما جاء في التحريض على الجهاد

قال تعالى: (وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ آن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أشَدُّ بَأْساً وَأشَدُّ تَنكِيلاً) [النساء: ٨٤].

وقال تعالى: (يَا آيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ آلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ) [الأنفال: ٦٥].

وقال تعالى: (يَا آيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ ألِيمٍ {١٠} تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [الصف: ١٠ - ١١].

والآيات التي حرض الله فيها عباده على الجهاد في سبيله،ورغّبهم فيما عنده من الأجر والثواب كثيرة جداً. وإنَّ سنة الله ماضيةٌ في التحريض على الجهاد والترغيب فيه، وآيات القرآن لا تخفى على أحدٍ! في التحريض على الجهاد. والسنة النبوية مشحونة بذلك.

وهذا الكتاب بجميع ما اشتمل عليه في التحريض على الجهاد. ولم يزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة السلف الصالح رضوان الله عليهم مستمرين قي التحريض على الجهاد.

وقد قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: من حرَّضَ أخاهُ على الجهاد كان له مثل أجره.. والدليل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٦٥ - روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ دَلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجْرِ فاعله" [1].

---

[1] أخرجه مسلم برقم ١٨٩٣

وكانت الشاعرة الخنساء بنت عمرو تحرض أبناءها على الجهاد، فقد حضرت معركة القادسية، وكان معها أربعة من أبنائها، فحرضتهم على القتال، ورغبتهم في الجنة، وحثتهم على الاستشهاد، فأبلوا في القتال، واستشهدوا جميعاً!

ومن القصص في التحريض على القتال: ما حكاه مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي أنه جلس في سنة ستمائة وسبع من الهجرة في مسجد دمشق يحرض الناس على قتال التتار، الذين عاثوا في الأرض فساداً.

قال سبط ابن الجوزي: إنّ الذين حضروا درسه كانوا حوالي ثلاثين ألفاً، وكان يوماً مشهوداً بدمشق، وكثر فيه التائبون الراغبون في الجهاد، وتبرعت فيه كثيرٌ من النساء بشعرهن، ليكون لجاماً وعِقالاً لخيل المجاهدين. وصنعوا من شعر النساء ثلاثمائة عقال لخيل المجاهدين.

وخرج الناس للجهاد من دمشق، وتوجَّهوا جنوباً نحو "الكِسْوَة" ، وانضمَّ إليهم المتطوعون للجهاد في "الكِسْوَة" و"زَمَلْكا" وغيرها. وتوجهت ألوف المجاهدين نحو الجولان، ونزلت عقبة "أُفيق" من الجولان إلى غور الأردن، ثم قطعوا الغور، وتوجّهوا نحو مدينة " نابلس ". واجتمعنا بالملك المعظم في نابلس، ورحّب بنا، وجلستُ في جامع نابلس أحرضُ الناس على الجهاد.

وخرج الآلاف من المجاهدين من مدينة نابلس، وهاجموا البلاد التي يحتلُها الفرنج، وقتلوا منهم جماعة، وأسروا جماعة، وعادوا سالمين [١].

ومن القصص الجهادية المؤثرة قصة العابدة "أمّ إبراهيم الهاشمية"، وقد أوردها " أبو جعفر أحمد بن جعفر بن اللبان " في كتابه "تنبيه ذوي الأقدار على مسالك الأبرار".

وقد روى هذه القصة الإمام العالم المجاهد عبد الواحد بن زيد البصري، وخلاصتها: أغار الكافرون على ثغر من ثغور المسلمين، ونفر الناس في البصرة للجهاد، ووقف عبد الواحد بن زيد خطيباً يحضُّ المسلمين على الجهاد، ويندبهم للخروج لقتال المعتدين. واستخدم ابن زيد في تحريضه مختلف المؤثرات، فأورد الآيات والأحاديث، وأورد الأشعار في وصف الحور العين، وترغيب المسلمين في الجهاد والاستشهاد، ليكرمهم الله بهنَّ في الجنة.

[١] أوردنا خلاصة قصة سبط ابن الجوزي ببعض التصرف وانظرها في الأصل (ن ٤١٥ - ٢١ ه

وكانت أمّ إبراهيم الهاشمية من الحاضرات، وتأثرت بما سمعت من صفات الحور العين، فأتت ابن زيد وأخبرته أنَّ ابنها إبراهيم لم يتزوّج، وأنَّ أشراف ورؤساء أهل البصرة، يتمنّى كلٌّ منهم لو زوَّجَه ابنته، ولكنها تريد أن تزوِّجه جاريةً من الحور العين التي سمعت وصفها من ابن زيد!

أعطت أمُّ إبراهيم - وكانت غنيةَ صالحة - عبد الواحد بن زيد عشرة آلاف دينار مهرَ الجارية الحورية التي تحدَّث عنها، على أن يخرج ابنُها إبراهيم معه للجهاد، لعلَّ الله يرزقه الشهادة، فيتزوج تلك الحورية، وبذلك يكون شفيعاً لأمِّه وأبيه يوم القيامة.

قال لها ابن زيد: لئن فعلت لتفوزنَّ أنت وولدك وأبو ولدك فوزاً عظيماً. فنادت ولدها إبراهيم، فوثب من وسطِ آلاف الناس الجالسين في مسجد البصرة. وقال لها: لبيك يا أُمّاه.

قالت له: هل رضيت بتلك الجارية الحورية زوجةَ لك، على أن تخرج للجهاد، وتبذل روحك لله، وتنال الشهادة. قال لها إبراهيم: نعم رضيت. فقالت على مسمعٍ من الموجودين: اللهمّ إني أشهدك أني زوّجت ولدي من الحورية، ببذل روحه في سبيلك، وترك العودة للذنوب! فتقبَّله مّني يا أرحم الراحمين!! وأحضرت العشرة آلاف دينار، وطلبت من عبد الواحد بن زيد أن يجهّزَ بها المجاهدين، وابتاعت لابنها فرساً وسلاحاً للجهاد.

وقبل أن يخرج المجاهدون للجهاد، أرادت أمُّ إبراهيم فراق ابنها فقدمت له كفناً وحنوطاً، وقالت له: عندما يحين لقاء العدو، فتكفن بهذا الكفن، وتحنّط بهذا الحنوط! وإياك أن يراك الله مقصِّراً في سبيله!!. ثم ضمّته إلى صدرها وقبّلت بين عينيه، وقالت له: يا بني: أسأل الله أن لا يجمع بيني وبينك إلاّ في ساحة العرض يوم القيامة!!

وسار المجاهدون لقتال الكفار، وكان الإمام عبد الواحد بن زيد في مقدمتهم، ونشبت المعركة حاميةً مع الأعداء. ونظر ابن زيد إلى إبراهيم فإذا به في مقدمةِ المجاهدين، يصولُ ويجول، فقَتَل من الكفارِ خلقاً كثيراً، ثم اجتمع عليه الكفار، فقتلوه، ولقيَ الله شهيداً. وعاد المجاهدون إلى البصرة، وخرجِ الناس يتلقُونهم، ورأت أمُّ إبراهيم ابن زيد، فسألته عن ابنها قائلة: يا أبا عبيد: هل قُبِلَتْ مني هَدِيتي فَأهَنّأ؟ أم رُدَّتْ عليَّ فأُعَزّى؟

قال ابن زيد: لها: قد قبلت والله هديتك، وإنَ ابنك إبراهيم الآن حيٌّ يرزق مع الشهداء! فخرَّت ساجدةَ شكراً لله، وقالت: الحمدُ لله الذي لم يخيِّب ظني، وتقبَّل مّني عبادتي! وفي الغد أتت أمُّ إبراهيم إلى ابن زيد في مسجده، وقالت له: السلام عليك يا أبا زيد، بُشراك! قال لها: لا زلت مبشَّرَةً بالخير، فماذا عندك؟

قالت: رأيت الليلة ولدي إبراهيم في روضة حسناء، وعليه قبةٌ خضراء، وهو على سريرٍ من لؤلؤ، وعلى رأسه تاجٌ وإكليل! وقال لي : يا أُماه أبْشِري، فقد قُبِلَ المهر، وزفَّتِ العَروس!! [١].

[١] انظر: قصة "أم إبراهيم الهاشمية" في الأصل ١:٢١٥-٢١٨

الباب الخامس

في فضل السبق إلى الجهاد والمبادرة إليه

قال الله تعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ) [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة : ١٠٠].

وقال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ {١٠} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ {١١} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ {١٢}) [الواقعة: ١٠ - ١٢].

قال عثمان بن أبي سودة : بلغنا في هذه الآية: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ {١٠}): أوّلهم خروجاً للجهاد في سبيل الله، وأوّلهم خروجاً إلى الصلاة. وعثمان هذا من أئمة التابعين، ومن أئمة الغزو والجهاد فيهم.

قيل له في أحد الأعوام: هل ستغزو هذا العام أيضاً؟ فقال: لا أحبُّ أن لا أغزو هذا العام، وإن لي مائة ألف دينار..

الباب السادس

في فضل الغدو والرواح في سبيل الله

قال الله تعالى: (وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {١٢١}) [التوبة : ١٢١].

٦٦ - روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لَغَدْوَةٌ في سبيل الله، أو روحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها. ولَقابَ قوسِ أحدِكم من الجنة، أو موضعَ قيدِ سوطِه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو أنَّ امرأةً من أهل الجنة اطلَعتْ إلى أهل الأرض لأضاءَتْ ما بينهما ولملآتْه ريحاً، ولَنَصيفُها على رأسِها خيرٌ من الدنيا وما فيها" [1].

والغدوة هي: المرة الواحدة من الذهاب. الروحة هي: المرة الواحدة من المجيء.

وقال النووي في شرح مسلم: الغدوة: السير أول النهار إلى الزوال. والروحة: السير من الزوال إلى آخر النهار.

ومعنى الحديث: أنه يحصل للمجاهد من غدوته وروحته ثوابٌ عظيم، خير من الدنيا وما فيها.

والظاهرُ أن هذا الثواب العظيم لا يحصل للمجاهد عند غدوه ورواحه من بلدته، لكنه يحصل له بكل غدوة وروحةٍ للجهاد، من أي مكانٍ كان فيه. أي: إنّ فضل وثواب الغدوة والروحة في سبيل الله خيرٌ من نعيم الدنيا كلِّها، لو ملكها إنسان وتنعمّ بها! لأن نعيم الدنيا كلّها زائل، ونعيم الآخرة باقٍ [2]. و: قابُ القوس: قدره. وقيل: قاب القوس: ما بين مقبضه وطرفه. والنّصيف هو: الخمار يوضع على رأس المرأة.

---

[1] أخرجه البخاري برقم:٢٧٩٦. ومسلم برقم: ١٨٨٠.
[2] شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/ ٢٦-٢٧

٦٧ - وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَروحَةٌ في سبيلِ الله أو غدوة، خيرٌ مما تطلعُ عليه الشمسُ وتغرب، ولَقابُ قوسٍ في الجنة خيرٌ مما تطلعُ عليه الشمس وتغرب " [١].

٦٨ -وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تضمَّنَ اللهُ لمن خرجَ في سبيله، لا يُخرجُه إلا جهاد في سبيلي، وإيمانٌ بي، وتصديقٌ برسلي، فهو عليَّ ضامنٌ أنْ أُدخلَه الجنة، أو أُرجعَهُ إلى مسكنه الذي خرجَ منه، نائلاً ما نالَ من آجرٍ أو غنيمة.

والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما مِنْ كَلمٍ يكْلَمُ في سبيلِ الله إلاّ جاءَ يومَ القيامة كهيئته يَوْمَ كُلِم، لونُه لَونُ الدم، وريحُه ريحُ المسك. والذي نفسُ محمدٍ بيده، لولا أنْ أشقَّ على المسلمين، ما قعدْتُ خلافَ سريةٍ تغزو في سبيل الله أبـداً، ولكن لا أجدُ سَعَــةَ فأحملُهم، ولا يجدونَ سَعَة، ويشقُّ عليهم أن يتخلَّفوا عني. والذي نفسُ محمد بيده لوددْتُ أنْ أغزُوَ في سبيل الله فأُقْتل، ثم أغْزو فأُقتل، ثم آغْزو فأُقتل... " [٢].

٦٩ - روى البزار عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنَّ رجلاً جاء إلى الصلاة، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّي بنا. فلما انتهى إلى الصفّ قال: اللهمّ آتني أفضلَ ما تُؤتي عبادَك الصالحين! فلما قضى النبيُّ صلى الله عليـه وسلم الصلاة قال: مَنِ المتكلمُ آنفاً؟ قال الرجل: أنا. قال صلى الله عليه وسلم: إِذَنْ يُعْقَرُ جَوادُك، وتستشـهد في سبيلِ الله.. " [٣].

وروى ابنُ عساكر عن عبد الله بن محيريز الجمحيّ أنه خرج بعث للجهاد من دمشق لغزو الروم، وهـو بعـث الصائفة. فاكتتب في البعثِ أبوه مُحَيْريزِ الجمحي - وهو صحابي - فمرض مرضاً شديداً. فقال لابنه عبد الله: يـا بني: احملني، فسر بي إلى أرض الروم. قال عبد الله: فحملته. فلم أزل أسير به، وهو يقول: يا بني أسرع بي السـير! قلت: يا أبت إنك مريض! قال : يا بني أسرع بي السير، فإني أحبُّ أن يكون أجلي بأرضِ الروم.

فما زلت أسير به، حتى مات بأرض حمص! وروى الذهبيُّ عن حصين بـن جنـدب: غـزا جـيش المسلمين القسطنطينية زمن معاوية، وقد أتيت مصر بعد رجوع الجيش من هناك. فأخبرني بعض من كانوا في الجيش أنهم لمـا كانوا محاصرين للروم في القسطنطينية احتضر أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقال لمن حوله: إذا متّ، فضعوني

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٢٧٩٣.
[٢] أخرجه مسلم برقم: ١٨٧٦
[٣] كشف الأستار: ٢/ ٢٨١، ورجاله ثقات.

على الخيل، ثم سيروا بي، حتى تلقوا العدو، عند أقرب نقطةٍ من جيش العدو، وهناك احفروا! لي قبراً ثم ادفنوني، ثم سووا قبري كي لا يعرفه أحد.

وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان أبو مسلم الخولاني مع المجاهدين بأرض الروم، في خلافة معاوية رضي الله عنه، وكان قائد الجيش بسر بن أرطاة رضي الله عنه.

فمرض أبو مسلم الخولاني واحتضر، فقال لبسر بن أرطأة قبل أن يموت: إذا أنا مت، فأمِّرني على من مات معك من المسلمين، واعقد لي لواءً عليهم، واجعل قبري أقصى القبور إلى العدوّ، فإني أرجو أن أجيء يوم القيامة بلوائهم..

الباب السابع

في فضل المشي والغبار في سبيل الله

٧٠ - روى البخاري عن عبد الرحمن بن جبر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن اغْبرَّتْ قدماهُ في سبيل الله، حَرَّمَهُ اللهُ على النار" [١].

وفي رواية أخرى للبخاري: أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ما اغبرَّتْ قَدَما عبدٍ في سبيل الله، فتمسُّه النار".

٧١ - وروى الترمذي والنسائي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يلجُ النارَ رجلٌ بكى من خشيةِ الله حتى يعودَ اللَّبَنُ في الضِّرْع، ولا يجتمعُ غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم في منخَرَيْ مسلمٍ أبداً" [٢].

٧٢ -وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يجتمعان في النار اجتماعاً يَضُرُّ أحدهما الآخر: مسلمٌ قَتَل كافراً، ثم سَدَّدَ المسلمُ وقارب. ولا يجتمعانِ في جوفِ عبد: غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم. ولا يجتمعانِ في قلبِ عبدٍ : الإيمانُ والشّحّ" [٣].

وقد روي أن السيد الجليل عبد الله بن المبارك رضي الله عنه، رُئيَ في المنام: فقيل له: ما فعل اللهُ بك؟ قال: غفر لي. قال: بعلمك الذي بثثته في الناس؟ قال: لا. ولكن بما دخل منخري من الغبار في سبيل الله.

٧٣ - وروى ابن حبان وابن المبارك والبيهقي عن أبي المصبِّح المقرائي قال: بينما نحن نسير بأرض الروم في طائفةٍ من المجاهدين، عليها مالك بن عبد الله الخثعمي، إذ مرّ مالكٌ بالصحابيِّ جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وهو يمشي على قدميه، يقود بغلاً له. فقال له مالك: يا أبا عبدالله: اركب بغلك، فقد حملك الله.

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٩٠٧.
[٢] سنن النسائي : ٦/ ١٢. وسنن الترمذي: ٣/٩٣. والمستدرك للحاكم ٤٠ / ٢٦٠، والحديث صحيح.
[٣] أخرجه مسلم برقم: ١٨٩١. والنسائي: ٦/ ١٢

فقال له جابر: أصلح دابتي وأستغني عن قومي. ولقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن اغبرَّتْ قدماه في سبيل الله، حرَّمه اللهُ على النار"! فأعجب مالك الخثعميُّ بجواب جابر، وتابع سيره. وأراد الأمير مالك أن يسمع المجاهدون كلام جابر ليقتدوا به، فلما ابتعد عن جابر، وصار بحيث يسمع من حوله صوته، نادى مالكٌ بأعلى صوته: يا أبا عبدالله: اركب بغلك فقد حملك الله!

وعرف جابر ما يريده الأمير، فردَّ عليه قائلاً: أُصلحُ دابتي، وأستغني عن قومي، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن اغبرَّت قَدَماهُ في سبيل الله، حَرَّمَهُ اللهُ على النار". فلما سمع المجاهدون كلامَ جابر، نزلوا عن دوابهم، فما رئيَ يومُ أكثرَ ماشين من ذلك اليوم ! [1]

لقد كان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يمشي على قدميه أثناء خروجه للجهاد لكي يغبِّرَ قدميه في سبيل الله، لينال الأجر العظيم من ذلك.

ولأجل هذا كره العلماء للخارج مجاهداً في سبيل الله التلثُّمَ وتغطية الأنف والفم، لئلا يدخله الغبار. وقاسوا هذا على كراهية السواك بعد الزوال للصائم، لأن السواك قد يزيل خلوف فم الصائم، وخلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك.

وكذلك يكره التلثم، لأنّ اللِّثام يمنع دخول الغبار في أنف وفم المجاهد، ودخوله سبب لتحريم المجاهد على النار، كتغبير القدمين بغبار الجهاد: "من اغبرَّتْ قدماه في سبيل الله، حَرَّمَه اللهُ على النار".

٧٤ - روى الحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "كنا يوم بدر، كلُّ ثلاثةٍ! على بعير، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وأبو لبابة الأنصاري رضي الله عنهما على بعير. فإذا جاءَ دورُ الرسول صلى الله عليه وسلم ليمشي قالا: نحن نمشي عنك يا رسول الله. فيقولُ لهما: ما آنتما بأقوى مني! وما أنا بأغنى عن الأجرِ منكما!! " [2].

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ١٦٢. والجهاد لابن المبارك: ١/٧٧-٧٨ وموارد الظمآن: ٣٨٢، والحديث صحيح.

[2] المستدرك للحاكم: ٣/٩١، والحديث حسن.

الباب الثامن

في فضل الغزو في البحر على الغزو في البر

٧٥ - روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يـــدخل على أمِّ حرام بنتِ ملحان، فتطعِمُه، وكانت أمُّ حرام تحتَ عبادة بن الصامت. فدخلَ عليها رسول الله صـــلى الله عليه وسلم يوماً ، فأطعَمَتْه، ثم جلَسْت تُفَلّي رأسَه، فنامَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

ثم استيقظَ وهو يضحك. قالت أُمُّ حرام: ما يُضحكُكَ يا سولَ الله؟ قال: ناس من أُمتي عُرِضوا عليّ، غـــزاة في سبيل الله، يَركبون ثَبَجَ هذا البحر مُلوكاً على الأسِرَّة، أو مثلَ الملوك على الآسِرَّة. فقالت: ادْع اللهَ يا رسولَ الله أنْ يجعلَني منهم! فَدَعا لها. ثم وَضَعَ رأسَه فنام.

ثم استيقظَ وهو يضحك، فقالت: ما يضحكُك يا رسولَ الله؟ قال: ناس من أُمتي عُرِضوا عليَّ غُزاة في سبيل الله. كما قـــال في الأولى. فقالت: يا رسولَ الله: ادع اللهَ أنْ يجعلَني منهم. قال: أنتِ من الأولين! فركبت أمُّ حرامٍ البحر في زمن معاوية، فصُرِعَت عن دابتها حين خرجَتْ من البحر فهلكت"[١]

وأمُّ حرام بنتُ ملحان خالةُ أنس بن مالك رضي الله عنه. قال النووي في شرح مسلم: اتفق العلماء علـــى أن أُمَّ حرام كانت من المحرماتِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان يدخلُ عندها، وتطعمه، وتُفلي رأســـه، وينامُ عندها، لأنها محرَمَةٌ عليه. وذهبَ بعضُ العلماء إلى أنها كانت إحدى خالاته من الرضاعة [٢] .

٧٦ -وروى البخاري عن أُمِّ حرام بنت ملحان رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وســـلم يقول: "أولُ جيشي مِن أُمَّتي يَغْزونَ البحرَ قد أوْجَبوا. قلت: يا رسولَ الله: أنا منهم؟ قال: أنتِ منهم. ثم قال صلى الله عليه وسلم: أول جيشٍ من أمتي يَغزون مدينةَ قيصر مغفورٌ لهم. قلتُ: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: لا. أنت من الأولين "[٣]. وكان أوّل من غزا في البحر معاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنه، حيث كان والياً على الشام في عهـــد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٢٧٨٨. ومسلم برقم: ١٩١٢.
[٢] شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/٥٨.
[٣] أخرجه البخاري برقم: ٢٩٢٤

ولما توجَّهت سفُنُ المسلمين لغزو قبرص، خرج عبادةُ بن الصامت رضي الله عنه معَ المجاهدين، وخرجت معه زوجته أمُّ حرام.

ولما فتح المسلمون جزيرة قبرص قُدِّمَ لأُمِّ حرام دابة لتركبها، فصرعتها، فدقّت عنقها وماتت، ودفنت في قبرص، رضي الله عنها.

وفي خلافة سليمان بن عبدالملك توخه المجاهدون لغزو القسطنطينية، عاصمة الروم، براً وبحراً، و كان لهم نحوُ ألفِ مركب وسفينةٍ بالبحر، وكان جيشُ البرِّ أكثرَ من مائةِ ألف. وكان أميرُ الجيشِ مسلمة بن عبدالملك.

وحاصر المسلمون القسطنطينية بَرّاً وبحراً أكثر من ثلاثين شهراً، حتى تضرروا كثيراً جوعاً وعطشاً وتعباً.

ولما وليَ عمر بن عبدالعزيز الخلافة أمر بإعادة الجيش الغازي في البرِّ والبحر[١].

وعن حَيٍّ المُعافِرِيّ قال: كنا جلوساً مع عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند منارة الإسكندرية، فرفعت مراكب وسفن المجاهدين، متوجِّهين للغزو. فقال عبد الله بن عمرو لمسلمة بن مخلد: أين ذنوب هؤلاء المجاهدين؟ قال مسلمة: خطاياهم في رقابهم. قال عبد الله بن عمرو: كلاّ، والذي نفسي بيده، لقد خَلَفوها وراءهم! وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: غزوةٌ في البحر أحبُّ إليَّ من قنطارٍ متقبلاً!

وقال خيثمة: كان عندنا بطرابلس الشام رجلٌ اسمه عاصم، وكان كثير الجهاد في البحر، ولما توفي رأيته في المنام، فقلتُ له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني رحمةَ واسعةً بكثرة جهادي في البحر! وقال القاضي أبو بكر بن العربي: من أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده، وأن الأسباب المادية ضعيفة، وأن يتحقق بالتوكل على الله وتفويض الأمر إليه، فعليه أن يركب البحر!

وقال ابن قدامة في المغني: غزو البحر أفضل من غزو البر، لأن غزو البحر أعظم خطراً ومشقة، فالمجاهدُ فيه بين خطرين: خطر العدو وخطر الغرق، ولا يتمكّنُ المجاهد فيه من الفرار إلاّ مع أصحابه!.

---

[١] انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري: ٥/٢٩١-٢٩٣

وإنما يجوز ركوب البحر للجهاد والحج إذا غلبت السلامة، أمّا في حال هيجان البحر واضطراب أمواجه فإنه لا يجوزُ ركوبُه.

٧٧ - روى أحمد وسعيد بن منصور عن أبي عمران الجوني قال: كُنّا بفارس، وعلينا أمير، هو زهير بن عبـــد الله، فأبصرَ إنساناً فوق بيتٍ أو إجّار، ليس حولَه شيء! فقالَ لي: سمعْتَ في هذا شيئاً؟ قلت: لا.

قال:حدثني رجل أنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ باتَ فوق إجّار، أو فوقَ بيت، ليس حولَه شـــيءٌ يَدفعُ رجلَه، فقد برئَتْ منه الذِّمة. وَمَن ركبَ البحر بعد ما يرتجُّ فقد برئت منه الذمة"[١].

الإجّار: هو سطحُ البيت. وارتجاجُ البحر: هيجانه وتلاطم أمواجه.

فـــصل

في فضل تكبير المجاهدين

٧٨ - روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صَبحَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خيبر بكرة، وقد خرجوا بالمساحي! فلما نظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءوا يسعون إلى الحصن، وقـــالوا: محمدٌ والخميسُ! فرفعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسَه، ثم قال: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر! خَرِبَتْ خيبر. إنا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساءَ صباحُ المنذَرين "[٢].

والمساحي هي: المجارف من حديد المستخدمةُ في الزراعة. والخميس هو: الجيش.

إنَّ هذا الحديث الصحيح أصلٌ في التكبير في الحرب. ولذلك نصَّ الأئمة على استحباب التكبير في الحرب.

---

[١] مسند أحمد: ٥/ ٧٩. وسنن سعيد بن منصور: ٢/٣/١٦٢. والحديث صحيح متصل ولا تضر جهالة الصحابي، وله شواهد تشهد له.
[٢] أخرجه البخاري برقم: ٣٦٤٧، ومسلم برقم: ١٣٦٥

قال أشهب بن عبد العزيز: سألت مالكاً عن رفع الأصوات بالتكبير على الساحل في الرباط، بحضرة العــدو أو بغير حضرته، هل يكره أو يُسْمعُ الرجل نفسه؟

فقال مالك: أمّا التكبير بحضرة العدو فلا بأس به وذلك حسن. وكذلك التكبير على الساحل حسن ولو لم يحضر العدو، إلاّ أن يكون في رفع الصوت إيذاءٌ للآخرين، أو تشويشٌ على المسلمين.

وقال الليثُ بن سعد: كان من مضى يكبرون في حروبهم، يتقوًونَ به على الحراسةِ وسهرِ الليل، ولم يُعبْ أحــدٌ عليهم ذلك.

الباب التاسع

في فضل النفقة في سبيل الله

قال تعالى: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة : ٢٦١] .

٧٩ - روى الترمذي والنسائي والحاكم عن خريم بن فاتك الأسدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن أنفقَ نَفَقَةً في سبيلِ الله كُتبتْ بسبعمائةِ ضعف " [١] .

٨٥ - وروى مسلمٌ عن أَبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ بناقة مخطومة ، فقال: هذه في سبيل الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكَ بها يومَ القيامة سبعمائة ناقة، كلُّها مخطومة " [٢] .

والراجح أن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "لكَ بها يومَ القيامة سبعمائة ناقة كلُّها مخطومة " لك بهذه الناقة أجرُ سبعمائة ناقة.

٨١ - وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَنْ أنفَقَ زوجين في سبيلِ الله، نوديَ في الجنة: يا عبدَ الله هذا خيرٌ فَتَعالَ! فَمن كانَ مِن أهلِ الصلاة دُعيَ مِنْ بابِ الصلاة، وَمَن كان مِنْ أهلِ الجهاد دعي مِنْ بابِ الجهاد، ومَن كانَ من أهلِ الصدقة دعيَ مِن أهل الصدقة، وَمَن كان من أهلِ الصيام دعي مِن بابِ الرّيّانِ. قالَ أبو بكر الصديق: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله. فما على مَن يُدعى مِن تلك

---

[١] سنن الترمذي: ٣:٩٠. وسنن النسائي: ٦/ ٤٩. ومستدرك الحاكم: ٢/ ٨٧ والحديث صحيح.
[٢] أخرجه مسلم برقم: ١٨٩٢.

الأبواب كلَّها من ضرورة. فهلْ يدعى أحَد من تلك الأبوابِ كلِّها؟ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: نعم. وأرجو أن تكونَ منهم " [1].

٨٢ - وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ أنفقَ زوجين في سبيل الله، دعاهُ خزنةُ الجنة، كل خَزَنَةِ باب يقولون: أيْ فُل: هَلُمَّ! فقالَ أبو بكر: يا رسولَ الله : ذلك الذي لا تَوى عليه! فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إني لأرجو أن تكونَ منهم " [2]. ومعنى: "لا توى عليه": لا ضياعَ ولا خسارةَ عليه! ومعنى: "أي: فُل ": أي فُلان.

٨٣ - وروى النسائيّ والحاكم عن صعصعة بن معاوية عمِّ الأحنف بن قيس رضي الله عنهما قال: ذهبت إلى أبي ذرّ الغفاريّ رضي الله عنه، فلم أجده في مترله. فاستقبلني يقودُ بعيراً، أو يسوق في عنقه قربةَ ماء، قد استقاها لأهله. فقلت: أنت أبو ذر؟ قال: كذلك يقول أهله! قلت: حدِّثني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لعل الله أن ينفعني به! قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ أنفَق من مالِه زوجَين في سبيل الله، ابتدرتْهُ حَجَبَةُ الجنة". قلت: ما المرادُ بالزوجين من ماله؟ قال: فَرَسانِ من خيله، أو بعيران من إبله" [3].

٨٤ - وروى مسلمٌ عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم :" أفضلُ دينارٍ ينفقُه الرجل: دينارٌ ينفقُه على عيالِه، ودينارٌ ينفقُه على دابته في سبيل الله، ودينارٌ ينفقُه على أصحابه في سبيل الله"[4].

وقال الزهري: أوصى عبد الرحمن بن عوف لمن بقي ممن شهد بدراً بسبعمائة دينار لكل واحد، فأخذوها وكانوا مائة، وأخذ عثمان حصته سبعمائة دينار، وهو خليفة، لانَّ مال ابن عوف حلالٌ مبارك! وإن الله يتقبل النفقة من صاحبها مهما قلّت، ولا يجوز للمنفق أن يحتقر ويستقلّ نفقته ومعروفه.

٨٥ - روى مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تحقِرَن من المعروف شيئاً. ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق " [5].

---

[1] أخرجه البخاري برقم ١٨٩٧. ومسلم برقم : ١٠٢٧.
[2] أخرجه مسلم برقم: ١٠٢٧.
[3] أخرجه النسائي في المجتبى: ٦/ ٤٨. والحاكم في المستدرك: ٢/ ٨٦. وإسناده صحيح.
[4] أخرجه مسلم برقم: ٩٩٤.
[5] أخرجه مسلم برقم: ٢٦٢٦.

وهذا معناه أن لا يستقلَّ المسلم ما عنده من الخير، فإنه وإن كان يسيراً قليلاً، فإن الله يجعله بالقصد الصالح كثيراً!! وكان الأمير المجاهد عقبة بن نافع الفهري يتقبلُ أي نفقة في سبيل الله مهما قلّت، فإذا جاءته المرأة بالكُبّة الصغيرة من الخيوط للجهاد في سبيل الله يقبلها منها، وإن جاءه الرجل بثلث دينار للجهاد في سبيل الله يقبله منه!! فقيل له: لقد أغناك الله عن هذا القليل، فلماذا تأخذه؟ فقال: إنّي آخذه من صاحبه ليأجُرَهُ الله عليه، ونعطيه نحن من عندنا فيأجرنا الله. وصدق رحمه الله فيما قال. فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنةً يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً!!

ومن روائع حكايات المنفقين في سبيل الله حكاية المرأة التي قدّمت زوجها وأبناءها شهداء في سبيل الله، وأنفقت مالها في سبيل الله، بل وقصّت شعرها وتصدّقت به في سبيل الله.

وقد أورد قصّتها مفصَّلةَ أحمد ابن الجوزي الدمشقي، في كتابه" سوق العروس وأنس النفوس " نقلاً عن الذي قصَّها وهو أبو قدامة الشامي.

وخلاصة القصة: أن أبا قدامة الشاميَّ رجلٌ حبَّب الله له الجهاد في سبيل الله، وقد خاض معارك عديدةَ في غزوة الروم. وجلس يوماً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحدِّث عن بعض غزواته. فطلب منه الجالسون أن يحدثهم عن أعجب قصصه في الجهاد.

فأخبرهم عن أعجب ما وقع له في الجهاد: أنه توجه يوماَ لحرب الروم، فمرَّ بمدينة الرقة على نهر الفرات، ليشتري منها جملاَ يجاهد عليه. وبينما كان في الرقَّة أتته امرأة، وأخبرته أنها تريد أن تتصدق للجهاد بشعرها، وأنها قصّت شعرها، وعفّرته بالتراب، وطلبت منه أن يأخذ ذلك الشعر ليكون عِقالاً وخطاماً لخيل المجاهدين.

وأخبرته أنَّ زوجها خرج للجهاد يوماً، فلقي الله شهيداً، وأن أولادها خرجوا للجهاد، فلقوا الله شهداء، ولم يبق من أولادها إلاّ فتى عمره خمسة عشر عاماً، ورغم صغر سنّه إلا إنه كان صواماً قوّاماً، حافظاً للقرآن، فارساً مُجيداً للقتال، وكان من أجمل وأحسن الفتيان! وأخبرته أنَّ هذا الفتى خارجٌ بعيداً عن المدينة، وإن جاءها فسوف ترسلُه للجهاد معه، وتقدِّمُه هديةٌ لله، وترجو الله له الشهادة.

انتظر أبو قدامة مجيء الفتى فلم يأت، فسار بأصحابه المجاهدين من الرَّقَة، متوجهين لقتال الروم، وساروا أياماً..

وبينما كانوا سائرين لحقَ بهم ذلك الفتى المجاهد الفارس على فرسه، وكلَّمَ أبا قدامة، وعرَّفه على نفسه، أنه ابن تلك المرأة، وأن والدَه وإخوانَه لقوا الله شهداء، وهو يريدُ أنْ ينالَ الشهادة مثلَهم. وحاولَ أبو قدامة أن يردَّهُ لصغر سنّه، وخشيَ عليه، ولكنَّ الفتى أصرَّ على مصاحبتهم للجهاد، وأخبره أنه عارفٌ بالفروسية والرمي، حافظ للقرآن، عالم بسنةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه يريد أن يكونَ الشهيدَ ابن الشهيد!

وأخبرَ الفتى أَبا قدامة أن أمَّه ودعَته، وأنها طلبت منه أن يحرصَ على الشهاده، وأنْ لا يفرَّ من الكفارِ ولا يولِّيهم الأدبار، وأن يهب نفسه الله، ويطلب مجاورة أبيه وإخوانه وأخواله الشهداء..

تأثرَ أبو قدامة بما سمع وأصطحب معه الفتى الفارس. ولما اقتربوا من معسكر الروم حان وقت غروب الشمس، وكان المجاهدون صائمين، فتطوعَ الفتى الفارس بطبخ طعام إفطارهم.

ونام الفتى نومة، ونظر إليه أبو قدامة، فإذا هو يضحك أثناء نومه، فدعا أصحابه إلى أن ينظروا له وهو يضحك، متعجباً من ذلك.

فلما استيقظ الفتى الفارس سأله أبو قدامة وأصحابه عن سبب ضحكه أثناء نومه، فأخبرهم أنه رأى رؤيا في منامه أضحكته!

أخبرهم أنه رأى نفسه في روضة خضراء، وفي وسطها قصرٌ من ذهبٍ وفضه، وعليه ستورٌ مرخاة، وفي القصر جوارٍ وجوهُهن كالأقمار، ولما رأينه نزلن إليه ليرحِّبن به، فمدَّ يدَه لإحداهن، فقلن له: لا تتعجل. أنت زوجُ المَرْضِية، وهي في القصر!

فصعدَ إلى القصر فرأى جاريةً كأنها الشمس، وحُسنُها يبهرُ الأبصار، فرحَّبَت به، وأخبرَته أَنه لها وأَنها له، ولما مَدَّ يدهُ إليها قالت له: لا تتعجل، والميعادُ بيني وبينك غداً عند صلاة الظهر، فأبشِر.. فاستبشر الفتى الفارس وضحكَ فرحاً في نومه.

وفي الصباح وصلوا معسكر الروم، ونشبت المعركة عنيفة، وهجمَ الرومُ على المجاهدين، فتصدى لهم الفتى الفارس مع إخوانه المجاهدين، وحاربهم ببسالة، وقتل منهم كثيرين.. وطالت المعركة وقُتِلَ أُناس من الفريقين، وانتهت المعركةُ بانتصارِ المسلمين.

وراحَ أبو قتادة يبحثُ عن الفتى الفارس. فإذا به صَريعاً جريحاً، والدماءُ تنزفُ من جسمه، وقد علاهُ الغبار.

ولما أقبلَ عليه أَخبره أَن رؤياه قد صدقت، وأنَّ الحوريةَ التي رآها في المنام واقفةٌ على رأسه، تنتظر خروجَ روحه! وطالبَ الفتى أبا قدامة أنْ يأخذَ ملابسَه المضمخَةَ بدمائه لأمِّه، لتعلمَ أنه لم يضيع وصيتها. ثم نطـــق بالشـــهادتين، وأسلمَ روحه ولقيَ الله شهيداً. فكفنوه في ثيابه، ودفنوه في مكانه.

وعادَ أبو قدامة إلى الرّقّة، ومَرَّ من أمامِ بيت المرأة، أُمِّ الشهيد، فشاهدَ أُختَه الفتاةَ الصغيرةَ تقفُ على باب البيت تسألُ القادمين عن أخبارِ أخيها المجاهد. فاستأذن أن يكلمَ أُمَّها.

خرجَت أُمّها، ولما رأته قالت: أجئتَ مُعَزِّياَ أم مُبَشّراً يا أبا قدامة؟ قال لها: ما الفرقُ بين البشارةِ والتعزية؟

قالت: إنْ رجعَ ولدي سالماً معكم فأنت مُعَزٍّ، وإن قتلَ ولدي شهيداً في سبيل الله فأنت مُبَشِّر! قال لها: أبشـــري لقد قبل الله هديتك، ولقي ابنك الله شهيداً. ففرحت وقَالت: الحمدُ لله الذي جعله ذخيرةَ لي يوم القيامة!![١]

[١]انظر قصة أبي قدامة مع المرأة المتصدقة الصابرة مفصلة في الأصل :١:٢٨٥-٢٩٠.

الباب العاشر

في الترهيب من البخل بالإنفاق في سبيل الله

قال تعالى: (وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: ١٩٥].

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) : بترك النفقة في سبيل الله.

وقال ابن أبي حاتم : وروي نحو قول حذيفة في تفسير التهلكة عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير،. وأبي صالح، والضحاك، والسدي، ومقاتل بن حيان، وقتادة.

وقال القرطبي في تفسيره: قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعطاء وعكرمة ومجاهد وجمهور الناس: المعنى: ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة: بأن تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العيلة والفقر.. "[1].

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }٣٤{ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) [التوبة: ٣٤ -٣٥].

وقال تعالى: (هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) [محمد: ٣٨].

وقال تعالى:(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الحديد: ١٠].

---
[1] تفسير القرطبي: ٢/٣٦٢.

قال القرطبي: معناه: أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وأنتم تموتون، وتخلفون أموالكم، وهي صائرة إلى الله؟

فمعنى الآية التوبيخ على عدم الإنفاق. لأن ميراث السموات والأرض لله، فهما راجعان إلى الله، بانقراض ما فيهما، كرجوع الميراث إلى المستحق"[1].

٨٦ - روى أحمد عن عبد الله بن الصامت الغفاري قال: كنت مع أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، فخرج عطاؤه، ومعه جارية له. فجعلت تقضي حوائجه، ففضل معها سبعة دراهم، فأمرها أن تشتري بها فلوساً.

فقلت له: لو أخرته للحاجة تنوبك، أو للضيف يترل بك!

قال: إن خليلي صلى الله عليه وسلم عهد إليَّ أن "أَيَّما ذهب أو فضة أُوكيَ عليه، فهو جمرٌ على صاحبه، حتى يفرقَه في سبيل الله عز وجل"[2].

وقد تقدم الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ لم يَغْزُ أو يجهزْ غازياً، أو يخلف غازياً في أهلِه بخير، أصابهُ بقارعةٍ قبلَ يوم القيامة"[3].

وروى أبو داود والترمذي والحاكم عن أسلم بن يزيد التجيبي - أبو عمران - قال: غزوْنا من المدينة، نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم مُلْصِقو ظهورهم بحائط المدينة. فحمل رجل على العدو.

فقال الناس: مه، مه. لا إله إلا الله. يلقي بيده إلى التهلكة!

فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار: لما نصر الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم، وأظهر الإسلام، قلنا: هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها. فأنزل الله قوله: (وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

---

[1] المرجع السابق: ١٧/٢٣٩.
[2] مسند أحمد: ٥/ ١٥٦، وسنده حسن.
[3] سنن أبي داود: ٣/٢٢.

فالإلقاء بأيدينا إلى الهلكة، أن نقيم في أموالنا ونصلحها، وندع الجهاد.

قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله عز وجل، حتى دفن بالقسطنطينية" [١].

وروى البيهقي في السنن الكبرى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ): لا يقولن أحدكم: لا أجد شيئاً أنفقه، فإن لم يجد إلا مشقصاً فليجهز به في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة [٢].

والمشقص هو نصل السهم.

فصل

في أن الإنفاق في سبيل الله أفضل الطاعات

الإنفاق في سبيل الله من أعلى الطاعات، وأعظم القربات، وأجل الصدقات، ينفق المجاهد على نفسه وعلى دابته، وعلى غيره من المجاهدين، ويجعل نفقته ثمناً لسلاح أو مركوب، أو يجعلها مصروفاً لعيال المجاهدين مدة غيبة المجاهدين في الغزو.

ولا يجتهد الشيطان في منع شيءٍ من الإنفاق كاجتهاده في منع النفقة في سبيل الله، وذلك لما يعلم ما فيها من عظيم الأجر، وجزيل الثواب، ونيل الدرجات العلا في إخراجها، والوزر العظيم في البخل بها.

ويساعد الشيطان على ذلك شحُّ النفس، وعدم الاعتياد، وجهل ما في الإنفاق من الفضل الذي لا يحصى.

ولا سيَّما في زماننا هذا، الذي اندرست فيه معالم الجهاد، وعفت رسومه، وعدم وجوده في بلادنا، وندر الجهاد على الوجه المرضيِّ في غير بلادنا. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

[١] سنن أبي داود: ٣/٢٧. وسنن الترمذي: ٤/٢٨٠. ومستدرك الحاكم: ٢/٢٧٥، والحديث صحيح.
[٢] السنن الكبرى للبيهقي: ٩/٤٥.

فلا سبيل إلى إخراج شيء من النفقة في سبيل الله، إلاّ بتأييدٍ من الله القوي العزيز، على الشيطان اللعين، الـــذي يعد الفقر، ويأمرُ بالفحشاء. والله يقول: (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّــن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [سبأ: ٣٩].

وقد يقوى المجاهد على الشيطان في خروجه إلى الجهاد في سبيل الله، ولكنه لا يقوى عليه في الإنفاق في سبيل الله!

إن الشيطان يوسوس للمجاهد الخارج للجهاد، كي لا ينفق في سبيل الله، يقول له: إنك إذا رجعت من جهادك لا تجد مالاً، وقد تصاب بجراحٍ أو أمراض! فترجع فقيراً ليس معك شيء، ولا مال معك فاترك مالك إلى أن ترجع، واجتهد على توفير النفقة. وإنما يستجيب لهذه الوسوسة المجاهد الذي في نفسه حبُّ الرجوع إلى الـــدنيا، وكراهـــة القتل في سبيل الله!! ولو كان يصمم العزم على طلب الشهادة بصدق، لما فكَرَ في رجوعه، ولا في أحوالـــه بعـــد رجوعه!

ولهذا كان السلفُ يكسرون جفون سيوفهم ويلقوها عند لقاء العدو، لغلبة ظنِّهم أهم لا يرجعون، ولما اســـتولى على قلوبهم من حبِّ الشهادة، والشوق إلى لقاء الله، ورجاء الفوز العظيم بالقتل في سبيل الله!

وقد حكي عن بعض السلف أنه خرج للجهاد، حتى إذا تراءى الجمعان، وصفَّ الفريقان، جاء إليه الشـــيطان، فذكَره زوجته وحسنها وجمالها، وحبَّبَها إلى قلبه، وكرَّه إليه فراقها، وذكَّره سعة عيشه، وكثرة ماله.

فكاد يجبن عن اللقاء ويهمُّ بالفرار من الميدان. فأتاه التأييدُ من الله القويِّ المتين.

فقال لنفسه: يا نفس: إن فررت من الميدان فزوجتي طالق، وعبيدي وإمائي أحرار، وجميع ما أملكه صدقةٌ للفقراء والمساكين! أيطيبُ لك يا نفس عيشٌ بعد الفقر وفراق الزوجة؟

قالت نفسه: لا أحبُّ الرجوع!

قال لها: إذن تقدَّمي للجهاد!!

وقد يوسوس الشيطان للمجاهد، فيقول له: إنك ستقتل، وسيكون ولدك فقيراً من بعدك، وسيكون عيالك محتاجين، فاترك لهم مالك، ولا تنفقه، ويكفي بفقدهم لك مصيبة! وإنما يقبل هذه الوسوسة من لم يكن عنده ثقةٌ بالله، وعنده شكّ في الإيمان بكفالة الله رزق العباد وتدبير مصالحهم.

ويجب أن يعتقد المؤمن المجاهد أنه واسطة بين الله وبين أهله وعياله في وصول الرِّزق إليهم على يده، فهو لا يملك لهم ولا لنفسه مثقال ذرة، فلماذا يهتمُّ بأرزاقهم في حياته وبعد مماته؟

وقد نقل عن حاتم الأصم رحمه الله أنه أراد سفراً فقال لزوجته: كم يكفيك أنت وأولادك حتّى أقدّره لك قبل سفري؟

فقالت له زوجته المؤمنة: يا حاتم: والله ما عرفتك رزّاقاً، إنما عرفتك أكالاً، والرزّاق هو الله، فسر حيث شئت!

وقد كان السلف ينفقون الكثير في سبيل الله، ويتسابقون في ذلك.

٨٧ - روى الدارمي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أمَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ نتصدقَ في سبيل الله، فوافقَ ذلك مالاً عندي.

فقلت في نفسي: اليومَ أسبقُ أبا بكر!

فجئْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بنصْفِ مالي. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أبقيتَ لأهلك؟ قلت: أبقيتُ لهم مثْلَه!

فأتى أبو بكر الصديق بكلِّ ما عنده. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: ما أبقيتَ لأهلك؟ قال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه!! فقلت: لا أُسابقُك في شيء أبداً!! [1]

---

[1] سنن الدارمي: ١/٣٩١-٣٩٢ وأبو داود برقم :١٦٧٨، والترمذي برقم: ٣٦٧٥.

وهكذا كانت الصدِّيقة بنت الصديق أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تفعل. فقد بعث لها معاوية رضي الله عنه مبلغاً كبيراً من المال، فأنفقتها كلَّها في سبيل الله، ولم تبق منها درهماً.

فقالت لها خادمتها: لو تركت لنا درهماً نشتري به لحماً! قالت عائشة: لقد نسيت، ولو ذكَرتني لفعلت!! [١]

٨٨ - وروى البخاري ومسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ في ظلِّ الكعبة. فلما رآني قال: هم الأخسرون وربّ الكعبة.

فجئتُ حتى جلست، فلم أَتَقارَّ أن قمتُ، فقلتُ: يا رسول الله: فِداك أبي وأمي مَنْ هم؟ قال: هم الأكثرون أموالاً، إلاَّ مَن قال: هكذا وهكذا وهكذا. مِنْ بين يديه ومن خلفه وعن يمينِه وعن شماله، وقليلٌ ما هم! [٢].

٨٩ - وروى البزار عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "يا أبا ذر: ما أُحِبُّ أن لي أحُداً ذهباً وفضة، أنفقُه في سبيل الله، أموتُ يومَ أموت، أَدَعُ منه قيراطاً"[٣].

وعندما ينفق المؤمن ماله في سبيل الله، ويكون عظيم التوكل على الله والثقة به، واليقين بأنه هو الذي يتولى أولاده من بعده، فإن الله يتولاّهم ويرزقهم. وهذا ما حصل مع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

فلما حضرته الوفاة أحضر أبناءه، وكانوا أحد عشر ذكراً، وأمر أَن تعطى زوجته ما يخصُّها، والباقي يفرَّق على أبنائه. ولما حسبوا التركة كان نصيب كل واحد من أولاده ديناراً.

فقال مسلمة بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين: وماذا ينفعُ الدينار للواحد منهم؟ لو وكلت أمرهم إليَّ؟ فقال عمر: إن أبنائي أحدُ رجلين: إمّا صالحون، والله يتولّى الصالحين، وإمّا غير الحين، فلا أعينهم على معصية الله!

وقد أغنى الله الصالحين من أولاده، وجهَّزَ أحدهم مائةَ فرس على مائة فارسٍ في سبيل الله.

---

[١] الحاكم في المستدرك: ٤/ ١٣.
[٢] أخرجه البخاري برقم: ٦٦٣٨. ومسلم برقم: ٩٩٠.
[٣] مجمع الزوائد للهيثمي: ١٠/ ٢٣٩،والحديث صحيح.

والمقصود أن من وثق بوعد الله، وتحقق بالتوكل عليه، وأيقن أنّ الله سيخلف له فيما ينفقه لله، فلا يضرُه إنفاق جميع ماله في سبيل الله.

كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حيث أنفق كلّ ماله لله. وما أعظمها فعلةٌ عند الله، وما أجزل أجرها وثوابها، ولكنه لا يلقّاها إلا ذو حظ عظيم.

أمّا من كان ضعيف التوكل، واهي اليقين، فلا ينفق كل ماله في سبيل الله وليترك بعض ماله لعياله.

وهذا ما دلَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه:

٩٠ - روى البخاري ومسلم في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه أنه لما تاب الله عليه قال: "... يا رسولَ الله: إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي، صدقةَ إلى اللهِ وإلى رسوله.. فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أمْسِكْ عليك بعضَ مالكَ، فهو خيرٌ لك" [١].

٩١ - وروى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له:" إنك إن تَذَرَ ورثَتَك أَغنياء، خيرٌ مِن أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس " [٢].

وليس معنى هذا أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم استشعر من كعب بن مالك أو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ضعف التوكل واليقين، فنهاهما عن التصدق بكلِّ المال! لأنه لا يجوز أن نتوهم في الصحابة مثل هذا !!

وإنما أمرهما الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ليتأسّى ويقتدي بهما ضعفاء التوكُّل من بعدهم، خشية أن يقتدوا بالأقوياء من الصحابة، فيقعوا في الندم بعد الإنفاق فتنقص أجورُهم.

إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كالنجوم، بأيِّهم اقتدى المسلمون اهتدوا. فمن كان عنده ضعفٌ في اليقين والتوكل ، فلينفق بعض ماله، وليترك البعض اقتداءً بكعب بن مالك وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٤٤١٨. ومسلم برقم: ٢٧٦٩.
[٢] أخرجه البخاري برقم: ١٢٩٥. ومسلم برقم: ١٦٢٨.

ومن كان عنده قوة في اليقين والتوكل فلينفق كيف يشاء، ولو أنفق كلَّ ماله فهو مأجور، اقتــداءً بــأبي بكــر الصديق رضي الله عنه.

أمّا ترك الإنفاق في سبيل الله مع القدرة عليه، فهذا إلقاءٌ باليد إلى التهلكة، ولا يجوز أن يفعله المسلم، ولا رخصة فيه. الله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي عشر

في فضل تجهيز المجاهدين وخلفهم في أهلهم بخير

٩٢ - روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى ني لحيان من هذيل، فقال: "لينبعث من كل رجليْن أحدُهما، والأجْرُ بينهما" [١].

قال الإمام أبو بكر بن المنذر: وفي هذا الحديث دليلٌ على أنَّ فرض الجهاد على لكفاية، إذا قام به البعض سـقط عن الآخرين.

٩٣ - روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ال: "مَنْ جَهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومَن خلفَ غازياً في أهله بـخيرِ فقد غزا" [٢].

٩٤ - وروى الترمذي وابن ماجة عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ فَطَّرَ صائماً كان له مثلُ أَجره، لا ينقصُ من أجره شيء، ومَنْ جهزَ غازياً في بيل الله، كان له مثلُ أجره، لا يـنقصُ من أجرِ الغازي شيء" [٣].

٩٥ - وروى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَن جهـزَ ازيـاً في سبيل الله، فله مثلُ أجره، ومَن خلفَ غازياً في أهله بخير وأنفقَ على أهله، فله مثلُ أجره " [٤].

وينبغي لمن تجهَّزَ للغزو، فعاقه عنه مرضٌ أو غيره، أن يدفع ما تجَّهزَ به إلى غيره من الخارجين ليغزو به، لقوله صلى الله عليه وسلم: "مَن جهـزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا .. ".

---

[١] أخرجه مسلم برقم: ١٨٩٦.
[٢] أخرجه البخاري برقم : ٢٨٤٣. ومسلم برقم: ١٨٩٥.
[٣] سنن الترمذي: ٢/ ١٥١. وابن ماجة: ١/ ٥٥٥. والحديث صحيح.
[٤] مجمع الزوائد للهيثمي: / ٢٣٤. ورجاله رجال الصحيح.

٩٦ - وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَ فتى من أسلم قال : يا رسول الله: إني أريدُ الغزو، وليس معي ما أتجهزُ به! فقال صلى الله عليه وسلم: إيتِ فلاناً، فإنه قد كان تجهَّزَ فمرض. فأتاهُ فقال: إن رسولَ الله يقرئك السلام، ويقول: أعطني الذي تجهزْتَ به! فقال لامرأته: يا فلانة: أعطيهِ الذي تجهزْتُ به، ولا تحبسي عنه شيئاً! فـــو اللهِ لا تحبسين منه شيئاً فيبارك لك فيه " [1].

٩٧ - روى مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم: " حُرمةُ نساءِ المجاهدين على القاعدين كحرمةِ أُمهاتهم، وما من رجلٍ من القاعدين يخلفُ رجلاً من المجاهدين، فيخونُه فيهم، إلاّ وَقفَ له يوم القيامة، فيأخذُ من عمله ما شاء. فما ظنكم؟ " [2].

وفي هذا الحديث تغليظ إثم الذي يخون المجاهد في أهله، وتقرير حرمة نساء المجاهدين على القاعـــدين كحرمـــة أمهاتهم عليهم. قال أبو عبد الله الحليمي: وهذا - والله أعلم - لِعظمِ حق المجاهد على القاعد، لأن المجاهد ناب عـــن القاعد، وأسقط بجهاده فرض الخروج عنه، ووقاه بنفسه، فكيف يخونُه في أهله؟ إن خيانته في أهله أعظمُ من خيانـــة الجارِ في أهله " [3].

---

[1] أخرجه مسلم برقم: ١٨٩٤.
[2] أخرجه مسلم برقم: ١٨٩٧.
[3] كتاب المنهاج في شعب الإيمان للحليمي: ٢/ ٤٧٥.

الباب الثاني عشر

في فضل إعانة المجاهدين وخدمتهم وإمدادهم

٩٨ - روى أحمد وابن أبي شيبة والحاكم، عن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" مَن أَعانَ مجاهداً في سبيل الله، أو غازياً في عسرتِه، أو مكاتباً في رَقَبته، أظلهُ اللهُ في ظله، يوم لا ظلَّ إلا ظله ! [١]**.**

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لأن أُجهز سوطاً في سبيل الله أحبُّ إليَّ من حجةٍ بعد حجة الإسلام.

٩٩ - وروى الترمذي عن أبي أمامة الباهليِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أفضلُ الصدقات ظلُّ فسطاطٍ في سبيل الله، ومنحةُ خادمٍ في سبيل الله، أو طَروقةُ فحْلٍ في سبيل الله" [٢]**.**

ومعنى الحديث: الترغيبُ في إعانة المجاهد: إما بخيمة يستظل بها، أو بخادمٍ يساعده، أو بناقةٍ صالحةٍ للركوب يزيد عمرها عن ثلاث سنوات. فإن هذا هو أفضل الصدقات عند الله.

١٠٠ - وروى أبو داود والحكم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يغزو، فقال:" يا معشرَ المهاجرين والأنصار: إن من إخوانِكم قوماً ليسَ لهم مال ولا عشيرة، فليضُمَّ أحدُكم إليه الرجلين أو الثلاثة".

وما لأحَدنا من ظهرٍ يحملُه إلا عُقبَةٌ كعُقْبةِ أَحدكم، فَضَمَمْتُ إِليَّ اثنين أو ثلاثاً ،مالي إلا عُقْبَةٌ كعُقْبَة أحدهم من جَمَلي " [٣]**.**

---

[١] مسند أحمد: ٣/ ٤٨٧. والمصنف لابن أي شيبة: ٥/ ٣٥١. والحاكم: ٢: ٨٩، وإسناده حسن.
[٢] سنن الترمذي: ٣/ ٩١. واسناده حسن.
[٣] سنن أبي داود ٣/ ٤١. والمستدرك للحاكم: ٢/ ٩٥،والحديث صحيح.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: لأن أشيِّع رفقةً في سبيل الله، فأصلح لهم أحلاسهم، وأردَّ عليهم من دوابهم، أحبُّ إليَّ من عشرِ حججٍ بعدَ حجة الإسلامِ.

وقالَ بلال بن سعد: إنه رأى مَنْ رأى عامر بن عبد قيس رضي الله عنه مجاهداً بأرضِ الروم على بغلة، يركبها عُقْبَة، ويحملُ المجاهدينَ عليها عُقْبَة.

وكان عامرُ بن عبد قيس إذا خرجَ للغزو، يقفُ يتوسَّمُ بالمجاهدين، فإذا رأى رفقةً توافقه قال لهم: يا هؤلاء: إني أريد أن أصحبكم للجهاد، وأن أجاهد معكم، على أن تعطوني من أنفسكم ثلاث خصال! فيقولون: ما هي؟

فيقول: الأولى: أن أكون خادمكم، لا ينازعني أحدٌ منكم الخدمة!

والثانية: أن أكونَ مؤذناً لكم، لا ينازعُني أحدٌ منكم الأذان!

والثالثة: أنْ أنفقَ عليكم بقدرِ طاقتي [1].

وهكذا كان السلف رضي الله عنهم: إذا خرج أحدهم للجهاد، يجتهد أن يكون خادم رفقائه، وأن يدخل عليهم من السرور ما قدر عليه، وأن ينفق عليهم ما وجد السبيل إليه، وأن يؤثرهم على نفسه إذا لم يجد سعةً بما يقدر عليه، احتساباً لذلك عند الله، وابتغاءً لمرضاته، ورغبةً في ثوابه.

عن أبي الجهم بن حذيفة العدوي قال: انطلقتُ يوم اليرموك أطلبُ ابن عمي، ومعي شَنَةٌ من ماء. فقلت: إن كان به رمق سقيتُه من الماء، ومسحتُ به وجهه، فإذا أنا به يشهق، فقلتُ له: أَسقيك. فأشار: أي نعم. فإذا رجلٌ يقول: آه.

فأشارَ ابنُ عمي أنْ أنطلقَ إليه، فإذا هو هشامُ بن العاص أخو عمرو بن العاص رضي الله عنهما. فأتيتُه فقلت: أَسقيك؟ فسمعَ آخر يقول: آه. فأشارَ هشام أن أنطلقَ إليه. فجئتُه، فإذا هو قد مات! ثم رجعْتُ إلى هشام، فإذا هو قد مات!! ثم أتيتُ ابنَ عمي، فإذا هو قد مات!!!. رحمهم الله جميعاً" [2].

---

[1] كتاب الجهاد لابن المبارك: ٢/ ١٧٨-١٧٩.

[2] المستدرك للحاكم: ٢/ ٩٨، وإسناده حسن.

وانظرْ رحمك الله إلى إيثارهم في هذه الحال، وإلى جودهم بما قد اشتَدَّت حاجتهم إليه، وسماحةِ أنفسهم بالماءِ الذي هو عديلُ وقرينُ حياتها. وبذلك استحقوا رضوانَ الله.

فـــصل

في تشييع المجاهدين وتوديعهم

١٠١ - روى الحاكم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جهـــزَ جيشـــاً، فمشى معهم إلى بقيعِ الغرقد، حين وجَّههم. ثم قال: "انطلقوا على اسمِ الله، اللهمَّ أعِنهُم" [١].

وخَرَّج ابن عساكر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعث جيوشاً إلى الشام، فخرج يمشي مـــع يزيـــد بـــن أبي سفيان - وكان أمير ربعِ من تلك الأرباع - رضي الله عنه.

فقال يزيد لأي بكر: إما أن تركب،وإما أن أنزل!

فقال له أبو بكر: ما أنت بنازل، وما أنا براكب، إني أحتسبُ خُطايَ هذه في سبيل الله !

١٠٢ - وروى البيهقي عن مجاهد قال: خرجت إلى الغزو فشيَّعنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فلمـــا أراد فراقنا قال: إنه ليس معي ما أُعطيكُماه، ولكني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن اللهَ إذا إســـتُودِعَ شيئاً حفظه ". وأنا استودعُ اللهَ في ينَكما وأمانتكما وخواتيمَ أعمالكما"[٢].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن الرجل ليقول لصاحبه: انطلق بنا نشيعّ فلاناً الغازي ساعة. فيقول الله: طـــوبى للقائل والمقولِ له.

وكما يُشَيَّعُ الغازي كذلك يتلقّاه المشيّعون عند عودته:

---

[١] المستدرك للحاكم: ٢/ ٩٨، وإسناده حسن.
[٢] السنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ١٧٣، والحديث صحيح.

١٠٣ - روى البخاري عن السائب بن يزيد رضي الله عنه: قال ذهبنا نتلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصبيانِ إلى ثَنيةِ الوداع، مَقدَمِه من غزوة تبوك" [١]**.**

[١] أخرجه البخاري برقم: ٣٠٨٣.

الباب الثالث عشر

في فضل الخيل واحتباسها بنية الجهاد والإنفاق عليها

قال الله تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ) [الأنفال: ٦٠].

وقال تعالى: (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) [العاديات: ١ - ٥].

ذهب ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم إلى أن القسم بالعاديات هو قسمٌ بالخيل التي يغزو المجاهدون عليها، ويغيرون بها على العدو.

واعلم أنَّ للخيل المعدةِ للجهاد فضائل عظيمة:

أولاً: من ربط منها شيئا بنية الجهاد، كان شبعها وجوعها وريُّها وظمؤُها وبولها وروثها، وعدد ما تأكله وتشربه وتخطوه، حسناتٍ في ميزانه يوم القيامة.

١٠٤ - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن احتبسَ فَرَساً في سبيل الله، إيماناً به، وتصديقاً بوعده، فإنَّ شبَعَه، وريَّه، وروثَه، وبولَه، في ميزانِه يوم القيامة"[1].

١٠٥ - وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الخيلُ ثلاثة: هي لرجلٍ وزر، وهي لرجل سِتر، وهي لرجلٍ أجر: فأمَّا التي هي له وِزْر، فرجلٌ ربطَها رياءً وفخراً وَنِوَاءً لأهلِ الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له سِتر، فرجلٌ ربطَها في سبيل الله، ثم لم ينسَ حقَّ اللهِ في ظهورها ولا رقابها، فهي لهُ ستر.

[1] أخرجه البخاري برقم: ٢٨٥٣.

وأمّا التي هي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام، في مَرْج أو روضة.. فما أكلَت من ذلك المرجِ أو الروضة من شيء، إلا كُتِبَ له عددُ ما أكلت حسنات، وكُتِبَ له عددُ أرواثِها وأبوالها حسنات، ولا تَقطَعُ طِوَلَهـا فاستنَّت شَرَفاً أو شَرَفين، إلاّ كُتِبَ له عددُ آثارِها وأرواثهـا حسنات، ولا مَرَّ بها صاحبُها على نهرٍ فشربت منه ولا يُريدُ أن يسقيها، الاّ كتبَ اللهُ له عددَ ما شربت حسنات " [1].

معنى: نِواءً: معاداةً لأهلِ الإسلام.

ومعنى: اسْتنتْ: جَرَتْ بقوة وسرعة.

ومعنى: الشَّرَف: الشَوْط.

ودلَّ قولُه:" ولا مرَّ بها صاحبُها على نهر فشربت منه، ولا يريد أن يسقيها... " على أن صاحب الخيـل يـؤجر ويثاب على كلِّ ما غيبت في بطنِها من ماء أو أكل، وإن لم يقصد ذلك ولم ينوه، فكيف يكون أجره فيما يقصـده ويحتسبه عند الله؟!

ثانياً: من احتبس فرساً في سبيل الله، كانت له سترةً من النار يوم القيامة.

ثالثاً: من ربط فرساً في سبيل الله كان من الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية، ولهم أجرهم عنـد ربهم.

رابعاً: المنفق على الخيل كالذي يبسط يده بالصدقةِ لا يقبضُها.

١٥٦ - روى الحاكم والطبراني وأبو عوانة عن أبي كبشة الأنماريِّ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الخيرُ معقودٌ في نواصي الخيل، وأهلُها مُعانون عليها، والمنفِقُ عليها كالباسِط يدهِ بالصدقة" [2].

خامساً: يمدُّ الله أهل الخيل بالمعونة لإنفاقهم عليها وخدمتهم لها.

---

[1] أخرجه البخاري برقم: ٢٣٧١. ومسلم برقم: ٩٨٧.
[2] مسند أبي عوانة: ٥/ ١٩. والمستدرك للحاكم: ٢/ ٩١. وموارد الظمآن ص: ٣٩٤، والحديث صحيح.

١٠٧ - روى أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ والنيلُ إلى يوم القيامة، وأهلُها مُعانون عليها، فامسحوا بنواصيها، وادْعُوا لها بالبركة" [١].

سادساً: خيرُ الدنيا والآخرة معقودٌ في نواصي الخيلِ إلى يوم القيامة. ونظراً لغلبةِ الخير على الخيل وملازمته لها سَمَّت العربُ الخيلَ خيراً.

١٠٨ - روى مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَلوي ناصيةَ فرسِه بأُصبعه وهو يقول: "الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجرُ والغنيمة" [٢].

١٠٩ - وروى البخاري ومسلم عن عروة البارقي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير: الأجرُ والمغنم، إلى يومِ القيامة" [٣].

قالى شبيب بن غرقدة - راوي الحديث عن عروة البارقي -: لقد رأيت في دار عروة رضي الله عنه سبعينَ فرساً معدَّةً للجهادِ في سبيل الله.

وقد روي ذلك الحديث عن جماعةٍ من الصحابة، يرفعونه للرسول صلى الله عليه وسلم: جرير البجلي، وعروة البارقي، وعبد الله بن عمر، وعليٌّ بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، وأبو أمامة الباهلي، والمغيرة بن شعبة، وسوادة بن الربيع، وسلمة بن نفيل، وعتبة بن عبد السلمي، رضي الله عنهم.

سابعاً: كانت الخيل أحبَّ الأشياء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء.

١١٠ - روى النسائي عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: لم يكن شيءٌ أحبَّ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بعد النساءِ من الخيل" [٤].

---

[١] مسند أحمد: ٣/ ٣٥٢، وإسناده حسن.
[٢] أخرجه مسلم برقم: ١٨٧٢ .
[٣] أخرجه البخاري برقم: ٢٨٥٠. ومسلم برقم:١٨٧٣
[٤] المجتبى للنسائي: ٦/ ٢١٨، ورجاله ثقات.

ويسن لكل مسلم أن يحبَّ الخيل سواء كانت له أو لغيره، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ثامناً: الخيل تدعو الله أن يحببها إلى صاحبها. ولا يستغرب أحدٌ من هذا، فإنها تدعو الله بطريقتها الخاصة، وهي تتميز على غيرها من الحيوانات المركوبة بمزيد إدراكٍ وفهم، وسرعةِ قبول للتهذيب.

١١١ - روى النسائي وأحمد والحاكم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما مِن فرسٍ عربي، إلاّ يُؤْذَنُ له عند كل سحَرٍ، بكلماتٍ يدعو بهن: اللهم خَوَّلتني مَن خَوَّلتَني من بني آدم وجعلتَني له ، اللهمَّ فاجعلني أحبُّ أهلِه ومالِه إليه" [١].

وروى ابن المبارك عن السدي قال: خرج عمرو بن عتبة بن فرقد للجهاد، فاشترى فرساً بأربعة آلاف دينار! فلاموه وعنفوه، لأن ثمنه مرتفع.

فقال لهم: ما من خطوةٍ يخطوها إلى عدو إلاّ هي أحبُّ إلي من أربعة آلاف!![٢].

وعمرو بن عتبة هذا هو: الكوفيُّ الزاهد الجليل، من كبار التابعين ومجاهديهم وشهدائهم، حيث استشهد في أحد المعارك.

وكان إذا خرج في غزوةٍ اشترط على أصحابه أن يكون خادمهم. وقال الأعمش: قال عمرو بن عتبة بن فرقد: سألت الله أن يزهِّدني في الدنيا فزهَّدني، فما أُبالي ما أقبل منها: ما أدبر! وسألته أن يُقوّيني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة، فأنا أرجوها..

قال عبد الرحمن بن يزيد: خرجنا في جيشٍ للجهاد، وخرج معنا عمرو بن عتبة، وعليه جبةٌ جديدةٌ بيضاء.

فقال: ما أحسن الدم ينحدر على هذه الجبة؟

فلما نشب القتال أصابه حجرٌ من الأعداء، فشجَّه، وانحدر دمه على جبته، فلقي الله شهيداً..

---

[١] سنن النسائي: ٦ /٢٢٣. وأحمد: ١٧٠/٥. والحاكم: ٢/ ٩٢. والحديث صحيح.
[٢] الجهاد لابن المبارك: ٢/ ١٣٤-١٣٥.

تاسعاً: من ربط فرساً في سبيل الله فهو مأجور، لأنه امتثل أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

أمر الله في قوله تعالى:(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّــهِ وَعَــدُوَّكُمْ) [الأنفال: ٦٠].

١١٢ - وأمْرُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم .. في ما رواه أبو داود والنسائي، عن أبي وهب الجُمَحِّي رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ارتبطوا الخيل، وامْسَحوا بنواصيها وأعجازِهــا، وقلــدوها ، ولا تقلِّدوها الأوتار" [1].

قيل: إنما نهى عن تقليدها الأوتار لئلا تختنق بها. وقيل: كانوا يُعَلِّقونَ الأوتار بها منعاً للعين، ويعتبرونهــا تمــائم، فنهــاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

فــصل

في أسماء أفراس رسول الله صلى الله عليه وسلم

أسماء أفراس رسول الله صلى الله عليه وسلم:

الأول: السَّكْب: وكان أغرَّ محجّلاً، طلْقَ اليد اليمنى، كُمَيتاً. وهو أول فرسٍ ملكه رسول الله صــلى الله عليــه وسلم، اشتراه من أعرابي بعشرة أواق، وأول ما غزا عليه غزوة أُحد.

ومعنى السَّكْبِ كثيرِ الجري، فكأنه يسكب الجري سكباً.

الثاني: المرْتجز: سمِّي بذلك لحسن صهيله، وكأنه ينشد رجزاً.

الثالث: اللَّحَيف: كأنه يلحفُ الأرض بذنبه، أهداه له فروة بن عمرو الجذامي.

---

[1] سنن أبي داود: ٣/ ٥٣. والمجتبى للنسائي: ٦/ ٢١٨، والحديث حسن.

الرابع: اللَّزّازُ: من قولهم: لازَزْتُه. إذا لاصقته. كأنه يلتزق بالمطلوب لسرعته. أهداه له المقوقس.

الخامس: الظَّرِب: سمي بذلك لقوته وصلابته، وقيل: لكبرِهِ وسمنِه. أهداهُ له فروة بن عمرو والجذامي أيضاً.

السادس: الوَرْد: والورْد لون بين الكُمَيْت والأشقر. أَهداه له تميم الداري. فأعطاه عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه.

السابع: سَبْحَة: من قولهم: فرس سابح. إذا كان حسن مدِّ اليدين في الجري. وسَبْحُ الفرس جرْيُه.

وهذه الأفراسُ السبعة متفقٌ عليها عند العلماء. والذي كان يمتطيه صلى الله عليه وسلم هو الأول: " السَّكْب!.

واختلف العلماء في غيره هذه السبعة:

فقيل: له فرس أبلق. وفرس إسمه: ذو العُقَّال. وآخر اسمه: ذو اللَّمَّة. وآخر اسمه: المرتَجِل. والمُراوح. والسَّرْحان. واليَعْسوب. واليَعْبوب. و ا لَمَنْدوب. والبحر. والنَّجيب.

وهذه كلُّها مختلفٌ فيها.

ومن فوائد هذا الفصل: الاقتداءُ بالنبي صلى الله عليه وسلم في إطلاق الأسماء على الخيل.

وكان للرسول صلى الله عليه وسلم بغلَة، اسمها: دُلدُل. وأُخْرى اسمها: فِضّة. وثالثة شَهباء أهداها له صـــاحبُ أَيْلة - العقبة - ورابعة أهداها له صاحبُ دومة الجندل.

الباب الرابع عشر

في فضل خدمة الخيل وإكرامها

كان تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أميراً على بيت المقدس، فدخل عليه روح بن زنباع يزوره، فوجده يُنَقّي الشعيرَ لفرسه، وحوله أهلُه وأولاده وخدمه. وذلك إكراماً من الأميرِ لفرسه.

ويُكره قَص نواصي الخيل، لأنه معقودٌ فيها الخيرُ والبركة.

١١٣ - روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البركةُ في نواصي الخيل " [1].

١١٤ -وروى الدارمي عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن رجلاً قال يا رسول الله: إني أريد أن أشتري فرساً، فأيُّها أشتري؟ فقال صلى الله عليه وسلم: اشتَر أَدْهَمَ أَرْثَمَ مُحَجَّلَ مُطلَقَ اليدِ اليمنى، أو من الكُمَيْت على هذه الشّـــيَة تَغْنَمُ وتَسْلَمُ" [2].

و الأدهم :والأسود.

والأرثم: الذي يكون في شفته العليا بياض.

والمحجّل: الذي يكون على يديه ورجليه بياض.

وطلق اليد اليمنى: التي لا يكون فيها تحجيل.

والكميت: هو ما كان غير أشقرِ ولا أسود، وإنما يخالطُ حمرتَه سواد.

---

[1] أخرجه البخاري برقم: ٢٨٥١. ومسلم برقم: ١٨٧٤.

[2] أخرجه الدارمي في سننه: ٢/ ٢١٢، والحديث صحيح.

والشية: هي العلامة.

١١٥ - وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يُمْنُ الخيلِ في شُقْرِها" [١].

١١٦ - وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يكرَهُ الشّكالَ من الخيل "[٢].

والشِّكالُ: أن يكون بياضٌ في رجل الفرس اليمنى ويده اليسرى، أو في رجله اليسرى ويده اليمنى!!

---

[١] سنن أبي داود: ٣/ ٤٨. وسنن الترمذي: ٣/١٢٠. والحديث صحيح.
[٢] أخرجه مسلم:١٨٧٥.

الباب الخامس عشر

في فضل عمل المجاهد والمرابط من الصوم والصلاة

١١٧ - روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من عبدٍ يصومُ يوماً في سبيل الله إلاّ باعَدَ اللهُ بذلك اليوم وجْهَهُ عن النار سبعين خريفاً"[١].

وكان كثيرٌ من السلف يصومون في الجهاد، ويقاتلون ولا يفطرون، احتساباً لذلك عند الله، وطلباً لمرضاته، ورغبة في جزيل ثوابه.

ومن الأمثلة على ذلك.

الأول: الصحابيُّ عبد الله بن مخرمة رضي الله عنه: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: توافقتُ أنا وعبد الله بن مخرمة وسالم مولى أبي حذيفة عام اليمامة. وكان الرعي على كلّ امرىءٍ منّا يوماً. ولما كان يوم المعركة كان الرعي عليَّ.

فأقبلت إلى الميدان، فوجدت عبد الله بن مخرمة صريعاً، فوقفت عليه وبه رمق، وكان صائماً. فلما رآني قال : هل أفطرَ الصائم؟ قلت: لا. قال: فاجعل لي في هذا المجنّ - الإناء - ماءً، لعلي أفطر عند مغيب الشمس! ففعلت. ثم رجعت إليه فوجدته قد مات ! [٢]

الثاني: الفتى المجاهد خاطب العيناء: قال ثابت البُناني: جاهد فتى من الفتيان زماناً، وتعرّضَ للشهادة، وتمناها، لكنه لم يُصِبها. فحدَّثَ نفسه قائلاً: لقد طلبت الشهادة فلم أُصِبْها، ولو رجعت إلى أهلي فسوف أتزوج! وحان وقت القيلولة، فقال هذا الفتى في الفُسطاط ليريحَ جسمه.

ولما حان وقت صلاة الظهر أيقظه أصحابه من قيلولته ليصلي معهم. ولّما استيقظ صار يبكي. فخاف أصحابه أن يكون قد أصابه شيء، فأشفقوا عليه.

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٢٨٤٠. ومسلم برقم: ١١٥٣.
[٢] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/ ٣١٦.

فقال لهم: إنه ليس بي بأس، ولا أبكي إلا أنه أتاني آت وأنا في النوم فقال لي: انطلق إلى زوجتك العيناء!!

فقمت معه، فانطلق بي، في أرضٍ بيضاء نقية، فأتينا على روضة، ما رأيتُ قط روضةً أحسن منها!!

فإذا فيها عشر جوارٍ ، ما رأيت قط أحسن منهن، فرجوتُ أن تكون العيناءُ إحداهن. فقلت: أفيكُنَّ العيناء؟ قلن: هي بين أيدينا، ونحن جواريها!

فمضيتُ مع صاحبي، فإذا روضةٌ أخرى، يضعف حسنها على حسن التي قبلها، فيها عشرون جارية، يضاعف حسنهن على حسن الجواري العشرِ اللائي خلَّفت، فرجوتُ أن تكونَ إحداهن. فقلت: أفيكن العيناء؟! قلن: هي بين أيدينا، ونحن جواريها.. حتى ذكر ثلاثين جارية! ثم انتهيتُ إلى قبةٍ من ياقوتةٍ حمراء مجوَّفة، قد أضاء لها ما حولها! فقال لي صاحبي: ادخُل.

فدخلت: فإذا امرأة ليس للقبةِ معها ضوء. فجلست فتحدثت ساعة. فجعلتْ تحدثُني!

فقال صاحبي: اخرج انطلق. ولا أستطيع أن أعصيه. فقمتُ.. فأخذت الجارية بطرفِ ردائي. فقالت: أفطر عندنا الليلة.. فلما أيقظتموني رأيت إنما هو حلم، فبكيت... فلم يلبثوا أن نودي في الخيل، فركب الناس الخيل، ونشبت المعركة، وما زالوا يقاتلون الأعداء حتى غابت الشمس. ولما غابت الشمس وحلَّ للصائم الإفطار، أُصيبَ ذلك الفتى الصائمُ المجاهد، ولقي الله شهيداً[1].

إن عبادة المجاهد في سبيل الله مضاعفة إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثرة، سواء كانت هذه العبادة صياماً أو صلاة أو قراءةً للقرآن، أو ذكراً أو تسبيحاً واستغفاراً لله!

[1] الجهاد لعبد الله بن المبارك: ٢: ١٤٤- ١٤٥.

الباب السادس عشر

في فضل الرباط في سبيل الله

قال الله تعالى: (فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) [التوبة: ٥].

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آل عمران: ٢٠٠].

روى ابن جرير الطبري في تفسيره عن الحسن البصري أنه قال في معنى الآية: (اصْبِرُواْ وَصَابِرُوا ...) أُمروا أن يصابروا الكفار، حتى يملَّ الكفار دينهم.

وقال محمد بن كعب القرظي في الآية: رابطوا عدوّي وعدوكم، حتى يترك دينه لدينكم.." [1].

وقال الأزهري في " تهذيب اللغة " عن الرباط: في قوله تعالى: (وَرَابِطُوا) قولان: أحدهما: أقيموا على جهاد عدوِّكم بالحرب، وارتباط الخيل.

والثاني: المحافظة على الأعمال الصالحة والمداومة عليها.

١١٨ - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ألا أدلكُم على ما يمحو الله به الخطايا ويَرفعُ به الدرجات؟ قالوا: بلى: يا رسول الله.

قال صلى الله عليه وسلم : إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطى إلى المساجد، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاة فذلك الرباط " [2].

---

[1] تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر: ٧/ ٥٢.
[2] أخرجه مسلم برقم: ٢٥١.

فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأعمال الصالحة مثل مرابطة الخيل لجهاد أعداء الله. ونقل القرطبيُّ عن المفسّر ابن عطية قوله: القول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله. أصلها من ربط الخيل. ثم سُميَ كلُّ ملازم لأيِّ ثغرِ من ثغور المسلمين مرابطاً، سواء كان فارساً أو راجلاً " [١].

وقال ابن قتيبة: المرابطة: مفاعلة تدلُّ على المشاركة، وذلك بأن يرابط المسلمون خيولهم، ويرابط الكافرون خيولهم، في ثغر من الثغور، كلٌّ يعدُّ العدة لقتال خصمه.

ولذلك سميت الإقامة في الثغر رباطاً.

ونقل ابن رشد في كتابه " المقدمات " عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: فرض الله الجهاد لسفك دماء المشركين، وفرض الرباط لحقن دماءِ المسلمين، وحقنُ دماء المسلمين أحبُّ إليَّ مِن سَفك دماءِ المشركين " [٢].

واعلم أنَّ الرباط أحد شعب الإيمان، وموجبات الغفران.

وقد ورد في فضله أشياء عظيمة لا توجد في غيره من القربات. ومن فضائل الرباط:

أولاً: رباط يومِ خيرٌ من الدنيا وما عليها: ١١٩ - روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " رِباطُ يومٍ في سبيلِ الله خيرٌ من الدنيا وما عليها. وموضعُ سوطِ أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها " [٣].

قيل: إنه على ظاهره. أي هذه الطاعةُ خيرٌ من كل الدنيا وما عليها.

وقيل: المعنى: هذه الطاعة خيرٌ من الدنيا وما عليها، لو استطاعَ مسلم أنْ يتملَّكها وينفقها في سبيل الله، وهذا مستحيل. ورجح كثيرٌ من العلماء هذا القول [٤].

---

[١] تفسير القرطبي: ٤/ ٣٢٣.
[٢] المقدمات لابن رشد: ١ / ٢٧٥.
[٣] أخرجه البخاري برقم: ٢٨٩٢.
[٤] شرح مسلم للنووي : ١٣/٣٦-٢٧.

وقيل: هذا من باب تتريل المغيَّب مترلة المحسوس المحقَّق، تحقيقاً له، وتثبيتاً في النفوس. فإن تملُّكَ الدنيا ولذاتها محسوس، وثواب اليوم الواحد في الرباط من المغيبات، وهو خيرٌ من المحسوس الذي عهده الناس في الدنيا. ورجح هذا القول ابن دقيق العيد [١].

ثانياً: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، ورباط شهرٍ خيرٌ من صيام دهر:

١٢٠ - روى مسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رِباطُ يوم وليلةٍ خيز من صيام شهرٍ وقيامِه، وإن ماتَ فيه جرى عليه عملُه الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقُه، وأمِنَ الفُتَّان " [٢].

والفُتان جمع فاتن.

١٢١ - روى الطبرانيُّ عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" رباطُ شهرٍ خير من صيام دهر، ومَن ماتَ مرابطاً في سبيل الله أمِنَ من الفزع الأكبَر. وغُدِيَ عليه ورِيحَ برزقهِ من الجَنة، ويَجري عليه أجْرُ المرابط حتى يَبعَثهُ اللهُ عز وجل " [٣].

ثالثاً: ينقطعُ عملُ الميت إذا مات، إلاّ المرابط، فإنه إذا ماتَ في رباطه يَجري عليه أجرُ عمله الصالح من الرباط وغيره إلى يوم القيامة..

١٢٢ - روى أبو داود والترمذي والحاكم عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" كلّ ميتٍ يُختَمُ على عملِهِ الا المرابطُ في سبيل الله، فإنه ُينمى له عملُه إلى يوم القيامة، ويُؤمَنُ من فتنةِ القبر" [٤].

وهذا يدلُّ على أن الرباط أفضلُ الأعمال التي يبقى ثوابُها بعد الموت.

[١] العدة لابن دقيق العيد: ٤/٥٠٤-٥٠٥.
[٢] أخرجه مسلم برقم : ١٩١٣.
[٣] مجمع الزوائد للهيثمي: ٢٩٠/٥، والحديث صحيح.
[٤] سنن أبي دا ود: ٣/ ٢٠. والترمذي: ٣/ ٩٨. والحاكم: ٢/١٤٤، والحديث صحيح.

وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعمالٍ أخرى يبقى ثوابها بعد موت صاحبها:

١٢٣ - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عمله إلاّ من ثلاث: صدقةِ جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له " [١].

وإن الصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والولدَ الصالح الذي يدعو لأبويه، ثوابها ينقطع بنفادها، ينقطع بنفاد الصدقةِ الجارية، وذهابِ العلم، وموتِ الولد. أما الرباطُ فإنه يضاعَفُ أجره إلى يوم القيامة، لأنه لا معنى للنَّماءِ إلاّ المضاعفة، وهي في الرباط غير موقوفة على سبب، حتى تنقطع بانقطاعه، وإنما هي فضل دائم من الله إلى يوم القيامة.

وذلك لأن أعمال البرِّ كلَّها، لا يتمكنُ الإنسان منها إلا بالسلامةِ من العدو، والتحرز منهم بحراسة بيضة الدين، وإقامة شعائر الإسلام، ولا يتحقق إلاّ بالرباط والجهاد [٢].

١٢٤ - وروى أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أربعةٌ تَجري عليهم أُجورُهم بعد الموت: مرابط في سبيل الله، ومَن عملَ عملاً ً أُجري له مثْلُ ما عمل، ورجل تصدقَ بصدقة فأَجْرُها له ما جَرت ، ورجل تركَ ولداً صالحاَ فهو يدعو له "[٣].

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: ما مِن رجل تخرج روحه إلا رأى مترله قبل أن تخرج روحه، إلا المرابطة، فإنه يجري عليه أجرُها، ما كان هناك رباط.

وكلام عبادة صواب، فإن الميت ينتهي عمله مع آخر نفسٍ من حياته، فيرى مترله إما إلى جنة وإما إلى نار.

والمرابط لا يرى مترلته عند الله، لأنه لا ينتهي عمله بانتهاء حياته، وإنما يتضاعف ويتزايد أجره إلى يوم القيامة، ولا يعلم ما ينتهي إليه أجره، وتبلغه مترلته، إلا الله.

والمرابط عند الموت يرى ما يستبشر به ويسرُّه، يرى مترلته في عروجٍ وصعوب أبداً، لا تبلغ نهايتها إلى يوم القيامة !!.

---

[١] أخرجه مسلم برقم : ١٦٣١.
[٢] تفسير القرطبي : ٤/ ٣٢٥
[٣] مسند أحمد : ٢٦١،٢٦٩/٥، والحديث حسن.

رابعاً: إذا مات المرابط في رباطه بعثه الله آمناً من الفزع الأكبر يوم القيامة. ١٢٥ - روى ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَنْ ماتَ مرابطاً في سبيلِ الله، أجريَ عليه أجرُ عملِه الصالح الذي كان يعمل، وأجريَ عليه رزْقُه، وأمِنَ من الفُتّان، وبعثه اللهُ يوم القيامة آمِناً من الفزع الأكبر"[1].

خامساً: إذا مات المرابط في رباطه بعثه الله يوم القيامة شهيداً.

١٢٦ - روى ابن ماجة وعبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَن ماتَ مرابطاً ماتَ شهيداً، ووُقيَ فَتانَ القبر، وغدِيَ عليه وريحَ برزقه من الجنة، وجَرى له عملُه " [2].

ويبعث الله المرابط الذي مات في الرباط شهيداً، لأنه هو الذي طلب الشهادة وتوجَّه إليها بصدق، ولكن لم يقدَّر له أن يموت في الدنيا شهيداً، فيبعثه يوم القيامة شهيداً.

وهذه هي سنة الله في عباده الصالحين، أن من توجَّه بصدقٍ إلى شيء من القربات والطاعات، فمنعه منها القدر الإلهي، مع شدة حرصه، وتصميم قصده، فإن الله يُعطيه يوم القيامة أجر تلك العبادة، تفضلاً وكرماً واحساناً منه له، بسبب حسن قصده، وإخلاص نيته، وصدق طويَّتِه.

من ذلك أن من خرج مجاهداً فمات في الطريق كان شهيداً. ومن أحرم بالحج فمات قبل أداء المناسك كتب حاجاً. ومن نوى أن يقوم بالليل ليصلي التهجد، فغلبته عينه فنام، كتب له ما نوى من التهجد، وكان نومه صدقةً عليه من ربِّه. ومن توجّه لصلاة الجماعة بصدق، فوجد الناس قد صلّوا، أعطاه الله مثل أجر من صلى الجماعة. والمرابط إنما رابط توقعاً للشهادة، وتعرُّضاً وطلباً لها، وقد حرص عليها، وبذل نفسه لها، ولكنه لم يستشهد في الميدان، فلا غرابة في أن يبعثه الله يوم القيامة شهيداً، ويعطيه أجر الشهداء!

سادسا: للمرابط في سبيل الله أجر من خلفه من ورائه:

١٢٧ - روى الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الرباط؟ فقال:" مَن رابطَ ليلَةَ حارساً مِن ورا، المسلمين، كان له أجرُ مَن خَلفَه ممنْ صام

[1] سنن ابن ماجة: ٢/٩٢٤، الحديث صحيح.
[2] سنن ابن ماجة: ١/ ٥١٦. ومصنف عبد الرزاق: ٢٨٣/٥، الحديث صحيح.

وصلى" [١].

وقال إبراهيم اليماني: قدمت من اليمن، فأتيت سفيان الثوري ، فقلت: يا أبا عبد الله: إنّي جعلت في نفسي أن أنزل جدَّة، فأرابط بها كل سنة، وأعتمر في كل شهر عمرة، وأحجَّ في كل سنة حجة، وأكون قريباً من أهلي! أهذا أحبُّ إليك أم آتي الشام؟

فقال لي: يا أخا اليمن : عليك بسواحل الشام، عليك بسواحل الشام! فإن هذا البيت يحجُّه في كل عام مائة ألف ومائة ألف، وثلاثمائة ألف، وما شاء الله من التضعيف، ولك مثل حجِّهم وعمرهم ومناسكهم.

وقال عثمان بن أبي سودة: كنا مع أبي هريرة رضي الله عنه مرابطين في " يافا " على ساحل البحر - وهي مدينة معروفة في فلسطين.

فقال أبو هريرة: رباط هذه الليلة هنا، أحبُّ إليَّ من قيام ليلةِ القدر في بيت المقدس!

سابعاً: رباط يومٍ في سبيل الله خيرٌ من ألف يومٍ فيما سواه من المنازل:

١٢٨ - روى الترمذي والنسائي وابن أبي شيبة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من ألفِ يوم فيما سواه من المنازل" [٢].

وفي هذا الحديث دليل واضح على أن إقامة المرابط يوماً واحداً بأرض الرباط على الثغور، أفضل من الإقامة ألف يومٍ فيما سواه من المنازل، ولو كانت مكة أو المدينة أو بيت المقدس!

ولهذا خرج من مكة والمدينة الصحابة والتابعون للجهاد في سبيل الله، وتركوا الإقامة والمجاورة في الحرمين الشريفين، ونزلوا بسواحل الشام مرابطين، إلى أن ماتوا مُرابطين، أو لقوا الله شهداء !.

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي: ٥/ ٢٨٩، ورجاله ثقات.
[٢] سنن الترمذي: ٣/١٠٨. وسنن النسائي: ٦/٤٠. ومصنف ابن أبي شيبة: ٣٢٨/٥ ، والحديث حسن.

وخرج الحارث بن هشام رضي الله عنه - هو أخو أبي جهل الشقيق، وأسلم يوم الفتح - من مكة للجهاد والرباط في بلاد الشام، ولما كان بالبطحاء في أعلى مكة، وقف ليودع أهل مكة الذين خرجوا لتشييعه.

وكان مما قاله لهم: يا أيها الناس: إني والله ما خرجت رغبةَ بنفسي عن أنفسكم، ولا اختيار بلدٍ عن بلدكم.. ولكن كان هذا الأمر، وجاء الله بهذا الإسلام، ودخل فيه رجال، وهاجروا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسبقونا بذلك، ووالله لو كانت جبالُ مكة ذهباً، فأنفقناها في سبيل الله، ما أدركنا يوماً من أيامهم.. ووالله لئن فاتونا في الدنيا، لنلتمسنَّ أن نشاركهم الأجر في الآخرة. وليس أمامنا إلا الجهاد والرباط، والنقلة إلى الله عز وجل!

وتوجَّه الحارث بن هشام رضي الله عنه إلى الشام، ورابط وجاهد في سبيل الله، إلى أن لقي الله شهيداً في معركة اليرموك.

وقد نقل الإمام ابن تيمية رحمه الله إجماع العلماء على أن إقامة الرجل بأرض الرباط مرابطاً أفضل من إقامته بمكة والمدينة وبيت المقدس.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: أيهما أحبُّ إليك: الإقامة بمكة، أم الرباط في الثغور؟

فقال: الرباط أحبُّ إليَّ. وقال الإمام أحمد أيضاً: ليس عندنا شيءٌ من الأعمال الصالحة يعدل الجهاد والغزو والرباط.

وسأل رجل الإمام مالكاً رحمه الله: أيهما أحبُّ إليك: أن أقيم بالمدينة المنورة، أو أقيم بالإسكندرية؟ فقال مالك: أقم بثغر الإسكندرية!

وبما أنَّ اليوم الذي يُمضيه المرابط في الرباط أفضل من ألف يوم فيما سواه من المنازل، كذلك كل عبادة يقوم بها المرابط في يومه أفضل من ألف عبادةٍ من غيره، لأن كل جزء من أجزاء يوم الرباط أفضل من مثله من ألف يومٍ ليس فيه رباط، ولهذا صلاة المرابط مضاعفة على صلاة غيره، وكذلك صومه وذكره ونفقته وقراءته القرآن، وكلُّ عمل يصدر عنه.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: كل حسنةٍ من حسناتِ المرابط تعدل جميع حسنات العابدين ! وان الله ليختـــار خيار أمة محمد صلى الله عليه وسلم للرباط، كما يختار شرار أمة محمد صلى الله عليه وسلم للسلطان !.

وأوصى رجلٌ من المرابطين بالشام بمائة دينار في سبيل الله، وسأل عثمان بن عفان رضي الله عنه أين ينفقها. فقال له عثمان: أين تسكن؟ قال : بالشام.

قال عثمان: أنفقها عليك وعلى أهلك، وعلى جيرانك وذوي الحاجة ممن حولك، فإن الرجل من أهـــل الشـــام يشتري بدرهم لحماً لأهله، فيكون له بسبعمائة درهم!!

إنَّ الشام أرض رباط، وأفضل ما فيها ثغورها على ساحل البحر، والرباط فيها عظيم الأجر.

وكان محمد بن كعب مرابطاً بعسقلان، وكان يقول: الأكل والشرب والنكاح بعسقلان أفضل منه في غيرها.

ومن المناطق التي يستحبُّ الرباط بها باعتبارها ثغوراً: الإسكندرية ودمياط وعكا وصيدا وبـــيروت وطـــرابلس وطرسوس وانطاكية وقزوين والأندلس، وغيرها..

فـــصل

في معنى الرباط ومدته

المرابط في سبيل الله من خير الناس، والرباط والجهاد من أفضل الأعمال.

١٢٩ - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مِنْ خـــيرِ معـــاش الناسِ لهم: رجل ممسِكٌ بعَنانِ فرسِه في سبيل الله ، يَطيرُ على مَتنِهِ، كلما سمعَ هَيعَة أو فَزعَة طارَ على مَتنِه، يبتغـــي

القتلَ أو الموتَ مظانَّه.. ورجل في غُنيمَةٍ في شَعَفَةٍ من هذه الشَّعَف، أو بطنِ واد من هذه الأودية، يقيمُ الصــلاة ، ويؤتي الزكاة، ويعبدُ ربه، حتى يأتيه اليقين، ليسَ من الناس الاّ في خير" [١].

والمعاشُ هو العيشُ والحياة.

قال النووي في شرح الحديث: معنى : " مِن خيرِ مَعاشِ الناس": من خيرِ أحوالِ عيش الناس.. [٢]

ومَتن الفَرَس: ظهره.

والهيعة: كلُّ ما أفزع من جانب العدو، من صوتٍ أو خبرٍ أو غيره.

والفزعة: النهوضُ على العدو.

والشعفة: رأس الجبل.

وروى ابن المبارك عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه أنه قال: ... طوبى لعبدِ أمسى متعلِّقاً بــرأس فرســه في سبيل الله عز وجل، أفطر على كسرة وماءٍ بارد.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: رباط ليلةٍ إلى جانب البحر، من وراءِ عورةِ المسلمين أحبُّ إليَّ من أن أوافق ليلــة القدر في أحد المسجدين: المسجد الحرام أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورباط ثلاثة أيام عدلُ السنة، وتمام الرباط أربعون ليلة [٣].

وقال عطاء: تمام الرباط أربعون يوماً..

---

[١] أخرجه مسلم برقم: ١٨٨٩.
[٢] شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/ ٣٥
[٣] مصنف عبد الرزاق: ٥/ ٢٨١.

وقال يزيد بن أبي حبيب: جاء رجلٌ من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له: أين كنت ؟ قال: في الرباط! قال: كم رابطت ؟ قال: ثلاثين يوماً. قال: فهلاّ أتممتها أربعين يوماً! [١]

ورابط ابن لعبد الله بن عمر ثلاثين ليلة، ولما رجع قال له أبوه: أعزم عليك لترجعن، ولنرابطنَّ عشراً حتى تتمَّ الأربعين! [٢] ومن رابط ثلاثة أيام أجزأت عنه، وحاز من الله الفضل الجزيل.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا رابطت ثلاثة أيام فليتعبَّد المتعبِّدون ما شاءوا [٣] .

وقالت أمُّ الدرداء رضي الله عنها: من رابط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزأت عنه رباط سنة [٤].

والرباط المطلوب: عبارة عن ربط الإنسان نفسه في ثغر، يتوقَعُ فيه نزول العدو، وذلك بنية الجهاد أو الحراسة، أو تكثير سواد من فيه من المسلمين.

وكلما كان الخوف أشد في مكان، كان الرباط فيه أفضل، والثواب أجزل، سواء كان ذلك المكان ساحل بحرٍ أو غيره.

وقد ضعَّف الإمام مالك رحمه الله أمر الرباط بمدينة " جدَّة " لأن العدوَ إنما نزل بها مرةً واحدة فقط.

وسئل مالك عن سكان الثغور والسواحل بالأهل والولد؟ فقال: ليسوا بمرابطين، إنما الرباط لمن خرج من مترله متعمِّداً للرباط في موضع الخوف!

والصحيح أن من كان ساكناً بثغرٍ من الثغور، لا يربطه فيه إلاّ توقُّعُ الجهاد أو مقصد الحراسة، ولو شاء أن يرحل عنه لرحل من غير مشقةِ عليه في الرحيل، فهو مرابط، وله أجر الرباط، ولو كان معه أهله وولده!!

لأنه ما زال السلف الصالح من الصحابة والتابعين يسكنون الثغور بأهلهم وأولادهم بنية الرباط !!

---

[١] المرجع السابق: ٥/ ٢٨٥.
[٢] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/٣٢٨.
[٣] المرجع السابق: ٥/ ٣٢٧.
[٤] مسند أحمد: ٦/٣٦٢. ومجمع الزوائد: ٥/٢٨٩.

ولعل كلام مالكٍ رحمه الله فيمن ولدوا بالثغور، ونشأوا به، وكانت إقامتهم بها من غير قصد الرباط، وإنما لوجود أهلهم، وحُباً لأوطانهم.

وإذا كان الرابط للرجل في الثغر سبباً غير الجهاد والرباط، فليس بمرابط، ولا يأخذُ أجرَ الرباط. كأن يقـــيم في الثغر بسبب إقامة رئيسه فيه، أو لأي سبب آخر.

وربما يثاب هذا على نية الجهاد، إن كانت نيته أن يقاتل إن نزل به عدو، لأن من يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره.

وقال الإمام مالك: ولا بأس بأن يخرج الرجل بأهله إلى الرباط.

وعلق سحنون على ذلك: بأنْ يخرج بأهله إلى المواضع المأمونة، كثيرة الأهل كالإسكندرية وتونس.

وكان الإمام أحمد ينهى عن سكنى الثغور بالأهل.

والظاهر أنَّ ذلك في الثغور التي لا يؤمن على أهلها، لأنه يُعرِّضُ أولاده وذريته للمشركين، بحيث يقتلـــونهم أو يأخذونهم أسرى!!.

الباب السابع عشر

في فضل الحراسة في سبيل الله

قال تعالى: (وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ) [النساء: ١٠٢].

وقال تعالى: (وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّـهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [التوبة: ١٢٠].

١٣٥ - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " تعِسَ عبدُ الـدينار، وعبدُ الدرهم، وعبدُ الخميصة، إنْ أُعطيَ رضي، وإنْ لم يُعْطَ سخط، تعسَ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقَش. طـوبى لعبدٍ آخذ بعَنان فرسهِ في سبيل الله، أشعثٌ رأسُه، مغبرَّةٌ : قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإنْ كانَ في الساقة كان في الساقة، إن استأذنَ لم يؤذَن له، وإن شَفَعَ لم يُشَفَّع "[١].

الخميصة: الثوب الملون المطرز.

انتكس: انقلبَ على رأسه. وهو دعاء عليه بالخيبة والخسران.

شيك: دخلت في جسمه شوكة.

انتقش: الانتقاشُ إخراجُ الشوكة بالمنقاش، وهذا دعاءٌ عليه، أي: إذا أُصيبَ لا ينجبر.

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: لأن أبيت حارساً خائفاً في سبيل الله عز وجل أحبُّ إلي من أن أتصدق بمائة راحلة.

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٢٨٨٧

واعلم أن الحراسة في سبيل الله من أعظم القربات، وأعلى الطاعات، وهي أفضل أنواع الرباط، وكل من حرس المسلمين في موضع يخشى عليهم فيه من العدو، فهو مرابط.

وللحراسة فضائل عديدة كثيرة. منها:

أولاً: النار لا تمسُّ عينا حرست في سبيل الله.

١٣١ - روى الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "عينان لا تمسُّهما النار، عين بكَتْ من خشية الله، وعين باتَت تحرُسُ في سبيلِ الله" [١].

١٣٢ - وروى النسائي وأحمد والحاكم: عن أبي ريحانة الأزدي رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، فأتينا ذات يوم على شرفٍ فبتنا عليه، فأصابنا برد شديد، حتى رأيت من يحفر في الأرض حفرةً يدخل فيها، ويلقي عليه الحَجَفَة - يعني الترس - فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من الناس قال: مَن يَحْرُسُنا الليلة؟ وأدعوا له بدعاءٍ يكون فيه فضل. فقالَ رجلٌ من الأنصار: أنا يا رسول الله! قال: ادنُ. فَدنا. فقال: مَن أنت؟ فتسمى له الأنصاري. ففتحَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء، فأكثرَ منه.

قال أبو ريحانة: فلما سمعت ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: أنا رجل آخر. قال: أُدْنُ. فدنوت. فقال: من أنت؟ قلت: أبو ريحانة، فدعا لي بدعاء هو دون ما دعا للأنصاري.

ثم قال: حُرِّمَت النارُ على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرِّمت النار على عين سهرت في سبيل الله" [٢].

ثانياً: شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حرس في سبيل الله أنه من أهل الجنة.

١٣٣ - روى أبو داود وأبو عوانة والبيهقي والحاكم: عن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه أنهم ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فأطنبوا السير، حتى كان عشية، فحضرت صلاةٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[١] سنن الترمذى ٣/ ٩٦. والحديث صحيح.

[٢] سنن النسائي: ٦/ ١٥. ومسند أحمد: ٤/ ١٣٤-١٣٥. ومستدرك الحاكم: ٢/ ٨٣، والحديث رجاله ثقات.

فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله: إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم، بِظُعُنِهم، ونَعَمِهم، وشائِهم، اجتمعوا إلى حُنين ! فتبسَم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً، إنْ شاءَ الله.

ثم قال: مَن يَحرُسُنا الليلة؟

قال أنَس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله.

قال له: اركَب. فركبَ فرساً له. وجاءَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: استقبل هذا الشِّعْب، حتى تكونَ في أعلاه، ولا نُغَرَّنَّ من قِبلِك الليلة!

فلما أصبَحنا، خرجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى مُصَلاّه، فركعَ ركعتين، ثم قال: هل أحسسْتُم فارسَكم؟ قالوا: يا رسولَ الله: ما أحْسَسْناه!

فَثوَّبَ بالصلاة، فجعلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصلّي، وهو يلتفتُ إلى الشعْب، حتى إذا قضى صلاَته وسلَم قال: أبشِروا، فقد جاء فارسُكم.

فجعلنا ننظر إليه خلال الشجر في الشعْب، فإذا هو قد جاء، حتى وقفَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: إني انطلَقْتُ حتى كنت في أعلى هذا الشِّعْب، حيث أمرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحْتُ اطَّلَعْتُ الشِّعبيَن كليهما. فنظرتُ فلم أرَ أحداً..

فقالَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: هل نزلْتَ الليلة؟ قال: لا. إلاّ مصفياً أو قاضيَ حاجة.

فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : قد أوجبْتَ، فلا عليكَ أنْ لا تعملَ بعدها" [١].

---

[١] سنن أبي داود: ٣/ ٢٠-٢١. ومسند أبي عوانة: ٥/٠٨. والسنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ٤٩. إسناده على شرط الصحيح.

معنى: لا نُغَرَّنَّ من قبلك: لا يأخذنا الأعداءُ على حين غِرةٍ وغفلةٍ بسبب عدم انتباهك في الحراسة.

ومعنى: أوجبْتَ: اوجبْتَ لنفسك الجنة بما صنعْتَ من حراستِك الليلة.

ثالثاً: حراسة ليلةٍ في موضع يُخاف فيه على نفسه أفضل من ليلةِ القدر:

١٣٤ - روى البيهقي والحاكم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" ألا أُنبئكم ليلةَ أفضلُ مِن ليلةِ القدر؟ حارِسٌ حَرَسَ في أرضِ خوف، لعلَّهُ أن لا يرجعَ إلى أهله "[1].

رابعاً: حراسة ليلة أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها:

أخرج ابن عساكر عن أرطأة بن المنذر: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لجلسائه: أيُّ الناسِ أعظمُ أجراً؟

فجعلوا يذكرونَ له الصوم والصلاة، ويقولون: فلان، وفلان، بعدَ أميرِ المؤمنين! قال: ألا أُخبرُكم بأعظمِ الناس أجراً؟ ممن ذكرتم؟ ومن أَميرِ المؤمنين؟ قالوا: بلى. قال: رُوَيجِلٌ بالشام، اَخذٌ بلجام فرسه، يكْلأُ ويحرسُ مِن وراءِ بَيضةِ المسلمين، لا يدر: أسَبُعُ يفترسُه، أم هامةٌ تلدغه؟ أم عدو يَغشاه؟ فهذا أعظمُ أجراً ممن ذكرتم، ومن أمير المؤمنين..!!

١٣٥ - روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: ... نزلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً، فقال: مَن رجلٌ يكلَؤُنا ليلتَنا هذه؟

فانتدبَ رجلٌ من المهاجرين ورجلٌ من الأنصار. فقالا: نحنُ يا رسولَ الله! قال: فكُونا بفمِ الشِّعْب. وكانوا نَزلوا إلى شِعْب من الوادي. فلما خرجَ الرجلان إلى فَمِ الشعْب، قال الأنصاريُّ للمهاجري: أيُّ الليل أحبُّ إليكَ أنْ أكفيك أوَّله أو آخرَه؟ قال: أكفِني أوَّلَه. فاضطجعَ المهاجريُّ فنام، وقامَ الأنصاريُّ يصلي..

[1] السنن الكبرى للبيهقي: ١٤٩:٩. والمستدرك للحاكم: ٢/٨٠-٨١ ، والحديث صحيح على شرط البخاري.

وأتى رجلٌ من المشركين.. فلما رأى شخصَ الرجل عرفَ أنه ربيئَةُ القوم، فرماهُ بسهم فوضعَه فيــه، فانتزَعَــه، وثَبَتَ قائماً. ثم رماهُ بسهمٍ آخر، فوضعَه فيه، فَنزعَه، وثبَتَ قائماً ثم رماهُ بثالث فوضعَه فيه، فنزعَه، فوضَعَه ثمِ ركع، ثم أيقظَ صاحبَه، قائلاً: اجلس، فقد أثبتُ. فلما راَهُما المشرك عرفَ أنهم قد نَذروا به وعَلموا، فَهَرب.

فلما رأى المهاجريُّ ما بالأنصاريِّ من الدماء، قال: سبحانَ الله! ألا أنبهْتَني أولَ ما رَماك؟

قال: كنتُ في سورة أقرؤها، فلم أُحِبّ أنْ أقطَعَها، حتى أنفِذَها، فلما تابعَ الرميَ ركعْتُ فاَذَنْتك وأيمُ اللهِ لولا أَني خشيتُ أن أُضيعَ ثغراً أَمرني رسولُ الله بحفْظِه، لَقَطَع نفسي قبل أن أقطَعَها أو أنفِذَها ..." [1].

[1] سنن أبي داود: ١/ ١٣٦. والجهاد لابن المبارك: ٢/١٦٨-١٧٠، واسناده حسن.

الباب الثامن عشر

في فضل الخوف في الجهاد في سبيل الله

١٣٦ - روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما مِن غازيةٍ أوْ سَرية، تَغزو في سبيلِ الله،فَيسْلَمون ويصيبون، إلاّ تعجَّلوا ثلثْي أجرهم.

وما مِن غازية أو سرية تُخفِق، وتُخَوَّفُ وتُصاب، إلاّ تَّم لهم أجرهم" [١].

معنى: تُخْفِق: ترجعُ بدون غنيمةِ ولا ظفر.

١٣٧ - وروى الترمذي عن أمِّ مالك البَهزِيّة رضي الله عنها، قالت: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنةً فَقَرَّبَها. فقلت: يا رسول الله: مَن خيرُ الناس فيها؟ قال: " رجلٌ في ماشية يؤدّي حَقَّها، ويعبدُ ربَّه، ورجلٌ آخذٌ برأسِ فرسه، يُخيفُ العدوَّ ويُخيفونَه "[٢].

وروى ابن أبي شيبة عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: " إذا كان الرجل في سبيل الله، فأرعد قلبه من الخوف، تحتت خطاياه، كما يتحت عِذْقُ النخلة..

---

[١] أخرجه مسلم برقم: ١٩٠٦.
[٢] أخرجه الترمذي: ٣/٣٢٠، الحديث حسن.

الباب التاسع عشر

في فضل الصف في سبيل الله، والقيام به

قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) [الصف: ٤].

قال مجاهد: نزلت الآية في نفرٍ من الأنصار، منهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، قالوا في مجلس: لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله عز وجل لعملنا به، حتى نموت.

فلما نزلت الآية قال ابن رواحة: لا أزالُ حبيساً في سبيل الله حتى أموت، فقُتل شهيداً.

١٣٨ - وروى الترمذي والبيهقي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا في نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبُّ إلى الله عملناه، فأنزل الله قوله تعالى: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) [الصف: ١ -٤]. فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم" [١].

١٣٩ - وروى أبو داود عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ساعَتان تُفتَحُ فيهما أبواب السماء، وقلَّ ما تُرَدُّ على داعٍ دعوتُه: عند حضورِ النِّداء،والصّفّ في سبيل الله " [٢].

١٤٠ - وروى الحاكم عن عمرانَ بن حصين رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَقامُ الرجل في الصفِّ أفضلُ عند الله من عبادةِ الرجل ستين سنة" [٣].

---

[١] سنن الترمذي: ٥/ ٨٥ والسنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ١٥٩- ١٦٠، والحديث صحيح.
[٢] سنن أبى داود: ٣/٤٥، والحديث صحيح.
[٣] المستدرك: ٢ /٦٨، الحديث صحيح.

ولهذا قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لأن أقف موقفاً في سبيل الله مواجهاً للعدو، لا أضرب بسيف، ولا أطعن برمح، ولا أرمي بسهم، أفضل من أن أعبد الله ستين سنة، لا أعصيه.

وقال مجاهد: كان يزيد بن شجرة رضي الله عنه ممن يصدق قوله فعله. وقد خطبنا يوماً فقال: يا أيهــا النــاس! اذكروا نعمة الله عليكم وما أحسن أن ترى نعمة الله عليك من بين أخضر وأحمر وأصفر وفي الرِّحال وما فيها. وإذا صفَّ المجاهدون للقتال كان يقول: فُتحت أبوابُ السماء، وأبوابُ الجنة، وأبوابُ النار، وزُينــت الحــورُ العــين، وأطَّلَعْنَ، فإذا أقبلَ الرجلُ قلن: اللهمَّ انصره، وإِذا أَدبر احتجَبنَ منه، وقلن: اللهمَّ اغفر له.

فانهكوا وجوهَ القوم، فدى لكم أَبي وأمي، ولا تُخزوا الحورَ العين، فإن أولَ قطرةِ تنضحُ من دمه، يكفِّرُ الله عنــه كل شيء عمله... وكان يقول: نُبِّئْتُ أن السيوف مفاتيحُ الجنة " [١].

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: ثلاثةَ يضحكُ الله إليهم يوم القيامة: الرجل إذا قام من الليــل يصــلي، والقوم إذا صفّوا في الصلاة، والقوم إذا صفُوا في قتال العدو [٢].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : ألا أخبركم بأفضل الشهداء عند الله عز وجل منزلةً يــوم القيامة؟

الذي يلقى العدوَّ في الصف، فإذا واجَهوا عدوَّهم، لم يلتفت يَميناً ولا شِمالاَ، واضعاً سيفه على عاتقــه يقــول: اللهمَّ إني أجرتُكَ نفسي اليوم بما أسلفت في الأيام الخالية، فيقتلُ عند ذلك [٣].

---

[١] مصنف عبد الرزاق: ٥/ ٢٥٦-٢٥٨. ومصنف ابن أبي شيبة: ٥/ ٢٩٢-٢٩٣.
[٢] مصنف ابن أي شيبة: ٥/٢٨٩.
[٣] الجهاد لابن المبارك: ١/٧٠- ٧١ .

الباب العشرون

في فضل الرمي في سبيل الله وإثم من تركه بعدما تعلمه

اعلم أن تعلُّم الرمي وتعليمه والمسابقة له بنية الجهاد في سبيل الله مما ندب إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وحضَّ عليه.

وللرمي فضائل كثيرة:

أولاً: أمر الله بالرمي استعداداً للجهاد في سبيل الله.

قال تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ...) [الأنفال: ٦٠].

وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب تعلُّم الرمي، استدلالاً بهذه الآية، لأن المراد بالقوة الرمي.

١٤١ - روى مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - وهو على المنبر -(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ) ألا إن القوةَ الرمي، ألا إن القوةَ الرمي"[١].

ثانياً: إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه، والرامي به، والذي يناوله للرامي:

١٤٢ - روى أبو داود والنسائي والحاكم وأبو عوانة عن خالد بن زيد رضي الله عنه قال: كنت رجلاً رامياً، فكان يمرُّ بي عقبة بن عامر، فيقول يا خالد: أخرج بنا نرمي! فلما كان ذاتَ يوم أبطأتُ عنه. فقال: يا خالد: تعال أخبرك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[١] أخرجه مسلم برقم: ١٩١٧.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن اللهَ يُدخلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ نفر الجنة : صانعَه يحتسب في صَنعته الخير، والراميَ به، ومُتبِلَه.

ارْموا واركَبوا، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ مِن أنْ تركبوا، وليسَ اللهو إلا في ثلاث: تأديبِ الرجلِ فرسَه، وملاعبتِه أهله، ورميه بقوْسِه ونَبلِه. ومَن تركَ الرمي بعد ما عَلِمَه، فهي نعمة تَركها " [1].

وتوفي عقبة بن عامر رضي الله عنه وله بضعةٌ وسبعون قوساً، مع كلِّ قوسٍ قَرْنٌ ونبْلٌ، فأوصى بهم في سبيل الله.

والمنبِلُ هو الذي يناول الرامي النبل. وهو إمّا أن يقومَ بجانب الرامي أو خلفه يناوله النبل، واحداً بعد واحد، وإما أن يردَّ عليه النبل المرميَّ به.

وأيُّ الأمرين فَعَلَ فهو مُمِدٌّ به [2].

قال الأصمعي: نَبَّلْتُ الرجل. أي: ناولتُهُ النبل ليرمي به.

ويحتمل أن يراد بالمُنْبِل: الذي يمُدُ بالنبل في سبيل الله، ويجهِّزُ المجاهدَ به من ماله.

والنبلُ هي السهامُ العربية، وهي مؤنثة، لا مفرد لها.

ثالثاً: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي بالنبل بين أصحابه:

١٤٣ - روى البخاريَ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مَرَّ النبي صلى الله عليه وسلم على قومٍ ينتضلون، فقال: " ارموا بني إسماعيل، فإنَّ أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان.

---

[1] سنن أبي داود: ٥/ ١٠٣. والمجتبى للنسائي: ٦/ ٢٨. ومستدرك الحاكم: ٢/ ٩٥. ومسند أبي عوانة: ٥/ ١٠٣، والحديث صحيح.

[2] شرح السنة للبغوي: ١٠/٣٨٣.

فأمْسَكَ أَحَدُ الفريقين بأيديهم. فقالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالكم لا تَرْمون؟ قالوا: يـا رسـولَ الله: كيف نَرمي وأنتَ معهم؟ قال: ارموا وأنا معكم كلكم " [1].

وفي هذا الحديث دلالة على استحباب التعصُّبِ للرماة، تقويةً لقلوبهم، وزيادةً لنشاطهم، وترغيباً وتحريضاً لهـم، بشرط أن يكون القصد في ذلك حسناً، اقتداءً بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يجوز التعصب للرماة تعصُّباً شيطانياً قائماً على الهوى، تتولَّدُ منه الأحقاد، وتنتج عنها الضغائن، فـإن هـذا التعصب حرام، لما ينتج عنه من المفاسد.

ويقاس على الرمي بالنبال باقي آلات الحرب، كاللعب بالسيوف والرماح والعصي.

رابعاً: الرمي من اللهو الممدوح المندوب إليه، وليس من المذموم:

١٤٤ - روى مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقـول:" ستُفتح عليك أَرَضون، ويكفيكُم الله، فلا يَعْجِزُ أحدُكم أن يلهوَ بأَسهمه " [2].

١٤٥ - وروى النسائي والبيهقي عن عطاء بن أبي رباح قال: رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصاري رضي الله عنهما يرميان. فملَّ أحدُهما فجلس! فقال له الآخر: كسلت؟ سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسـلم يقول: " كلُّ شيء ليسَ من ذكر الله عز وجل فهو لهوٌ أو سهو، إلا أربعُ خصال: مشيُ الرجلِ بين الغَرَضَين، وتأديبهُ فرسَه، وملاعبتَه أهله، وتعليمُ السباحة "[3].

الغَرَضُ هو: ما ينصَبُ في الهدف، من قرطاسٍ أَو جلد، ثم يَرميه الرماةُ بالسهام بقصدِ إصابته.

ويستحبُّ أن يكون الرمي بالسهام بين غرضين، لأنَّ هذا كان فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] أخرجه البخاري برقم: ٢٨٩٩.
[2] أخرجه مسلم برقم: ١٩١٨.
[3] المجتبى للنسائي: ٦/ ٢٢٢-٢٢٣. والسنن الكبرى للبيهقي: ١٠/١٤، الحديث صحيح.

وكان عمر بن الخطاب يوصي الجنود في ميادين الجهاد بالرمي واستمرار القيام به.

روى البيهقيُّ عن أبي عثمان النَّهدي قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونحن مع عتبة بن فرقد رضي الله عنه نجاهد بأذَرْبيجان، ومما قال فيه: " أمّا بعد: فاتَّزِروا

وانتَعِلوا، وارْتدُوا، وألقوا الخِفافَ والسراويلات، وعليكم بلباس أَبيكم إسماعيل، وإيّاكم والتنعُّمَ وزيَّ العجم، وعليكم بالشمسِ فإنها حَمّامُ العَرب، وتَمَعْدَدوا، واخشَوْشِنوا، واخْلَوْلقوا، وامشوا حُفاة، واقطعوا الركب، وانْزُوا على الخيلِ نزواً، وارْمُوا الاغْراض، وامشوا بينهما [1].

تَمعْدَدُوا: تشبَّهوا بعيشِ مَعَد بنِ عدنان، وكان عَيشاً خشناً غليظاً.

واخشَوشنوا: عيشوا حياةَ الخُشونةِ، وَدَعُوا حياةَ التنعُّم.

واخلولقوا: البسوا الملابسَ الخَلِقَةَ البالية.

خامساً: من رمى بسهم في سبيل الله، رفعه الله به درجة في الجنة: ١٤٦ - روى النسائي والحاكم وابن حبان عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: حاصرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف، فسمعته يقول: " مَنْ رمى بسهمٍ في سبيل الله فله عِدْلُ مُحَرَّرٍ، وَمَن بلَغَ بسَهمٍ في سبيل الله في الجنة..".

قال عمرو بن عبسة: فبلغت يومئذ ستة عشر سهما. ..." [2].

١٤٧ - وروى النسائي وابن حبان عن كعب بن مرَّة رضي الله عنه قال سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن بلغَ العدوَّ بسهمٍ رفعَ اللهُ له درجة! فقال له عبدُالله بن النَّحام رضي الله عنه: وما الدرجةُ يا رسول الله؟ قال: أما إنها ليست بعتبةِ أُمِّك! ما بين الدرجتين مائةُ عام "[1].

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي: ١٠/ ١٤.
[2] سنن النسائي: ٦/ ٢٧. ومستدرك الحاكم: ٢/ ٩٥. وموارد الظمآن: ٣٩٦، والحديث صحيح.

وحتى لو لم يبلغ به العدو، فإن الله يثيبه عليه، ويضاعف له الأجر.

١٤٨ - روى النسائي عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " مَنْ شابَ شيبةً في الإسلام، كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهمٍ في سبيل الله فبلَغَ به العدو أو لم يبلغ، كان له كعتقِ رقبةٍ مؤمنة، وكانتْ له فداءه من النار "[٢].

فصل

في التمرين والتدريب على الرمي

روى إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه قال: رأيت حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بالمدائن، يشتدُّ بين الهدفين، ليس عليه إزار [٣].

والهدف هو ما رفع من الأرض للرمي.

وقال مجاهد: رأيت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يشتدُّ بين الهدفين، وهو يقول: أَنّى بها، أَنّى بها [٤] .

أي : كيف لي بها. والمعنى: كيف لي أن أصيب الهدف؟ !

لقد كان حذيفة وابن عمر رضي الله عنهم يتدرَبان على الرمي، ويجريان ويركضان ولا يمشيان مشياً، وكان حذيفة يركض بغير إزارٍ طلباً للخفة، وتمريناً للجسد على التعب.

وهذا يدلّ على عظم اهتمام الصحابة بالرمي ونشاطهم فيه، هذا وهم شموس الاهتداء، ونجوم الاقتداء، وملوك الدنيا والآخرة، والهدى الصالح هو ما كانوا عليه، والرأي الصائب هو ما مالوا إليه.

---

[١] المجتبى للنسائي: ٦/ ٢٧، وموارد الظمآن ص : ٣٩٦، وإسناده صحيح.
[٢] المجتبى للنسائي: ٦/ ٢٧-٢٨، وإسناده صحيح.
[٣] سنن سعيد بن منصور: ٣/٢/ ١٨٤.
[٤] المرجع السابق: ٢/ ٣/ ١٨٥.

ويكفيك وصف الله لهم وثناؤه عليهم في قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) [الفتح: ٢٩].

ينبغي للرامي أن يترك الاحتشام حال الرمي، ويطرح الرياسة المعتادة جنباً، ويتبذل مع إخوانه في الرمي، ولا يستنكف من ذلك، ويحتسب فعله هذا قربةَ عند الله، ورغبةَ في عظيم الأجر، وإحرازاً لجزيل الثواب.. ويرى ما هو فيه من أعظم العبادات، وأجلِّ الطاعات، لا من أنواع اللّعب والبطالات.

وأن يشكر الله تعالى إذ وفقه لذلك. ورزقه القوة عليه والعافية لفعله ويحمده إذ اقامه فيه، وحبَّبه إليه، دون غيره من أنواع اللعب المذموم. والله الموفق لا ربَّ غيره.

ولا بأس في الرمي بالانبساط مع الإخوان والضحك، بل يستحبُّ ذلك، لأن فيه ما يزيد في النشاط، ويحبِّبُ في هذه العبادة، ما لم يبلغ في الانبساط والضحك المكروه.

قال بلال بن سعد: لقد أدركت أقواماً يشتدّون بين الأغراض، ويضحكُ بعضهم إلى بعض، فإذا جنَّهم الليل كانوا رهباناً. وكان بلال بن سعد منهم، لأنه كان أحد علماء التابعين وعبّادهم.

وقال أبو عبد الله الحليمي: ومما يدلك على رفعة قدر الرمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجمع لأحد بين أبويه، إلا لمن قام بالرمي!

١٤٩ - روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم أحد: " إرْمِ فداكَ أَبي وأمي.. " [1].

وقال أبو عبد الله الجوزجاني: غزونا في البحر مع السيد الجليل إبراهيم بن أدهم رحمه الله، وفي الليلة التي توفي فيها أصيب بالإسهال، فذهب إلى الخلاء خمساً وعشرين مرة.. وكان يجدِّدُ الوضوء للصلاة بعد كل مرة.

فلما أحسَّ بالموت، قال: أوتروا لي قوسي. وقبض على قوسِه! فقبض الله روحه، والقوس في يده!

---

[1] أخرجه البخاري برقم : ٢٩٠٥. ومسلم برقم: ٢٤١١.

وفعل إبراهيم بن أدهم ذلك رجاء أن يبعثه الله يوم القيامة على الحالة التي قبض عليها، لأنَّ الإنسان يبعث يـــوم القيامة على ما مات عليه.

وذهب الإمام مالك إلى أنَّ تعلُّم ركوب الخيل والمسابقة بها أفضل من تعلم الرمي والنضال به.

وذهب الجمهور من العلماء إلى أنَّ تعلُّم الرمي والمناضلة به أفضل من تعلُّم ركوب الخيل والسبق بها.

واستدلّوا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ارموا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا.. " وقد سبق أن أوردناه.

وذهب بعض العلماء المتأخرين إلى أن تعلُّم كل واحدٍ من الرمي وركوب الخيل ضروري، ولا تتمُّ الفروســـية إلاّ بمجموعهما، فالرمي أنفع إذا كان العدوُ بعيداً، والكرُّ والفرُّ أفضل عند اختلاط الصفوف، والأفضل منهما ما كان أنكى في العدوّ وأنفع للجيش، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص، ومقتضى الحال.

وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم خمس قسيٍّ يرمي بها السهام ، وهن: الرَّوْحاء، والصفراء، والبيضاء، والزوراء، والكتوم.

وكانت كنانته التي يجمع فيها نبله تسمى الكافور.

فـــصل

في المسابقة والمناضلة والرمي

المسابقة : أجمعت الأمة على جواز المسابقة بالخيل والسهام. وتسمى المسابقة بالخيل رهاناً، وبالسهام مناضلة.

وهما سنة يثاب عليهما فاعلهما، وينال من الله الأجر، بشرط أن يكون القصد فيهما التأهب للجهاد، والاستعداد له.

ومن شروط المسابقة:

الأول: أن يكون المعقود عليه للمسابقة عدةً للقتال، كالخيل والإبل.

الثاني: علم الموقف والغاية، من حيث الانطلاق والانتهاء، وتساوي المتسابقين فيهما. فإن لم يتحدد ذلك لا يجوز السباق.

الثالث: أن يكون للسابق كلُّ المال أو أكثره.

الرابع: وجود شخص ثالث في السباق، إذا كان المال من الجانبين، فإن سبقهما أخذ ما شرطا منهما، وان سبقاه لم يعطهما شيئاً، وإن سبق أحدهما أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه.

الخامس: أن يكون سبق كلِّ واحد منهما ممكناً.

السادس: تعيين المركوبين المشتركين بالسباق وتحديدهما.

السابع: أن يتفقا على الراكبين للفرسين.

الثامن: أن يمكن للفرسين المتسابقين قطع مسافة السباق، بدون انقطاع أو تعب. ١٥٠ - روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أجرى النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما ضمِّر من الخيل من الحفياء إلى ثنية الوداع . وأجرى ما لم يضَمَّرْ من ثَنيِة الوداعِ إلى مسجدِ بني زريق"[1].

قال سفيان: من الحَفياء إلى ثنية الوداع خمسةُ أميال أو ستة، ومن الثنية إلى مسجد بني زريق ميل.

والتضمير ضدَّ التسمين، وهو تدريج الخيل في تقليل أقواتها، بحيث يحصل لها الضمر، فتقوى على الجري.

---

[1] أخرجه البخاري برقم :٢٨٦٨ ومسلم برقم:١٨٧٠.

التاسع: العلم بالمال المشروط.

العاشر: اجتناب شرط مفسد.

أما الرمي فهو المناضلة: التي هي الرمي بالسهام.

ومن شروط المناضلة:

الأول: وجود المحلِّل فيما إذا شرط المال على كل واحد من المتناضلين.

الثاني: اتحاد الجنس في المناضلة، فإن اختلف الجنس كسهامٍ مع رماح لم تصح. الثالث: أن تكون الإصابة المشروطة ممكنة، وليست مستحيلة ولا متيقَنة.

الرابع: العلم بالمال المشروط، وبعدد الإصابة، وبالمسافة التي يرميان إليها، وبقدر الفرض وعدد الأرشاق والبادىء منهما.

الخامس: تعيين الرماة، فلا يجوز العقد إلا على راميين معينين.

السادس: تعيين الموقف وتساوي المتناضلين فيه.

فصل

في ما جاء في الوعيد الشديد لمن تعلم الرمي ثم تركه

جاء الوعيد الشديد لمن تعلّم الرمي ثم تركه. ١٥١ - روى مسلم أنَّ فُقَيْماً اللخميَّ قال لعقبة بن عامر رضي الله عنه: تختلف بين هذين الغرضين وأنت كبيرٌ يشقُّ عليك؟

فقال عقبةُ بن عامر: لولا كلامٌ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أُعانِه. قال الحارث - راوي الحديث - لابن شماسة: وما ذاك؟ قال: هو قوله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ تعلَّمَ الرميَ ثم تركَه فليس منا.. أو قد عصى.. " [١].

وقد ذهب جماعةٌ من العلماء إلى أنَّ ترك الرمي بعد تعلُّمه من الكبائر: لأنَّ القاعدة المعتمدة: أن كل فعلٍ قال فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم: من فعله فليس منا، أو فقد عصاني، أو ما أشبه ذلك، يكون كبيرة.

وقد روى هذا الحديث أبو عوانة في صحيحه، وبوّبَ عليه: باب بيان الترغيب في الرمي، وايجابه على المسلم، والدليل على أنه من اللهو المباح، وبيان عقاب من تعلم الرمي ثم تركه [٢].

وقال النووي في شرح الحديث: ترك الرمي مكروه كراهةَ شديدة.

وعلى كل تقدير:ترك الرمي ونسيانه إن لم يكن كبيرةَ فهو صغيرة، تلتحق بالكبائر عند الإصرار على الترك. ولذلك يجب التنبه لهذا، والمبادرة إلى التوبة منه، والإقلاع عن الإصرار عليه.

---

[١] أخرجه مسلم برقم: ١٩١٩.
[٢] مسند أبي عوانه: ٥/ ١٠١.

الباب الحادي والعشرون

في فضل سيوف المجاهدين ورماحهم وعدهم

قال تعالى: (وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ) [النساء: ١٠٢].

وقال تعالى:(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ...) [الأنفال: ٦٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : القوة هي : السلاح والقوس.

وذكر الله الرماح في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) [المائدة: ٩٤].

واعلم أنَّ تعلم الفروسية وتعليمها واستعمال الأسلحة فرض كفاية. وقد يكون فرض عين، وذلك عند شدة احتياج المسلمين إلى ذلك، وعدم وجود من يقوم بذلك ويحقّقُ فرض الكفاية.

ومما و رد في فضل السيوف والرماح:

١٥٢ - روى أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بُعثْتُ بالسيفِ بين يدي الساعة، حتى يُعبدَ اللهُ وحده، لا شريكَ له، وجُعِلَ رزقي تحت ظل رمحي، وجُعِلَ الذلةُ والصَّغارُ على مَن خالَفَ أَمري، ومَن تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم ٠٠" [١].

قال الإمام ابن القيم في كتاب " الفروسية ": نصَّ الإمام أحمد على أن العمل بالرمح أفضل من الصلاة النافلة، في الأماكن التي يحتاج فيها إلى الجهاد [٢].

---

[١] مسند احمد: ٢: ٥٠ و٩٢. والحديث صحيح

[٢] الفروسية لابن القيم: ١٨.

وباقي الأسلحة كالرمح في هذا الشأن.

وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجنة تحت ظلال السيوف:

١٥٣ - روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال - وهو بحضرة العدو -: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن أبوابَ الجنةِ تحتَ ظلالِ السيوف ".

فقامَ رجلٌ رَثُّ الهيئة. فقال: يا أَبا موسى: أنتَ سمعْتَ رسولَ. الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ قال أبو موسى: نعم.

فرجَعَ الرجُل إلى أصحابه، فقال: أَقرأُ عليكمُ السلام. ثم كَسَرَ جَفْنَ سيفه فأَلْقاه، ثم مشى بسيفِهِ إلى العدو، فضرب به حتى قُتل [1].

١٥٤ - وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدوَّ ينتظر، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم فقال: " يا أيها الناس: لا تتمنوا لقاءَ العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحت ظلالِ السيوف.. " [2].

وكان يزيد بن شجرة رضي الله عنه يقول: نُبِّئْتُ أن السيوف مفاتيح الجنة. وإنما جعلت السيوف مفاتيح الجنة، لأنها سببٌ في فتح أبوابها.

وضرب الأعداء بالسيف سببٌ لدخول الجنة، وهو سببٌ لنيل الكرامة والعزة، وينال المجاهد به رضوان الله، ويكون وقايةً له من النار.

وكانت سيوف الصحابة للجهاد، ولهذا لم تكن مزينةَ بالذهب:

---

[1] أخرجه مسلم برقم: ١٩٠٢.
[2] أخرجه البخاري برقم: ٢٩٦٥. ومسلم برقم: ١٩٠٢.

١٥٥ - روى البخاري عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: لقد فتح الفتوح قومٌ ما كانت حلية سيوفهم الذهب ولا الفضة، إنما كانت حِليتُهم العَلابِيّ والآنِك والحديد [١].

والعلابيُّ: هي العصائب كانوا يشدّون بها أجفان سيوفهم.

والآنك: هو الرصاص المذاب.

حتى الأظفار قد يحتاجها المجاهد.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وفروا الأظفار في أرض العدوً فإنها سلاح.

وقال أحمد بن حنبل: يحتاج المجاهد إلى أظفاره في أرض العدو، فإن لم تكن له أظفارٌ صعب عليه حـلُّ الحبل أو الشيء. وأوَّلُ سيفٍ سلَّ في سبيل الله كان سيف الزبير بن العوام رضي الله عنه، وذلك في أول أيـام الإسـلام في مكة.

كان الزبير بن العوام رضي الله عنه فتىً في مكة، في الثانية عشرة من عمره، فأشيع أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قد اختُطف في مكة، فشهر الزبير سيفه، وذهب يبحث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا به مُعـافي، وليس به بأس، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ولسيفه.

وكان الزبير بن العوام رضي الله عنه من شجعان الصحابة الأقوياء، يحسن الضرب بالسيف! وضرباته بالسـيف من الضربات المشهورة في الإسلام.

وكان للنبيِّ صلى الله عليه وسلم مجموعةٌ من الأسياف:

المَأثورُ: ورثه من أبيه، وقدم به المدينة.

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٢٩٠٩.

العَضْبُ: أرسل به إليه سعد بن عبالة عندما توجَّه إلى معركة بدر.

ذو الفقِار: غنمه الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وكان معه في حروبه كلِّها.

الصِّمصَامُ: أهداه له عمرو بن معدي كرب الزبيدي رضي الله عنه.

القَلْعيُّ: نسبةَ إلى مَرج القلعة بالبادية.

البتَّارُ: من البتر، وهو القطع.

الحَتْفُ: وهو الذي يقود إلى الحتف وهو الموت.

الرَّسوبُ: سمي بذلك لأن ضربته ترسُبُ في جسم العدو، وتغوص فيه.

المِخذَم: والخَذمُ هو القطع.

والقَضيب: من القضبِ وهو القطعُ أيضاً، فهو قَطّاع.

وكان له صلى الله عليه وسلم خمسةُ رماح.

وكان له حربةٌ يقال لها: البتعة. وحربةٌ كبيرة يقال لها: البيضاء، وثالثةٌ صغيرة يقال لها العنزة.

وكان صلى الله عليه وسلم يدعم على العنزة، ويمشي بها وهي في يده، وكانت تُحملُ بين يديه في العيد، وتوضع أمامه، فيتخذّها سترة، ويصلّي إليها.

وكان له صلى الله عليه وسلم سَبعُ أَدراع.

وكان له صلى الله عليه وسلم مِغفَرٌ من حديد، يُقال له: الموشِح، ومِغفرٌ آخر يقال له: السَّبوغ، وهو الذي كان على رأسه الشريف حين دخلَ مكة يوم الفتح. وكان له صلى الله عليه وسلم ترسٌ يقال له: الزَّلُوق. يزلــقُ عنــه السلاح. وله تُرْسانِ آخران غيره.

الباب الثاني والعشرون

في فضل الجرح في سبيل الله وذكر بعض الجرحى

١٥٦ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله، والله أعلمُ بمن يُكْلَمُ في سبيله، إلاّ جاءَ يومَ القيامة، وجُرحُه يَثْعَبُ، اللونُ لونُ الدم، والريحُ ريحُ المسك "[١].

وفي لفظ آخر عند البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم :" كل كَلْم يُكلَمُه المسلم في سبيل الله، ثم تكون يوم القيامة كهيئتها إذ طعنت، تفجر دماً، اللون لون الدم، والعَرْف عَرْفُ المسك "[٢].

الكَلْمُ هو: الجرح.

والعَرْفُ: الرائحة.

ويثعبُ: يمفجَّرُ.

قال ابنُ دقيق العيد رحمه الله: الحكمةُ من مجيئه يوم القيامة مع سيلان الدم من جرحه: الشهادة على العدو الظالم الذي جرحَه، وإظهارُ شرفِهِ لأهل الموقف كلِّهم، بما يخرج من جرحه من ريح المسك.

١٥٧ - وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" مَن قاتلَ في سبيل الله فُواقَ ناقة، فقد وَجَبت له الجنة، ومَنْ سألَ الله القَتلَ من نفسه صادقاً، ثم ماتَ أو قُتِل، فإنَّ له أجر شهيد، ومَن جُرِحَ جَرحاً في سبيلِ الله، أو نُكب نَكبة، فإنها تجيءُ، يومَ القيامة كأغزرِ ما كانت، لونُها لونُ الزعفران، وريحُها ريحُ المسك. ومَن خرجَ به خَرّاج في سبيل الله، فإن عليه طابعُ الشهداء "[٣].

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٣٨٠٣. ومسلم برقم: ١٨٧٦.
[٢] أخرجه البخاري برقم: ٢٣٧. ومسلم برقم:١٨٧٦.
[٣] سنن أبي داود: ٣/٤٦. وسنن الترمذي: ٣/١٠٢. وسنن النسائي: ٦/٢٥-٢٦. وسنن ابن

الخَرَّاج هو البُثورُ والقروح والدمامل التي تظهر في جسم الإنسان. ١٥٨ - وروى الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" ليسَ شيءٌ أحبُّ إلى الله من قطرتين وأثرَين: قطرةِ دموع من خشـيةِ الله، وقطرةِ دمٍ يراقُ في سبيل الله، وأما الأثَران: فأثرٌ في سبيل الله، وأثرٌ في فريضةٍ من فرائضِ الله ". [1]

وقال الحسن البصري: قطرتان وجرعتان: فما جرعَةٌ أحبُّ إلى الله من جرعةِ غيظٍ يكظُمها عبدٌ بحلم يبتغي بذلك وجه الله عز وجل، وجرعةِ مصيبةٍ موجعة، يَصبر عليها عبدٌ لله.

وما قطرةٌ أحبُّ إلى الله من قطرة دم في سبيل الله، أو قطرة دمعٍ من عبدٍ ساجدٍ في جوف الليل، لا يرى مكانه إلاّ الله. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد، قال : " ذلك يومٌ كلُّه لطلحة " - يعني طلحة بن عبيد الله -. كنتُ أول من فاء، فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم دونـــه، فقلت: كن طلحة.

حيث فاتني هذا الموقف. فإذا بطلحة بضعٌ وسبعون، بين طعنةٍ ورمية وضربة، فأصلحنا من شأنه"[2].

وقال قيس بن أبي حازم: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد [3].

وقال عروة بن الزبير: كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف، إحداهنَّ في عاتقه، وإن كنت لأدخلُ أصابعي فيها، ضُرِبَ ثنتين يومَ بدر، وواحدة يوم اليرموك [4].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: رمى أبو دجانة رضي الله عنه بنفسه يـــوم اليمامـــة إلى داخـــل الحديقـــة، فانكسرت رجله، فقاتل وهو مكسور الرجل، حتى قتل.

وقال معاذ بن عمرو بن الجموح: جعلت أبا جهل يوم بدر من أجلي ، فلمّا أمكنني حملت عليه فضربته، فقطعت قدمه بنصف ساقه. فضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، وبقيت معلَّقة. بجلدة بجنبي. وأجهضني عنه القتال، فقاتلت عامَّةَ يومي، وإني لأسحَبُها خلفي ! فلما آذَتني وضعْتُ قدمي عليها، ثم تمطَّأْتُ عليها حتى طرحْتُها [1].

ماجة: ٢/٩٣٣-٩٣٤. والحديث صحيح..

[1] سنن الترمذي: ٣/١٠٩، والحديث حسن

[2] المغازي للواقدي: ١/ ٢٤٦.

[3] سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٦.

[4] المرجع السابق: ١/٥٢.

وقال جعفر بن عبد الله بن أسلم: لما كان يوم اليمامة، كان أول من خرج أبو عقيل. رُميَ بسهم، فوقع بين منكبه وفؤاده، فأخرج السهم، فوهن له شِقُه الأيسر، وجُرَّ إلى الرَّحل.

فلما حَميَ القتالُ وانهزم المسلمون، سمع أبو عقيل معن بن عدي رضي الله عنه يصيح بالأنصار: الله، الله ، والكرة على عدوكم! قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: فنهض أبو عقيل! فقلت له: ماذا تريد؟ فقال: لقد نوَّه المنادي باسمي! قلت له: إنه لا يعني الجَرحى! قال: أنا من الأنصار، وأنا أُجيبُه ولو حَبواً! فتحزَّمَ، وأخذ السيف. ثم جعل ينادي: يا للأنصار: كرةً كيوم حنين.

قال ابنُ عمر: فاختلفت السيوف بينهم، فقطعت يده المجروحة من المنكب ! فقلت: أبا عقيل ! فقال: لبيك - بلسان المُلْتاث - لمن الدّبرة ؟ قلت: أبشر، فقد قُتِلَ عدوُ الله! فرفع إصبعَه إلى السماء فحمدَ الله فمات..

قال ابن عمر: فأخبرت عمر، فقال: رحمه الله. ما زال يطلب الشهادة حتى نالها.. وعن حنظلة بن أبي سفيان أن سالماً مولى أبي حذيفة رضي الله عنه طلب أن يأخذ اللواء يوم اليمامة. فقالوا له: نخشى أن نُؤتى من قبلك، وتولّي اللواءَ غيرَك! قال: بئسَ حاملُ القرآنِ أنا إذاً.

ولما أخذَ اللواءَ قُطعَت يمينُه، فأخذَ اللواء بيساره فقُطعت، فاعتنقَ اللواءَ وهو يقول: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) [آل عمران: ١٤٤].

ويقول: (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) [آل عمران :١٤٦].

ولما صُرعَ قال لأصحابه: ما فعل أبو حذيفة بن عتبة؟ قالوا: قتل ! قال: فما فعل فلان؟ قالوا: قتل! قال: فأضجعوني بينهما ! [٢].

وعن يزيد بن السكن رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لحمه القتال يوم أحد، خلص إليه العدو، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثَقُل، وظاهرَ بين درعين يومئذ ، ودَنا منه العدو.

---

[1] المرجع السابق: ١/٢٥٠-٢٥١.
[2] الجهاد لابن المبارك: ١/١٢٣.

وقد ذبَّ عنه مصعبُ بن عمير رضي الله عنه حتى قُتل، وذبَّ عنه أَبو دجانة سِماكُ بن خَرَشة حتى كَثُرَت فيه الجراح، وأُصيب وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثُلِمَت رباعيتُه، وكُلمتْ شفتُه، وأُصيبَت وجنتُه!

عند ذلك قال صلى الله عليه وسلم: مَن رجل يبيعُ لنا نفْسَه؟

فوثبَ خمسةُ فتيةٍ من الأنصار، فيهم زياد بن السَّكَن، فَقُتِلوا، حتى كان آخرُهم زيادَ بن السكن، فقاتل حتى أُثبت.. ثم ثابَ إليه ناسٌ من المسلمين، فقاتلوا عنه حتى أجهضوا عنه العدو وأزالوهم وأبعدوهم" [1].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، أطلب سعد بن الربيع، رضي الله عنه، وقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام. وقل له: يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيفَ تجدُك؟

فطفتُ بين القتلى، فأصبتُه في آخر رَمَق، وبه سبعون ضربة. فأخبرتُه، فقال: على رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام وعليك.

وقل له: إن سعداً يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، إني أجدُ ريح الجنة.

وبَلِّغ قومي الأنصار منّي السلام، وقل لهم: لا عذر لكم عندَ الله، إن خلصَ إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم وفيكم عينٌ تَطرُفُ.. وفاضت روحه رضي الله عنه [2].

ومن المعارك التي استشهد وجرح فيها الآلاف من المسلمين معركة الجسر في بلاد العراق.

وكان قائد المسلمين فيها أبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه. وكان عدد المسلمين حوالي ستة آلاف، وكتب بَهمَن جاذَوَيهِ قائدُ الفرس إلى أبي عبيد بن مسعود وقال له: إما أن تعبروا إلينا وندعكم تعبرون، وإما أن تدعونا نعبر إليكم!

---

[1] المرجع السابق: ١: ١٠٤- ١٠٥.
[2] المستدرك للحاكم: ٣/٢٠١.

فقال أبو عبيد: لا يكونون أجرأ على الموت منا! بل نعبرُ نحن إليهم!

فعبر المسلمون إلى الفرس من مكان ضيق المطرد والمهرب، واقتتل المسلمون والفرس قتالاً شديداً، حتى آخر النهار.

وكان مع الفرس الفيلة، وكانت خيول المسلمين لا تجرؤ على مهاجمة الفيلة، ودعا أبو عبيد المسلمين إلى الهجوم على الفيلة !

وتوجَّه أبو عبيد نحو الفيلِ الأبيض - أكبر الفيلة - وقطع خرطومه، ولكن الفيل هجم على أبي عبيد وخَبَطَه وقَتلَه وربضَ عليه. ولما رأى المسلمون أميرهم صريعاً تحت الفيل ضعفَت نفوسهم، وانهزموا، ورجعوا للجسر.

واستشهد من المسلمين يوم الجسر أربعة آلاف، وسلم منهم ألفان فقط.

ومرَّ رجلٌ من المسلمين بأحد الأنصار عند الجسر، وهو يزحف، وقد قطعت يداه ورجلاه، وهو يتلو قوله تعالى: (فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً) [النساء: ٦٩]. ثم استشهد رضي الله عنه.

واعلم أن الجريح في سبيل الله لا يجد من ألم الجرح ما يجده غيره، القتيل في سبيل الله لا يجد من ألم القتل إلا كمسِّ القرصة. واذا كان هذا حال القتيل فكيف بما دون القتل؟ وهي الجراح التي يصاب بها الجريح ؟

إنَّ هذا أمرٌ مستقر، لا يجحدُه إلاّ من لم يجرِّب.. وإن العقل لا يستبعد ذلك، فإن سورة الغضب والحمية إذا اشتدَّت عند الإنسان، فإنه يجد في نفسه من الشدة والقوة والاحتمال وقلة المبالاة بالمكروه وعدم الإحساس بالألم ما لم يكن يجده من قبل!

وربما يقع بين المتخاصمين من الشجاج المؤلمة والجراح البالغة، ومع ذلك لا يحسون بها إلا بعد انفصالهم مما هم فيه، وكل منهم مجتهد في الدفع عن نفسه، كارهٌ للموت أن يترل به!

فكيف بمن يشتد غضبه لله، ويخرج عن نفسه إلى الله، ويتمنى الشهادة عند الله، ويعدُ ما أصابه مـــن فضـــل الله، ويشهد بقوة نور الإيمان ما أعد الله للشهداء والجرحى في سبيله من الفضل الجزيل، شهوداً محققاً لا علماً مجرداً؟!

ومما يتفق مع هذا ما قاله أنس بن النضر رضي الله عنه يوم أحدٍ: واهاً لريح الجنة، إني لأجد ريحها دون أحد!! ثم انغمس في المشركين حتى قتل.

ونقل عن امرأة فتح الموصلي أنها عثرت رجلُها، فطار ظفرها، فضحكت! فقيل لها: يذَهبُ ظفرُك وتضـــحكين؟ قالت: إن حلاوة الأجر أذهبت عني مرارة الألم!!

وروي أن رجلَ حتاش بن قيس القشيري قد قطعت في معركة اليرموك، وهو يقاتل الروم، وقد قَتلَ كثيرين، فلم يشعر بقطعِ رجله! إلاّ بعد انتهاء المعركة.

الباب الثالث والعشرون

في فضل من قتل كافراً في سبيل الله

قال الله تعالى: (وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) [النساء: ٧٤].

وقال تعالى: (فَإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ...) [محمد: ٤].

١٥٩ - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ولا يجتمعُ كــافرٌ وقاتلُه في النار أبداً "[١].

وقال سلمان بن ربيعة الباهليُّ رضي الله عنه: قتلتُ بسيفي هذا مائة مُستلِئم، كلهم يعبدُ غيرَ الله، ما قتلتُ منهم رجلاً صبراً.

المُستلِئم هو الذي يَلبَسُ لأمَتُه. والأَمَةُ هي الدرع والمغفَرُ وغيرهما.

وقد ولى عمر بن الخطاب سلمان بن ربيعة الباهلي رضي الله عنهما قضاء الكوفة، ثم ولاّه عثمان بن عفان غــزو أرمينة، فاستشهد بها [٢].

وقال محمد بن سيرين: استلقى البراء بن مالك رضي الله عنه على ظهره، فترنَّم، فقال له أنس: اذكر الله يا أخي.

فاستوى البراءُ جالساً، وقال: أي أنس ابن أبي!! إني لا أموت على فراشي وقد قتلت مائةً من المشركين مبــارزة، سوى ما شاركت في قتله.

---

[١] أخرجه مسلم برقم: ١٨٩١.
[٢] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/٣٢٠.

وفي رواية ثانية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : تمثلَ البراء بن مالك ببيتٍ من الشعر، فقلت له: أي أخي: تمثلَت ببيت شعرٍ لعلَّه اَخرشيء تتكلم به!

قال: إنني لا أموتُ على فراشي، لقد قتلت من المشركين والمنافقين مائة رجل [١].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب: لا تستعملوا البراء بن مالك على جيش، فإنه مهلكة من المهالك يقدُمُ بهم [٢].

وفي معركة اليمامة حملوا البراء بن مالك في تُرْس على الرماح، واقتحم على جيش مسيلمة السور، وقاتلهم وفتح الباب، وجرح يومئذ بضَعاً وثمانين جرحاً [٣].

ولما حارب المسلمون الفرس في مدينة " تُشتَر" طلب المسلمون من البراء بن مالك رضي الله عنه أن يدعو الله لهم، وكان مُجابَ الدعوة.

فدعا البراءُ ربَّه قائلاً: أُقسِم عليك يا رب لما نصرْتَنا عليهم، ومنَحْتَنا أكتافَهم، وألحقتَني بنبيك، وحملَ وحملَ الناسُ معه!! فانهزم الفرس، واستشهد البراء في ذلك اليوم رضي الله عنه.

وكان البراء بن مالك رضي الله عنه حريصاً على الجهاد، زاهداً في الزعامة عازفاً عنها.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما بُعِثَ أبو موسى الأشعري على البصرة كان ممن بعث معه البراء بن مالك، وكان البراء من وزراء أبي موسى. وكان أبو موسى يقول للبراء: اختر من عملي ما تشاء.

فيقول البراء: أما إني لا أسألك إمارةً ولا جباية، ولكن أعطني قوسي ورُمحي وسيفي ودرعي والجهادَ في سبيل الله ! [٤].

---

[١] المرجع السابق: ٥ /٣١٢.
[٢] المستدرك للحاكم: ٣/٢٩١.
[٣] الإصابة لابن حجر: ١/١٤٣.
[٤] مصنف ابن أبي شيبة: ٥/٣١٢.

١٦٠ - وروى أبو داود والحاكم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين:" مَن قَتلَ قتيلاً فله سَلَبُه ".

فقتل أبو طلحة رضي الله عنه يومئذٍ عشرين رجلاَ من المشركين، وأخذ أسلابهم [١].

وروى أبو الحسن المرادي عن علي بن بكار قال: لقد رأيت رجلاً من المجاهدين ببلاد الروم، وإنَّ أمعاءهُ على قُربوس سرجهِ، فأدخلها بطنه، ثم شدَّ بطنه بعمامة، ثم قاتل فقتل بضعة عشر علْجاً من الروم !!.

[١] أبو داود: ٣/ ١٦٢. والحاكم: ٣/ ٢٩٢ الحديث صحيح.

الباب الرابع والعشرون

في فضل انغماس الرجل الشجيع أو الجماعة القليلة في العدو الكثير رغبة في الشهادة ونكاية في العدو

قال الله تعالى: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة: ٢٤٩].

وقال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) [البقرة:٢٠٧].

ومعنى " يَشري " هنا: يَبيع.

وهذا كقوله تعالى: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ...) [يوسف: ٢٠]. أي: باعوه. وجمهور العلماء أنَّ هذه الآية نازلةٌ في صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، وكان قد أسلم بمكة، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة لحق بهم صهيبٌ مهاجراً.

فلحق به نفرٌ من المشركين ليثنوه عن الهجرة. فترل عن راحلته، وانتشل ما في كنانته، وأخذ قوسه. وقال لهم: لقد علمتم أني من أرماكم، وأيمُ اللهِ لا تَصلون إليَّ حتى أَرميكم بكل سهمٍ في كنانتي، ثم أَضربُ بسيفي ما بقيَ في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتُم بعد ذلكَ!

قالوا: لا نتركُك تذهبُ عنا غنياً، وقد جئتنا صعلوكاً، ولكن دُلَّنا على مالك بمكة، ونُخلّي عنك. ففعل!

فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ)

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ربح البيعُ أبا يحيى، وتلا عليه الآية.

ومع أن الآية نازلة في صهيب رضي الله عنه إلا أنها ليست خاصة به :

قال الحافظ ابن كثير الدمشقي في تفسيره: وأما الأكثرون، فحملوا ذلك على أن الآية نزلت في كل مجاهدٍ يبيع نفسه لله، ويجاهد في سبيله، وذلك لقوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) [التوبة: ١١١] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّه): المجاهدون قد شَرَوْا أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله، والقيام بحقه، حتى هلكوا ولقوا الله.

وكان الصحابة يحملون على الأعداء بائعين أنفسهم لله:

حمل هشام بن عامر الأنصاري رضي الله عنه بين الصفين، وأنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة رضي الله عنهما، وغيرهما، وتلوا هذه الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّه) [١] .

قال مُدْرِكُ بن عوف الأحمسي: كنت عند عمر رضي الله عنه، إذ جاءه رسول النعمان بن مقرن رضي الله عنه.

فسأله عمر عن الناس: فقال: أُصيبَ فلان وفلان، وآخرون لا أعرفهم! فقال عمر رضي الله عنه: ولكنَّ الله يعرفُهم. فقال: يا أميرَ المؤمنين: ورجل شرى نفسه لله. فقال مُدْرِكُ بن عوف : ذاكَ والله خالي يا أمير المؤمنين. وقد زعمَ الناس أنه ألقى بيده إلى التهلكة! فقال عمر: كذب أولئك. ولكنه ممن اشترى الآخرة بالدنيا [٢] .

خرج ابن أبي شيبة في المصنف قال: جاءت كتيبة من كتائب الكفار من قبل المشرق، فلقيهم رجل من الأنصار، فحمل عليهم، فخرق الصفَّ، حتى خرج، ثم كَرَّ راجعاً، صنعَ ذلك مرتين أو ثلاثاً.

فذكر سعد بن هشام الأنصاري ذلك لأبي هريرة رضي الله عنه، فتلا أبو هريرة قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّه) [٣] .

خرَّج الحاكم في المستدرك عن أبي إسحاق السبيعي قال: سأل رجل البراء بن عازب رضي الله عنه قائلاً: يا أبا عمارة: قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) هل هو في الرجل يلقى العدوَ فيقاتل حتى يُقتل؟

---

[١] تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٢٤٧.
[٢] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/٣٠٣، وسنده صحيح.
[٣] المرجع السابق: ٥/٣٢٢، وإسناد ه صحيح.

قال: لا. ولكن الآية في الرجل يذنب الذَّنْب، فيقول: لا يغفرُهُ الله لي [1]!

وفي روايةٍ أخرى: قال رجلٌ للبراء بن عازب رضي الله عنه: إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني، أكنتُ ألقيت بيدي إلى التهلكة؟

قال: لا. فإنَّ الله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ) [النساء: ٨٤].

إنما هذه الآية في النفقة.

وفي روايةٍ ثالثة أن الرجل قال للبراء بن عازب رضي الله عنه: هل هو الرجل يحمل على الكتيبة وهم ألفٌ والسيف بيده، فيكون قد ألقى بيده إلى التهلكة؟

قال البراء: لا. ولكنه الرجل يصيب الذنب، فيُلقي بيده، ويقول: لا توبة لي.

روى الترمذي وأبو داود والحاكم وابن حبان عن أسلم بن يزيد التجيبي - أبي عمران - قال : كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم وأكثر. وعلى أهل مصر عقبةُ بن عامر، وعلى الجماعة فضالةُ بن عبيد.

فحمل رجلٌ من المسلمين على صفِّ الروم، حتى دخل بينهم، فصاح الناس، وقالوا: سبحان الله: يلقي بيده إلى التهلكة!

فقام أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال: أيها الناس: إنكم لَتأوِّلون هذا التأويل. وإنما نزلت هذه الآَية فينا معشر الأنصار. لّما أعزَّ الله الإسلام، وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سِرّاً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعَز الإسلام وكثُرَ ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاعَ منها !

---

[1] المستدرك للحاكم: ٢: ٢٧٥-٢٧٦.

فأنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يَرُد علينا :(وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة..).

فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وترك الغزو!

فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله، حتى دُفِن بأرض الروم ! [1].

قد أورد البيهقي الحادثة، وبوبَ لها :" باب جواز انفراد الرجل والرجال بالغزو في بلاد العدو، استدلالاً بجـواز التقدم على الجماعة، وإن كان الأغلب أنها ستقتلُه " [2].

روى البيهقي عن مجاهد قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود وخباباً سـريّةَ، وبعـث دحية بن خليفة الكلبي سريّةَ وحده [3].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية ورجلاَ من الأنصار سرية وبعث عبد الله بن أنيس سـريةً وحده [4].

١٦١ - وروى البخاري ومسلم عن يزيد بن أبي عبيد قال: قلتُ لسلمةَ بن الأكوع رضي الله عنـه: علـى أي شيء بايعتم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم؟

قال: على الموت.

١٦٢ - وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضيِ الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله: غبت عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين، ليرَيَنَّ الله ما أصنع.

---

[1] سنن الترمذي: ٤/٢٨٠. وسنن أبي داود: ٣/ ٢٧. ومستدرك الحاكم: ٢/ ٢٧٥، والحديث صحيح.
[2] السنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ٩٩.
[3] المرجع السابق: ٩ / ١٠٠، وسنده صحيح.
[4] المرجع السابق: ٩ / ١٠٠، وسنده صحيح.

فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني اعتذرُ إليك مما صنعَ هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم للمعركة، فاستقبله سعد بن معاذ: فقال: يا سعد بن معاذ : الجنة ورب النضر، إني أجدُ ريحها دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله أن أعرف ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربةً بسيف، أو طعنة برمح، أو رميةَ بسهم، ووجدناه قد قُتِل، وقد مَثلَ به المشركون. فما عَرَفَهُ أحدٌ إلا أُخته ببنَانه. وكنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه، وفي اشباهه من المؤمنين: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) [1] [الأحزاب: ٢٣].

١٦٣ - وروى ابن أبي شيبة أنَّ معاذ بن عُفْراءَ رضي الله عنه قال: يا رسول الله: ما يُضحكُ الرَّبَّ من عبده؟

قال: غمسُهُ يَدَه في العدوّ حاسراً.

فألقى درعاً كانت عليه وقاتَلَ حتى قُتل ! [2]

١٦٤ -وروى أحمد وابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" عَجِبَ ربنُا من رجلين: رجل ثارَ عن وطأِته ولحافهِ من بين أهلِه وحبِّه إلى صلاته. فيقولُ الله عز وجل: انظروا إلى عبدي ثارَ عن فراشِه ووطأتِه من بين حِبّه وأهلِه إلى صلاته، رغبةَ فيما عندي، وشفقةً مما عندي.

ورجل غزا في سبيل الله، فانهزَمَ أصحابهُ، وعلمَ ما عليه في الانهزام، ومالَه في الرجوع، فرجعَ حتى أريق دمُه. فيقول الله: انظروا إلى عبدي، رجعَ رجاءً فيما عندي، وشفقةَ مما عندي، حتى يُريق دَمه "[3].

ولو لم يكن في الباب إلا هذا الحديث الصحيح لكفانا في الاستدلالِ على فضلِ الانغماس في العدو.

---

[1] أخرجه البخاري برقم: ٤١٦٩. ومسلم برقم: ١٨٦٠.
[2] المصنف لابن أبى شيبة: ٥/٣٣٨.
[3] مسند أحمد: ٦/ ٢٢. ومصنف ابن أبي شيبة: ٣١٣/٥، وإسناده صحيح

ومن روائع الأمثلة على انغماس المجاهد في جيش العدو قصةُ سلمة بن الأكوع رضي الله عنـــه. **١٦٥** - وروى مسلمٌ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قدمنا المدينة زمن الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وســـلم ، فخرجتُ أنا ورباح - غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم - بظهر رسول الله صلى الله عليه وســلم، وخرجــت بفرسِ لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، أريد أن أُندَّيه مع الإبل.

فلما كان بغلسٍ أغار عبد الرحمن بن عيينة على إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَقَتَــل راعيهــا، وخـــرجَ يطردُها هو وأُناسٌ معه في خيل.

فقلت: يا رباح، اقعد على هذا الفرس فألحقه بطلحة، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنــه أغــير علــى سرحه!

وقمت على تل، وجعلت وجهي من قبل المدينة، ثم ناديت ثلاث مرات: يا صُباحاه!!

ثم اتبعت القوم، معي سيفي ونبلي، فجعلت أرميهم، وأعقر خيلهم، وذلك حين يكثر الشجر، فاذا رجــع إلــيَّ فارسٌ جلست له في أصل الشجرة، ثم رميته، فلا يقبل عليَّ فارس إلاَّ عقرت به فرسه.

فجعلت أرميهم وأنا أقول: أنا ابن اكوع، اليوم يوم الرُّضع!

كنت ألحق بالرجل منهم، فأرميه وهو على رحله، فيقع سهمي فيه، وينتظم كتفه، فأقول: خــذها، وأنــا ابــنُ الأكوع، اليوم يومُ الرّضع! وإذا كنت في الشجر كنت أحرقهم بالنبل، وإذا تضايقت الطرق والثنايا، كنت اعلــو الجبل، وأرديهم بالحجارة.

فما زال ذلك شأني وشأنهم، أتبعهم وأرتجز، حتى استنقذت منهم جميع سرح وظهر رسول الله صــلى الله عليــه وسلم، تركوه وهربوا، فخلَّفته وراء ظهري.

ولحقت بهم، ولم أزل أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً، وأكثر من ثلاثين بردة، لتخفَّ حركتــهم وهــم هاربون، وكانوا لا يلقون شيئاً إلاّ جعلت عليه حجارة، وجمعته على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حتى إذا اشتدّ الضحى أتاهم عيينة بن بدر الفزاري مدداً لهم، وهم في ثنية ضَيِّقَة!

ثم علوتُ الجبل، وصرت فوقهم. ورآني عيينة، فقال لهم: ما هذا؟

قالوا: له: لَقينا من هذا الرجل الشدة والبَرَح! إنه لم يفارقنا منذ السَّحَر حتى الاَن، وقد أخذ كل شيء في أيدينا، وجعله وراء ظهره.

قال: لولا أنه يرى وراءه مدداً من أصحابه لتركهم، ليقم إليه نفرٌ منكم! فقام إليَّ نفرٌ منهم أربعة، فصعدوا في الجبل، ولما كانوا قريبين منّي بحيث يسمعون صوتي قلت لهم: أتعرفوني؟

قالوا:ومَنْ أنت؟

قلت: أنا ابنُ الأكوع، والذي كرّم وجه محمد صلى الله عليه وسلم، لا يطلبني أحدٌ منكم ويدركني، ولا أطلب أحداً منكم فيفوتني!

فقال رجل منهم: إني أظنُ ذلك!

وما برحت مكاني ذلك، حتى نظرت إلى فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم، يمشون خلال الشجر. وكان أوَّلُهم الأخرم الأسديَّ، وعلى إثره أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فترلت من الجبل، وعرضت للأخرم الأسدي رضي الله عنه، وأخذت عنان فرسه، وقلت: يا أخرم: إحذر القوم، فإني لا اَمن أن يهجموا عليك فاتئِدْ ولا تتعجّل! حتى يلحق بك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه!

قال: يا سلمة: إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أنَّ الجنة حقّ والنار حق، فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة!

فخليت عنان فرسه، فلحق بعبد الرحمن بن عيينة، وعطف عليه عبد الرحمن، فاختلفا طعنتين، فعقر الأخرم بعبد الرحمن، ولكن عبد الرحمن طعنه فقتله! وتحوّل عبد الرحمن إلى فرس الأخرم وركبه !

ولحق أبو قتادة رضي الله عنه بعبد الرحمن بن عيينة، فاختلفا طعنتين، فعقر عبد الرحمن بأبي قتادة، ولكن أبا قتادة قتل عبد الرحمن، وتحول أبو قتادة إلى فرس الأخرم فركبه. وهرب المشركون، فخرجت أعدو في أثرهم، وأبتعدنا كثيراً، حتى إنني لا أرى شيئاً من غبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وذهبوا قبل غياب الشمس إلى شعب فيه ماء، يقال له: " ذو قَرَد ". وأَرادوا أن يشربوا منه، فأبصروني أعدو وراءهم، فتركوا الماء وولوا هاربين، وغربت الشمس!

ولحقت رجلاً منهم، ورميته، وقلت: خذها وأنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرّضع!

فقال: يا ثكل أُمي. الأكوعُ الذي يرمينا منذ الصباح؟

قلت: نعم، يا عدوَّ نفسه.

فرميته بسهم، وأتبعته سهماً آخر، فعلق به السهمان!

وهرب القوم، وخلَّفوا وراءهم فرسين.

فجئت بالفرسين أسوقهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجدته صلى الله عليه وسلم مع أصحابه على ماء " ذي قَرَد " وكان صلى الله عليه وسلم في خمسمائة من أصحابه. وكان بلالٌ رضي الله عنه قد نحر جَزوراً مما خلَّفت ورائي، وأخذ يشوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كبدها وسنامها.

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله؛ خَلِّني أنتخب من أصحابك مئة، فآخذ على الكفار بالعشوةِ ليلاً، فلا يبقى منهم حيٌّ إلا قتلته!

قال: كنتَ فاعلاً ذلك يا سلمة؟

قلت: نعم، والذي أكرمك.

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى رأيت نواجذه في ضوء النار..

.. ولما أصبحنا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خَيرُ فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رَجّالتنا سلمة!

فأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم الفارس والراجل جميعاً! [1]

وفي هذا الحديث الصحيح الثابت أدلٌّ دليلٍ على جواز حمل الواحد على الجمع الكثير من العدو، وإن غلب على ظنه أنه يقتل، لأنه بذلك يطلب الشهادة. كما فعل الأخرم الأسديُّ رضي الله عنه، ولم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينه الصحابة عن مثل فعله.

بل في الحديث دليلٌ على استحباب ذلك الفعل وفضله، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد مدح أبا قتادة وسلمة على فعلهما، مع أنَ كلاً منهما قد حمل على العدو وحده، ولم ينتظر إلى أن يلحق به المسلمون!

وفي الحديث دلالةٌ على أنه يجوز للإمام أو غيره ممن له دالةٌ على الشخص الذي يحمل نفسه على العدو، أن يمنعه شفقةً عليه، وله أن يطلقه ولا يحول بينه وبين ما يريد، إذا علم منه صدق القصد، وتصميم العزم، وإخلاص النية في طلب الشهادة.

وهذا ما فعله سلمة بن الأكوع مع الأخرم الأسدي رضي الله عنهما، ولم ينكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم منعه ولا إطلاقه للأخرم.

وقد كان الكفار الذين لحق بهم سلمة بن الأكوع رضي الله عنه جمعاً كثيراً، بدليل أنه طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار مائةً من أصحابه ليلحق بهم، ولو لم يكونوا جمعاً كثيراً لما طلب سلمة مائةً من الصحابة المنتخبين، ومع ذلك حمل عليهم سلمة وحده!

وخرَّج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن عقبة بن قيس الكلابي أنَّ رجلاً من المسلمين قال لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يوم اليرموك: إني قد أجمعت أمري أن أشدَّ عليهم. فهل توصوني إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم بشيء؟

[1] أخرجه مسلم برقم: ١٨٠٧.

فقال أبو عبيدة: تُقْرِؤُه السلام، وتُخبرُه أنّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقاَ.

وخرَّج ابن عساكر أيضاً عن محمد بن إسحاق في فتوح الشام وحصار دمشق أنه: جاء رجلٌ من المسلمين على فرسٍ له، حتى انتهى إلى نهرِ دون مدينة حمص، مما يلي دير مسحل. فانتهى إلى الماء فسقى فرسه!

وجاءه نحوٌ من ثلاثين رجلاً من الكفار من أهلِ حمص، فلما رأوه وحيداً أقبلوا عليه يحاربونه.

فأقبل الرجل عليهم، وعبر بفرسه الماءَ إليهم، وحمل عليهم.

قتل منهم الأول، والثاني، والثالث، وهَربوا فلحقهم يقاتلهم، حتى انتهى إلى دير مِسحَل، وقتلَ منهم أَحَدَ عشر رجلاَ.

ولحق بهم يقاتلهم في جوف الدير، فرماه أهلُ الدير بالحجارة حتى قتلوه. وروى الحافظ أبو الحجاج المزّي عن العلاء بن سفيان الحضرمي قال: غزا " بُسْرُ بن أرْطاة " رضي الله عنه الروم، وصار الرومُ يكمنون لساقةِ الجيشِ المجاهد، ويُصيبون منهم. ولما رأى بَسْرُ بن أرطاة ذلك، أخذ معه مائةً من أصحابه، وراح يبحث عن الكمائن الرومانية.. وانفرد يوماً في بعض أودية الروم، ورأى في الوادي كنيسة، ورأى نحو ثلاثين برذوناً مربوطة بجانب الكنيسة، وكان فرسان تلك البراذين داخل الكنيسة، وهم الذين كانوا يكمنون الكمائن للمسلمين.

توجَّه بسْرُ بن أرطاة نحو الكنيسة، ونزلَ عن فرسه وربطه بجانب البراذين، ثم دخل الكنيسة، وأغلق عليه وعلى الفرسان باب الكنيسة!

وعجب فرسان الروم من إغلاق الباب، وفوجئوا به يهجم عليهم، وما أن أخذوا سلاحهم حتى كان قد قتل منهم ثلاثة، واشتبك معهم!

وفقده أصحابه، وبحثوا عنه ورأوا فرسه عند الكنيسة، فتوجَّهوا نحوها، وسمعوا الجلبةَ وصوتَ السلاح في الكنيسة، وأرادوا ا لدخول، لكن بابها مغلق من الداخل، فقلعوا بعض السقف ونزلوا عليهم!

ورأوا قائدهم ممسكاً بطائفة من أمعائه بيده اليسرى، وهويقاتلهم بالسيف بيده اليمنى! ولما دخل أصحابه الكنيسة سقط بُسر مغشياً عليه، وتغلَب المسلمون على فرسان الروم فقتلوا بعضهم وأسروا الباقين!

وقال الأسرى الروم للمسلمين: ننشدكم بالله: مَن هذا الرجلُ الذي هجم علينا وحدَه وقاتلنا؟

قالوا: هذا بُسرُ بن أرطاة!

قالوا: والله ما ولدت النساءُ مثلَه!!

وردّوا أمعاءَه في جوفه، ولم ينخرق منه شيء، ثم عَصبوه بعمائمهم، وبعد ذلك خاطوا بطنه فسلم وعوفي، واستأنف الجهاد، رضي الله عنه!!

وروى البيهقي أنَّ البراءَ بن مالك رضي الله عنه اشترك في معركة اليمامة، وهجم مع المسلمين على الحديقة، التي كان يتحصَّنُ فيها مسيلمة الكذاب، وكانت المعركة حول الحديقة شديدةً عنيفة.

وطلب البراء من أصحابه أن يحملوه في ترسٍ على الرماح، وأن يلقوه على الكفار من فوق السور! وألقوه من فوق السور، وصار داخل الحديقة وحده، و قاتل الكفار قتالاً شديداً، وقتل منهم عشرة، وتمكَن من فتح الباب، وجرح في جسمه بضعاً وثمانين جرحاً! ولم ينكر عليه فعله أحدٌ من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين. وروى ابن عساكر عن الوليد بن مسلم قال: أخبرني شيخ من أهل حمص، أنه أدرك بها رجلاً رومياً من فرسان الروم الذين كانوا بحمص، وكان هذا الرجل أعور.

فقيل له: سلْهُ عن سببِ عَوَرِه؟

ولما سألتُه قال: لما سارَ المسلمون إلى حمص نزلوا بحيرةً على نهر العاصي - نهر الأُرُنْد - فبعثني بطريق حمص في ثلاثين رجلاً من فرسانه، وأمرنا أن نسير بمحاذاة النهر حتى ندنو من عسكر المسلمين، فلعلَنا أن نأتيه بأسيرٍ أو خبر..

فخرجنا، فسرنا بمحاذاة النهر.. ولما دنونا من عسكر المسلمين رأينا رجلاً منهم على ضفةِ النهر الأخرى، يسقي فرسه من النهر، ورمحُه إلى جانبه، فلما رآنا وضع سرجه على فرسه وركب، وتناول رمحه، فظنّنا أنه قد هرب منا وأراد أن يعود إلى المسلمين!

ولكنه خاض الماء بفرسه، وتوجَّه إلينا، فجعلنا نتعجب من جرأته على النهر وعلينا.. فخرجت به فرسه من النهر، وانتفضت به، فلما انتهى إلى الجرف الذي يلينا، أراد فرسه على الوثوب به، فلم يتهيأ لها، فقام عن سرجه، ووضع الرمح، فاتكأ عليه، ووثب، فإذا هو فوق الجرف.. وصاحَ بالفرس، فإذا هي معه، فوثبَ عليها، ثم أَقبلَ إلينا.. التفَّ بعضنا إلى بعض، وشدَّ علينا، ففرَّق بيننا، وقتل رجلاً منا، فالتفَّ بعضنا إلى بعض، لكنه شدَّ علينا، ففرَّقَ بيننا، وقتل رجلاً آخر منا، وفعل ذلك مراراً، وقتل منا رجالاً. فلما رأينا ذلك ولّينا منهزمين إلى المدينة، فلحق بنا، وكلما أدرك رجلاً منّا قتله، حتى قتل تسعة وعشرين رجلاً، ولم يبق من الثلاثين أحدٌ غيري.

واقتربنا من باب حمص، وهو يلحقُني، ورأى الحراس على برج الباب ما كان يصنع، فأخرجوا الفوارس لقتاله، ولما رأيت الفرسان متوجهين إليه، ظننت أنه قد هابهم وانصرف، فالتفتُّ إليه لأعرف ما صنع، فإذا سنانُ رمحه في عيني فقلَعَها!

والتفَّ به الفرسان الكثيرون فقتلوه!! وأقبل جماعة من فرسان المسلمين فوجدوه صريعاً، ودخلنا المدينة، وحمل المسلمون الرجل ودفنوه!!.

١٦٦ - وروى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي رافع اليهودي عبد الله بن عتيك وعبد الله بن عتبة، في ناسٍ من الصحابة، فانطلقا حتى دَنوا من الحصنِ.

فقالَ لهم عبدُ الله بن عتيك: امكثوا حتى أنطلقَ أنا فأنظر.

قالَ ابنُ عتيك: فتلطَّفْتُ أنْ أدخلَ الحصن، ففقدوا حماراً لهم، فخرجوا بقبَسٍ يطلبونَه، فخشيتُ أنْ أُعرف، فغطَّيتُ رأسي، كأني أقضي حاجة.. ثم نادى صاحبُ الباب: مَن أرادَ أنْ يدخلَ فليدخل قبلَ أنْ أُغلقه. فدخلْتُ ثم اختبأتُ في مربطِ حمارٍ عند باب الحصن..

فتعشوا عند أبي رافع، وتحدَّثوا حتى ذهبت ساعةٌ من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتِهم، حتى إذا هدأت الأصوات، ولم أَعُدْ أسمعُ حركة، خرجْتُ.

ورأيتُ صاحبَ الباب عندما وضعَ مفتاحَ الحصن في كوةٍ عند الباب، فأخذْتُ المفتاح، ثم فتحتُ بابَ الحصن.. وعدتُ إلى بيوتهم فغلَّقتُ أبوابَها من الخارج.

ثم صعدتُ إلى أبي رافع في سُلَّم، فإذا البيتُ مظلمٌ قد طفيء سراجُه، فلم أدر أينَ الرجل.

فقلت: يا أبا رافع؟

قال: مَن هذا؟

فعمدتُ نحو الصوت وضربتُه، فلم تُغْنِ عَنّي شيئاً!!

ثم جئتُ كأني أغيثُه. فغيَّرتُ صوتي وقلتُ: مالَكَ يا أَبا رافع؟

قال : ألا يعجبكَ لأمكَ الويل! دخلَ عليَّ رجل، فضربَني بالسيف!

فعمدت له أيضاً، فضربتُه ضربةَ أخرى! فلم تُغنِ شيئاً فصاح، وقامَ أهلهُ.

ثم جئتُ وغَيّرتُ صوتي كهيئةِ المغيث، وإذا هو مستلْقٍ على ظهره، فوضعْتُ السيفَ في بطنه، ثم انكفأت عليه حتى سمعتُ صوتَ العظم!!

ثم خرجتُ دَهِشاً، حتى أتَيتُ السُّلَمَ، أريدُ أنْ أنزل، فسقطتُ منه، فانخلَعَتْ رجلي، فعصَبتُها، ثم أُتيتُ أَصحابي أَحجِلُ!!

وقلتُ لأصحابي: إني لا أَبرحُ حتى أسمعَ الناعية.. ولما كان وجهُ الصبح صعدَ الناعية فقال: أنعي أبا رافع!

فأدركْتُ أصحابي. وانطلَقْنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبرتُه بمقتل أبي رافع، وأريته رجلي المكسورة. فقال صلى الله عليه وسلم: ابسط رجلك فبسطتها. فمسحها، فكأني لم أشتكها قطّ! [١]

وروى ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا حدرَد الأسلميِّ رضي الله عنه ورجلين من الصحابة ليس معهم رابع، إلى معسكرٍ عظيم من المشركين، يعسكرون حول المدينة، ويُريدون أن يغيروا عليها.

وتمكَّن أبو حدرد الأسلمي من قتل زعيمِ المشركين ، وهَزَمَ الله الجيش، وأخذ أبو حدرد غنيمة عظيمة من المشركين، ومن الملاحم الكبرى: ملحمة القادسية في العراق، كان المسلمون فيها أكثر من سبعة آلاف، عليهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكان الكفار أكثر من أربعين ألفاً، وعليهم رستم زعيم الفرس.

وذكر الطَّرطوشي في كتابه " سراج الملوك " أن عمرو بن معدي كرب نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إنّي عابرٌ على الجسر، فإن أسرعتَم مقدار ذبح جزور، وجدتموني وسيفي بيدي. أقاتل تلقاء وجهي، وقد عفرني القوم، وأنا قائم بينهم.. وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم!! ثم عبر الجسر، وحمل على الفرس، وانغمس فيهم..

فقال بعض المسلمين لبعض: يا بني زبيد: علام تدعون صاحبكم؟ والله ما أرى أن تدركوه حياً.

فحملوا، فانتهوا إليه، وقد صُرِعَ عن فرسه، وأمسك برجلي فرس رجلٍ من العجم، وإن الفارس العجميَّ ليضرب فرسه ليجري، فما يستطيع الفرس أن يجري أو يتحرك، لأنَّ عمرو بن معدي كرب ممسكٌ برجليه.

فلما وصله المسلمون انفضَّ عنه الفرس، وهرب الرجل صاحب الفرس! فركبة عمرو بن معدي كرب.

ثم قال للمسلمين: أنا أبو ثور. كدتم والله أن تفقدوني!!.

٢١ - وذكر الطرطوشيُّ في سراج الملوك أن طارق بن زياد دخل الأندلس في ألفٍ وسبعمائة رجل، وكان " تذفير" نالْباً عن " لَذْريق "، فقاتل الإسبان ثلاثة أيام، ولم يؤثِّر فيهم!

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٤٠٤٠.

فكتب إلى لذرِيق: أنه قد وصل إلينا قومٌ ما أعلم من الأرض هم أم من السماء؟ وقد قاتلناهم ولا طاقة لنا بهـم. فأدركنا بنفسك!

فأتاه لذريق في تسعين ألف فارس، فقاتلوا المسلمين ثلاثة أيام، واشتدَّ بالمسلمين البلاء!

وخطب طارق بالمسلمين، فقال: إنه لا ملجأ لكم إلاّ الله، والاستبسالُ بالقتال. أين تـذهبون وأنـتم في وسـط بلادهم؟ والبحر من ورائكم محيطٌ بكم!

إنه ليس أمامنا إلاّ النصر أو الموت! وسأحمل أنا على طاغيتهم لذريق، فإذا حملتُ عليه فاحملوا أنتم عليهم !

ففعلوا ذلك، وقتل طارق لذريق، وقُتِلَ جمعٌ كبيرٌ من جيشه، وهزم الله الكفار، ولحقهم المسلمون ثلاثـة أيـام لقتلوهم قتلاَ ذريعاً.. ولم يقتل من المسلمين إلا عددٌ قليل.

ومن المعارك الفاصلة التي انغمس فيها جماعةٌ قليلة من المسلمين في عددٍ كبير من المشركين معركة " مَلاذكُرْد ". وقد أوردها المؤرخون المسلمون، منهم الطرطوشي في سراج الملوك.

وكان قائد المسلمين في المعركة الملك " أَلْبَ أَرْسَلان ". وخاضَ المعركة ضد ملك الروم.

وقد أعدَّ ملكُ الروم لهذه المعركة إعداداً خاصاً، وخرجَ بأكثر من ستمائة ألفِ من الروم، وقد أعدوا من السلاح مالا يوصف، وتفاءلوا بالانتصار على المسلمين، حتى إنهم وَزَّعوا بينهم بلدان وأقطار المسلمين، بحيث أعطوا لكـل زعيمٍ من زعماء الروم إقليماً من أقاليم بلاد المسلمين ! وكان الملك ألب أرسلان التركيُّ سلطان العراق والعجـم، ولما سمع بحشود الروم جمع وجوه بلاده ليستشيرهم.

وفَوَّضوا الأمر إليه، وقالوا: رأينا تبعٌ لرأيك، وهذه الجموع لا قبلَ لأحدٍ بها.

قال لهم: وأين المفر؟ لم يبق إلاّ الموت، فموتوا كراماً فهو خيرٌ لكم!

واتخذ معهم قراراً بملاقاة الروم، بمن معه من الرجال الجاهزين للقتال ، وكانوا حوالي عشرين ألفاً من المجاهدين!

ولما واجه المسلمون الروم رأوا ما أذهل العقول وحيَّر الألباب، وكان المسلمون كالشـامةِ البيضـاء في الثـور الأسود!

وقال ألب أرسلان: أريد أن لا أقاتلهـم إلاّ بعد الزوال عند خطبة الجمعة.

قالوا: ولِمَ؟

قال: لأنه لا يبقى في هذه الساعة منبر من المنابر على وجه الأرض، إلا دَعَوا لنا بالنصر.

ولما زالت الشمسُ وقتَ صلاة الظهر، قال لجنوده: لِيُودِّع كل واحدٍ صاحبه، ولْيوص وصيَّته. وإني عازمٌ على أن أحمل على الروم، فاحملوا معي.

واصطفَّ الرومُ عشرين صَفاً، لا يرى طَرَفا كلِّ صفٍّ لكثرةِ عددهم.

وتقدَّم الملكُ ألب أرسلان جنوده، وحملوا جميعاً على الروم هجمة رجلٍ واحد، وفوجئوا بهجومهم..

واخترق المسلمون صفوف الروم صفاً صفاً، حتى انتهوا إلى السرادق الذي فيه ملك الروم! وما كان يظـن أن يصل إليه المسلمون، وقبضوا عليه وقتلوا كل من كان حوله، وقطعوا رأس أحدِهم، ورفعوها على الرمح، وقـالوا: لقد قُتِلَ الملك!

وسمع الروم ذلك فولّوا منهزمين، لا يلوون على أحد، ونصر اللهُ المسلمين نصراً مؤزراً، وحكَموا فيهم السـيف أياماً، وقتلوا منهم مَنْ قتلوا، وأسروا من أسروا.

وجيءَ بملكِ الروم إلى الملكِ ألب أرسلان، وفي عنقه حبل. فقال له أرسلان: ما كنت صانعاً بي لو ظفرتَ بي؟

أجابه: أو كنت تشكُّ في قتلي لك يومئذ؟

قال أرسلان: أنت أقلُّ في عيني من أن أقتلك؟

وقال لجنوده: اذهبوا فَبيعوه! وطافوا به في العسكر، و الحبلُ في رقبته، يُنادى عليه بالـدراهم والفلـوس. فمـا يشتريه أحدٌ من المسلمين، و لا يدفعُ له ثمناً، لهوانه عليهم. ورأوا رجلاً في آخرالعسكر، فقال: إن بعتمونيـه بهـذا الكلب اشتريتُه!!

فأخذوه وأخذوا الكلب، وأتوا بهما إلى ألب أرسلان، وأخبروه بما حصل، وأنه لم يعرض أحـدٌ أن يشـتريه، إلاّ رجل عرض أن يدفع ثمنه كلباً!!

فقال ألب أرسلان: الكلبُ خيرٌ منه، لأن الكلب ينفع، وهذا لا ينفع.

وبعد ذلك أمر ألب أرسلان بإطلاق سراح ملك الروم، وأمر به من يوصله إلى بلاده. فلما وصل عزله الـروم وولوا ملكاً مكانه!!

وأخرج ابن عساكر عن الزبير بن بكار عن بعض أهل البادية قال: كان عبد العزيز بن زرارة الكلابي رجلاً شريفاً ذا مال كثير، وأنه أشرف عيشه فواجهه مال كثير، فقال: اللهمَّ إنَّ عبد العزيز يشهدك أنه قد حبس ماله ونفسـه وأهلة في سبيل الله!

ثم أتى أباه، فقال: يا أبت ما ترى في رأي ارتأيته؟

قال أبوه: تطاعُ فيه، وتنعمُ عيناً يا عبد العزيز!

قال: فإني قد حبستُ نفسي ومالي وأهلي في سبيل الله!

قال أبوه: فارتحل يا عبد العزيز على بركةِ الله.

فخرج مع المجاهدين إلى القسطنطينية، وصار يتعرض للشهادة. والتحمت الحرب مع الـروم يومـاً، واشـتدَّت المقارعة، فدخل عبد العزيز في الروم، وانغمس في جمهورهم، حتى نال الشهادة التي تمنّاها.

وأخرج محمد بن جرير الطبري: أن عبد الوهاب بن بخت غزا مع أبي محمد البطّال الروم، وحمل المسلمون على الروم فانكشفوا، فصار عبد الوهاب يكرُّ فرسه للمعركة، وهو يقول: ما رأيت فرساً أجبن منك! وسفك الله دمي إن لم أسفك دمك!

ثم ألقى بيضةَ عن رأسه، وصاح: أنا عبد الوهاب بن بخت. أَمِنَ الجنة تفرّون. وتقدم في نحورِ العدو مهاجماً.

فمرَّ رجل عطشان وهو يقول: واعطشاه!

ودخل ابن بخت في القوم، وانغمس فيهم، فقتل، وقُتِلَ فرسه معه.

وأخرج الطبري أيضاً أن عليَّ بن أسد كان مسرفاً على نفسه في المعاصي، وكان قد قتل وصنع أموراً عظيمة.

فمر ليلةً في الكوفة، فإذا برجل يقرأ في جوف الليل قوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ) [الزمر:٥٣].

قال عليّ للقارىء: أَعِدِ الآية.

فأعادها. ثم قال: اعدْ فأعادَ. ثم قال: أعدْ. فأعادَ.

فاغتسل، ثم غسل ثيابه، فتعبَّد حتى عمشت عيناه من البكاء. وصارت ركبتاه كركبتي البعير.

فغزا البحر، فلقي الروم، فقرنوا مراكبهم بمراكب العدو. فاقتحم عليُّ بن أسد بنفسه في سفائن الروم، فما زال يضربهم وينحازوا، ويضربهم وينحازوا، حتى انحازوا ومالوا في شقٍ واحد في السفينة، فانكفأت السفينة عليهم، فغرق وعليه درعٌ من حديد.

وأخرج ابن المبارك: أنَّ عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ترجَّلَ يوم اليرموك. فقال له خالد بن الوليد رضي الله عنه: لا تفعل ذلك فإنَّ قتلك على المسلمين شديد. فقال لهُ عكرمة: خَلِّ عني يا خالد. فإنه قد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخير، أما أنا فقد كنت مع أبي من أشدِّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمشى عكرمة في المعركة حتى استشهد.

هذه ستة وعشرون حادثةً وواقعةً أقدم فيها المجاهدون على الجهاد، وواجهوا الأعداءَ الكـــثيرين، وتجلّـــى فيهـــا انغماس الرجل الشجاع في العدو، وانغماس الجماعة القليلةِ المؤمنة في الجماعة الكثيرة المعادية، رغبةً في الشهادة.

وكان فعلُ المجاهدين جهاداً عظيماً مبروراً.

فـــصل

في اختلاف العلماء في حمل الرجل وحده على العدو الكثير

اعلم أن العلماء رضي الله عنهم اختلفوا في اقتحام الرجل في الحرب، وحمله على العدوِّ الكثير وحده، وإنغماسه فيهم.

وقد تقدم من الأدلة في الأقوال والأفعال في استحباب ذلك وفضله، ومع ذلك اختلف فيه العلماء.

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في " إحياء علوم الدين " أثناء كلامه عن الأمر بالمعروف والنـــهي عـــن المنكر: " لا خلاف في أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفِّ الكفار، وأن يقاتلهم، وإن علم أنه يقتل. وكما أنه يجوز أن يقاتل الكفار، حتى يقتل، يجوز له أن يفعل ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

... وانما جاز له الإقدام إذا علم أنه لا يقتل حتى يُقتل، أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بذلك، جاز ذلك لأنه به يكسر شوكة الكفار، بما يشاهدون من جرأته، ويعتقدون في سائر المسلمين حبّهم للشهادة في ســبيل الله، وعـــدم خوفهم من الجهـــاد أو القتل في سبيل الله..

ونقل الإمام النووي اتفاق العلماء على انغماس المجاهد في الكفار، وعلى التعرض للشهادة، فلا شك في أنَّ ذلك جائز، وأنه لا كراهة فيه! وقال الإمام الشافعي: قد بورز بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمل رجل من الأنصار حاسراً على المشركين يوم بدر، بعدما أعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في ذلك من الخير.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره: اختلف العلماء في اقتحام الرجل في الحرب، وحمله على العدوّ وحده.

فقال القاسم بن مخيمرة والقاسم بن محمد وغيرهما من علمائنا: لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم، إذا كان فيه قوة، وكان لله بنيةٍ خالصة، فإن لم تكن له قوةٌ فذلك من التهلكة!

وقيل: إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل على العدو، لأن مقصوده واحدٌ منهم، وذلك بَيِّنٌ في قوله تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ" [البقرة: ٢٠٧].

وقال ابن خويز منداد: فأما أن يحمل الرجل على مائة أو جماعة اللصوص أو جملة العسكر، فإن علم وغلب على ظنه أنه سيقتل من حمل عليه وينجو فحسن، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أنه سَيُقتل، ولكن سينكي في العدوَّ نكاية، أو يؤثر فيهم أثراً ينتفع به المسلمون فجائزٌ أيضاً.

وقال محمد بن الحسن: لو حمل رجلٌ واحد على ألف رجل من المشركين، وهو وحده، لم يكن بذلك بأس، إذا كان يطمع في نجاةٍ أو نكايةٍ في العدو، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه، لأنه عَرَّضَ نفسه للتلفِ من غير منفعة للمسلمين.

فإن كان قصده تجرئْة المسلمين عليهم، ليصنعوا مثل صنيعه فلا مانع من ذلك، لأنّ فيه نفعاً للمسلمين.

كذلك يجوز إن كان قصده إرهاب العدو ليعلم صلابة المسلمين في الدين.

وإن تلف النفس لإعزاز دين الله وإضعاف الكفار مقام عظيم شريف مدحَ اللهُ به المسلمين في قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) [التوبة: ١١١].

فصل

في المبارزة

هي جائزة بالاتفاق. فإن طلب كافرٌ المبارزة استُحِبَّ الخروجُ إليه، وابتداؤُها ليس مستحباً ولا مكروهاً. وانما تحسنُ ممن جَرب نفسه، وعرف قوته، وتكره لضعيفٍ لا يثق بنفسه، وتجوز بإذن الأمير، وبغير إذنه، على الأرجح.

وقد سئل مالكٌ رحمه الله عن الذي يقف بين الصَّفين في المعركة ويقول: من يبارز؟

فقال: ذاك إلى نيته، فإن كان يريد بذلك وجه الله فأرجو أن يكون مأجوراً.

وقال الشافعي: لا بأس بالمبارزة.

وقال ابن المنذر: المبارزة بإذن الإمام حسنة، وليس على من بارز بغير إذن الإمام حرج، وليس ذلك بمكروه، لأني لا أعلم خبراً يمنع منه !

إن المبارزه في الحرب، وإجابة من دعا للبراز، لم تزل سنَّة الأبطال، وشعار الشجعان، وفخارهم في الجاهلية والإسلام.

وقد بارز الصحابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بأمره، وكذلك في زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ولم يزل الناس على ذلك من بعدهم.

وقد أوردنا سابقاً أن البراءَ بن مالك رضي الله عنه بارز مائة رجل من الأعداء وقتلهم. وأورد ابن إسحاق في السيرة أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه بارز يوم الخندق عمرو بن عبد وُدّ.

وذلك أن عمرو بن عبد وُدّ خرج ونادى: من يبارز؟

فقام عليٌّ رضي الله عنه وهو مقنَع في الحديد، فقال: أنا له يا رسول الله.

قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنه عمرو، اجلس!

فنادى عمرو المسلمين: ألا رجل يبارزني! وأَنَّبهُمْ قائلاً: أين جنتكم التي تزعمون أنه مَن قُتِلَ منكم دخلَها؟

فقال عليّ رضي الله عنه، فقال: أنا له يا رسول الله!

فقال له : إجلس.

فنادى عمرو في المرة الثالثة، وقال: ولقد بَحَحْتُ مِنَ النداءِ بِجَمعكُم هَل مِن مبارِزْ وَوَقَفتُ إذ جَبُنَ المُشَجِّعُ وَقفة الرّجُلِ المُناجزِ، وَكَذاكَ إني لَم أزل مُتَسرعاً قَبلَ الهَزاهِزِ ، إن الشجاعَةَ في الفتى والجودَ مِن خَيرِ الغرائِز

فقامَ علي رضي الله عنه، فقال: أنا له يا رسول الله !

فقال عليه السلام: إنه عمرو!

قال عليّ: وإنْ كان عَمراً! فأذنَ له صلى الله عليه وسلم.

فمشى إليه رضي الله عنه وهو يقول: لا تَعْجَلَن فَقَد أتاكَ مُجيبُ صَوتِكَ غَيرَ عاجِزْ ، ذو نِيَّةٍ وَبَصيرَةٍ وَالصِّدْقُ مُنْجي كُلَّ فائِز ، إنّي لأرجو أن أُقيمَ عَلَيك نائِحَةَ الجنائِزْ ، مِنْ ضَرْبهٍ نَجْلاءَ يَبقى ذِكرُها عِنْدَ الهَزاهِزِ ، قال عمرو: من أنت؟

قال: أنا عليٌّ بن أبي طالب!

قال عمرو: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسَنُّ منك، فإني أكرهُ أن أُريق دمك!

قال عليّ: ولكني والله لا أكره أن أريق دمك!

فغضبَ ونزل، وسَلَّ سيفه كأنه شُعلَةُ نار، وأقبل نحو عليّ رضي الله عنه مغضباً، واستقبله علي بدرقته، فضربه عمرو في الدرقة، فقدَّها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجَّه! فضربه عليٌّ رضي الله عنه على حبل عاتقه، فسقط، وثار العجاج!

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير، فعرف أن علياً رضي الله عنه قد قَتله!

ولما قُتِلَ عمروُ بن عبدِ ودٍّ يوم الخندق كان عمرهُ تسعين سنة، وكان من شجعان قريش المعدودين!

وفي معركة اليرموك خرج رجلٌ من معسكر المسلمين، ووقف بين الصفين، ودعا الروم أن يخرجوا له رجلاً يبارزه، فأخرجوا له رجلاً ضخماً كالبعير مدرعاً بالحديد، فضربه المسلم فقتله.

ثم دعا للمبارزة، فأخرجوا له صاحب علمهم وحامل رايتهم، فضربه فقتله!

ثم دعا للمبارزة، فقال له الروم: قل للشيطان يبارزك!

وقد اختلف العلماء في حكم معونةِ المسلمين للمسلم الذي يبارزُ الكافر: فمنهم من منع ذلك، ومنهم من أجازه ورخصَ فيه.

وممن رخص فيه الشافعي وأحمد، واستدلّوا بمعونة الصحابة بعضهم لما بارزوا قريشاً في معركة بدر.

١٦٧ - روى أبو داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : تَقَدَمَ عتبةُ بنُ ربيعة وابنهُ الوليد وأخوه شيبة، فنادى عتبة: من يبارز؟

فانتدب له شبابٌ من الأنصار.

فقال: من أنتم؟

فأخبروه فقال: لا حاجة لنا فيكم!

فنادى: اخرجوا إلينا أكفاءنا من قومنا!

فقال صلى الله عليه وسلم: قم يا حمزةُ، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث.

فأقبل حمزةُ إلى عتبة فَقَتَله، وأقبلتُ إلى شيبة فقتَلتُه، واختلفَ بين الوليد وعبيدة ضربتان، فأثخنَ كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه.. ثم مِلنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة ٠٠"[١].

والراجح أنه إذا اشترط المسلم والكافر عند المبارزة عدم الإعانة، فإنه يجب الوفاء بالشرط، فإن قتـــل الكـــافر المسلم، جاز للمسلمين قتل الكافر.

وإذا خرج كافر يطلب المبارزة جاز رميه وقتله، لأنه مشرك لا عهد له ولا أمان، فأبيح قتله.

[١] أخرجه أبو داود: ٣/ ١١٩- ١٢٠، وسنده حسن.

الباب الخامس والعشرون

في تغليظ إثم من فر من الزحف وولى الأدبار

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال: ١٥ -١٦].

اعلم أنّ الفرار من الزحف حيث لا يجوز، من أعظم الذنوب عند الله بإجماع العلماء، وفاعله مستحقٌ لغضب الله ومقته، وأليم عذابه.

وقد وردت عدة أحاديث في الترهيب من ذلك، والتحذير من فعله:

١٦٨ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: وما هن يا رسولَ الله؟ قال الشركُ بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم اللهُ إلا بالحق، وأكلُ مالِ اليتيم، وأكلُ الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.. " [١]

١٦٩ - وروى الطبراني في الكبير عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثيّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع: " إن أولياء الله المصلّون، ومن يقيم الصلوات الخمس التي كتبهن الله عليه، ويصوم رمضان، ويحتسب صومه، ويرى أنه عليه حق، ويؤتي الزكاة محتسباً طيبةَ بها نفسه، ويجتنب الكبائر التي نهى اللهُ عنها! فقال رجلٌ من أصحابه: يا رسول الله: كم الكبائر؟ قال: تسع. أعظمهن الإشراك بالله، وقتل المؤمن بغير حق، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، والسحر، وأكلُ مال اليتيم، وأكلُ الربا، وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام ٠٠٠" [٢].

وروى ابن المبارك في كتاب الجهاد عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: الجريء كل الجريء الذي إذا حضرَ العدوُّ ولى فراراً! والجبانُ كل الجبان الذي إذا حضرَ العدوُّ حمل فيهم، حتى يكون منه ما شاء الله عز وجل!!

---

[١] أخرجه البخاري برقم: ٦٨٥٧. ومسلم برقم: ٨٩.
[٢] المعجم الكبير للطبراني : ١٧/ ٤٧-٤٨.رقم:١٠١، ورجاله موثقون.

قالوا: كيف هذا يا أبا هريرة؟

قال: إن الذي فرَّ لم يفرّ إلاّ اجتراء منه على الله! وإنَّ الذي جَبُنَ إنما خاف من الله، فثبت في المعركة ولم يفرّ.

فــصل

الجهاد فرض عين عند حضور الصف

اعلم أن الجهاد إذا كان فرض كفايةٍ على المسلم، ثم حضر الصف واشترك في المعركة صار الجهاد عليه فــرض عين.

وإنما يحرم الفرار، إذا لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين، ويجوز الفرار إذا كان المسلم متحرفاً لقتال.

والتحرُّفُ للقتال: كمن ينصرف عن الصفِّ ليكمن في موضعٍ ويهجم على الكفار، أو يكون في مضيقٍ فينصرف، ليتبَعَه العدو إلى متسع يسهل القتال فيه، أو يتحولَ من مقابلة الشمس والريح، أو غير ذلك.

كذلك يجوز الفرار إذا كان متحيزاً إلى فئةٍ يستنجدُ بها، سواء كانت تلك الفئة قليلةً أو كثيرة، قريبةً أو بعيدة.

ومن عجز عن الاستمرار في القتال أو لم يبق معه سلاح،، فله الخروج من الصفّ، إن لم يمكنه الرمي بالحجــارة. فإن أمكنه الرمي بالحجارة حَرُمَ عليه الخروج.

ويُسَنُّ لمن وقع له شيءٌ من الأعذار وأراد أن يولي ظهره، أن يولي ظهره متحرِّفاً أو متحيزاً، كما قالت الآية.

ولو مات فرسه، وهر لا يقدر على القتال راجلاً، فله الخروج من الميدان، ولو غلب على ظنه أنه إن ثبت قتل، لم يجز له الخروج. وإن زاد عدد الكفار على المثلين جاز للمسلم الانهزام، ويحرم انهزام مائة بطلٍ مــن مــائتين مــن الأبطال.

ونقل النوويُّ عن أبي القاسم الرافعي قوله: إذا جاز الفرار لزيادة الكفار على الضعف نُظر. فإن غلب على ظنِّهم أنهم لو ثبتوا ظفروا استحق لهم الثبات، وإن غلب على ظنهم الهلاك لو ثبتوا، جاز لهم الفرار، والأولى أن لا يفروا، بل عليهم دخول المعركة، ولو أدى إلى قتلهم.

وقال الإمام النووي: وأصحُّ الوجهين أنه لا يجب الفرار في هذه الحالة، ولكن يستحب! [١]

ومذهب أحمد بن حنبل أنه إذا كان العدو أكثر من الضعف، وغلب على ظنّ المسلمين الهلاك في الإقامة، والنجاة في الانصراف، فالأولى لهم الانصراف، وإن ثبتوا جاز لهم ذلك، حرصاً منهم على الشهادة.

والراجح أن الذي يثبت في مكانٍ لا يؤثّر فيه على العدو، وليس فيه إلا الهلاك المحض، فهذا فيه الإثم، وصاحبه ألقى بيده إلى التهلكة. وذلك كالأعمى يثبت في مواجهةِ العدوّ بغير سلاح، فيقتله العدو.

أما إذا ثبت المسلم إقداماً وشجاعة، بنيةٍ خالصةٍ في طلب الشهادة، وكان معه سلاحٌ يصيبُ به الأعداء ويؤثر فيهم، فهجموا عليه وقتلوه، فهذا مأجور مثابٌ إن شاء الله.

ولو لقي المسلم رجلين كافرين وطلباه، فله الفرار منهما، والثبات في حقِّه أفضل وقد أمر الله المؤمنين بالثبات أمام ضعفي عددهم، بحيث لا يجوز للمسلم أن يفرَّ من اثنين.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال: ٦٥ - ٦٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن فرَّ المسلم من ثلاثة فكأنَّه لم يفر وجاز له ذلك، وإن فرَّ من اثنين فقد فرَّ، ولم يَجُز له ذلك.

---

[١] روضة الطالبين للنووي: ١٠/ ٢٤٩.

وقال القرطبي: إن كان جيش الكفار أكثر من ضعفي جيش المسلمين فيجوز الفرار منهم، والصبر على قتالهم أحسن وأفضل.

وقد وقف ثلاثة آلافٍ من المسلمين في مؤتة أمام حوالي ثلاثمائة ألفٍ من الروم ومن معهم. ووقف طارق بن زياد في فتح الأندلس ومع ألفٌ وسبعمائة من المسلمين أمام تسعين ألفاً من الإسبان!

ولكن يجوز الفرار من الجيش الكافر، إذا كان عدد الكفار أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

قال ابن القاسم: إن فرَّ إمام المسلمين وقائدهم فلا يجوز لهم أن يفروا من مثلي عددهم من الكفار! ويجوز لهم الفرار إذا كان الكفار كثر من مثلي عددهم!

وذهب بعض العلماء إلى جواز فرار المسلمين من أكثر من مثلي عددهم من الكفار بشرط أن لا يكون عددهم اثني عشر ألفاً. فإن كان عددهم اثني عشر ألفاً لم يجز لهم الفرار.

واستدلوا على ذلك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٧٠ - روى أبو داود والترمذي والدارمي والحاكم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لَن يُغلَبَ اثنا عَشَرَ ألفاً مِن قلة" [١].

واعتبر العلماء هذا الحديث مُخَصصاً لعموم الآية، التي أوجبت الثبات أمام ضعف عدد المسلمين، وأجازت الفرار إذا زاد العدد عن الضعف.

قالوا: فإذا كان عدد المسلمين اثني عشر ألفاً لا يجوز لهم الفرار، ولو زاد عدد الكفار عن الضعف.

---

[١] سنن أبى داود: ٣/ ٨٢. وسنن الترمذي: ٣/ ٥٦- ٥٧. وسنن الدارمي: ٢/ ٢١٥. ومستدرك الحاكم: ٢/ ١٠١، الحديث رجاله ثقات رجال الشيخين.

فــصل

في معية الله للمجاهدين بالنصر والتأييد

اعلم أنَّ معية الله لعباده نوعان:

الأولى: معية عامة: وهي معية الإحاطة والعلم، وهذه معية عامةٌ شاملة، تشمل المسلمين والكفار جميعاً، فالله يعلم ما يفعله عباده، وهو محيط بهم سبحانه، لا يغيب عنه شيء منهم.

ومما يدلُ على هذه المعية قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد: ٤].

وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) [المجادلة: ٧] .

الثانية: معيةٌ خاصة: - وهي معيةُ المعونةِ والنصرِ والتأييد والكفاية، وهي خاصة بالمؤمنين العابدين الصالحين.

ومما يدل على هذه المعية قوله تعالى:(إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا) [التوبة: ٤٠].

وقوله تعالى:(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) [محمد: ٣٥].

وهذه المعية الخاصة منوطة بالعبودية الخالصة من شوائب المخالفات! فمن كان عبداً لله حقاً فلا غالب له، لأن الله معه، وهو ناصره ومؤيده. قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ) [محمد: ١١].

ومتى أخلَّ المجاهد بشيء من صفات العبودية، أو تجرد عن شيء من مظاهر الإيمان، أو تلبسَ بفعلٍ من أفعال المخالفين، صار مشابهاً للأعداء بوجهٍ من وجوه الشَّبَه، وتلبس بشيء من صفاقم، وهذا يؤدي إلى شيء من الظلام

والران على قلبه، ويؤدي إلى إصابته بشيءٍ من الرعب والجبن والذلة والخذلان، وعند ذلك يصير راغباً في الفرار، لسكونه إلى الدنيا، وحرصه على الحياة ونحو ذلك!

وبقدر عظم المخالفة وصغرها يكون تأثير هذه الصفات الذميمة فيه، وبذلك لا ينال النصر والظفر.

ألا تتأمل قصة حُنَين؟

عندما قال أحد المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، وكانوا اثني عشر ألفاً!! فهزمهم الله لإعجابهم بكثرتهم، وعدم شهودهم أن النصر من عند الله سبحانه! لأن هاتين الصفتين من صفات الكفار، فلما تلبسَ المسلمون بهما، أثَّر ذلك في قلوبهم رعباً، نتج عنه الفرار.

قال تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) [التوبة: ٢٥].

وقال تعالى عن ما حصل يوم أحد: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ) [آل عمران: ١٥٥].

ولما كان سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم معصوماً من ذلك، عصمةً تليق بمقامه الشريف، حفظه الله وحفظ معه بعض المؤمنين، فأنزل سبحانه سكينته عليهم، ولم يجد العدوُّ إليهم سبيلاً، فنصرهم وهزم أعداءهم.

ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التوبة: ١٢٣].

وختم الآية بقوله:(وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِين) ليفهم أولوا الألباب من هذا النظم والسياق أنَّ معية النصر والتأييد خاصة بالمتقين.

ومن هذا الباب قوله تعالى:(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [النحل: ١٢٧ -١٢٨].

وهذا ما حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعليمه لأمته.

١٧١ - روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: " يا غلام: إنِّي أعلمك كلمات: احفظ اللهَ يحفظْك، احفظ اللهَ تجدْه تجاهك، إذا سألتَ فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك، رُفعت الأقلام، وجَفت الصحف" [١].

وقد كان المجاهدون السابقون حَذِرين من الذنوب والمعاصي، لأنهم يعلمون أثرها السيء على سير المعركة، وأنها قد تقود للهزيمة.

ذكر الحافظ ابن كثير في تاريخه أن أحد المسلمين زمن السلطان الظاهر بيبرس كان يجاهد غازيا على فرسٍ له، وكان من عادة فرسه النهوضُ والإقدام والسير للميدان.

وفي بعض الأيام طلب من فرسه الإقدام، فتأخر، فبقي كلما يضربه ليتقدم إلى العدو يتأخر، فعجب من ذلك. ولما فكر في السبب عرف أنه كان قد اشترى لفرسه علفاً بدرهم زائف!

أي أ نه أطعم فرسه علفاً حراماً، ولذلك أثَّر هذا على فرسه، فتلكأَ عن السير للجهاد! وحكى بعضهم أن بعض عساكر المسلمين حاصروا حصناً من حصون الكفار، فاستعصى عليهم فتحه!

فقال أميرهم: ما تأخر الفتح عنكم إلاّ لسبب، فانظروا ماذا ارتكبتم من البد ع، أو تركتم من السنن؟

فنظروا، فإذا هم قد أهملوا سنة السواك!!

فانظر هذا التأثير في ترك سنة من السنن، وقِسْ عليه تأثير ارتكاب المحرمات، وانتهاك الحرمات، وتناول الحرام في المطعم والملبس ونحو ذلك، لتعلم من أين أُتي الذين خذلهم الشيطان، وأوقعهم في الفرار والعصيان.

---

[١] سنن الترمذي: ٤ /٧٦،الحديث صحيح.

واحترز أيها المجاهد من تأثير المخالفة لشرع الله في قلبك، وإضعافها لهمَّتك، وغلبتها على عزمك ونيتك. وطهر قلبك من لوث المخالفات، وأوقد في ظلمات وساوسه سراج اليقين والتوكل، وأقدم إقدام من يعلم أنَّ الموت لا بدّ من نزوله على كل حال، وأنه لا يمنع من الموت الفرار إلى مرتفعات وقمم الجبال، ولا يدفع عنه الاعتـــزاز بحيـــل الرجال.

قال تعالى: (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ) [النساء: ٧٨].

ومن قدَّر الله أن يموت قتيلاَ، فلن يجد إلى غير ذلك سبيلاً. قال تعالى: (قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) [آل عمران: ١٥٤].

وقال تعالى: (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحج: ٤٠].

واعلم أيها الفارُّ حرصاً على زيادة عمر، أن العمر لا يزيد بالفرار، ولا ينقص بالثبات. واعلم أن الأجل لا يتقدَّم نفَساً ولا يتأخر.

واعلم أنك قد عصيت الله بفرارك، وبؤت بسخط الجبار، ولبست ثوب المذلة والعار، بين المسلمين والكفار!

أما تخشى أن تؤسر، فتفتن عن دينك فتخسر الدار الآخرة، أو يُنَوعَ عذابك وتقتل بالهوان صبراً.. ولا شكَّ عند كل ذي لبٍّ أنَّ استقبال الموت إذا حان وقته خيرٌ من إستدباره.

وما أحسن قول المتنبي: وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

وقال يزيد بن الحكم بن أبي العاص:

وَعِشْ مَلِكاً أو مت كريماً فإن تمت وسيفك مشهور بسيفك تعذر

وقال بعض الشجعان:

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحك لن تراعي

فإنَّك لو سألت بقاء يـــــومِ ... على الأجل الذي لك لن تطاعي

فـــصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نـــيـــل الخلود بمستـــطاع

ولا ثوب البقـــــاء بثـــوب عزٍّ ... فـــيطوى عن أخي الخنع اليراع

سبيل الموت منهــــج كلِّ حـــيٍّ ... وداعـــيـــه لأهـــل الأرض داع

ومن لم يعتبـــط يهـــــرم ويســـأم ... وتسلمـــه المنون إلى انقطـــاع

لمـــــوت المـــــرء خيرٌ من حياةٍ ... إذا مـــا عـــدَّ من سقـــط المتاع

وقال بهلول بن بشر أحد شجعان العرب:

من كان يكــــره أن يلقى منيّتَـــه ... فالموت أشهى إلى نفسي من العسل

فلا التقدُّم في الهيجاء يعجلني ... ولا الحذار يـــنجيـــني من الأجـــل

ووجد هذا البيت مكتوباً على نصاب سكّين:

في الجبن عارٌ وفي الإقدام مكرمةٌ ... فمن يفرُّ فلا ينجو من القدر

ووجد هذا البيت مكتوباً على خوذة:

والحرب إن لاقيتها فلا يكن منك الفشل ... اصبر على أهوالها لا موت إلا بالأجل

وقال بعضهم:

لئن كانــت الأرزاق قسمــاً مقــدّراً ... فقـــلَّةُ حرص المــرء في الرِّزق أجمــل

وإن كانت الأمـــوال للتـــرك جمعها ... فــما بـــال متـــــروكٍ به المرء يبخل

وإن كانــت الدُّنــيا تعدُّ نــفــيسةً ... فقدرُ ثــواب اللهِ أعــــلى وأنــبــلُ

وإن كانت الأبــدان للموت أنشئت ... فقـــتــل امرىء في الله بالسيف أجـــمل

واعلم أنَّ الفرار - ثكلتك أمك - سفرةٌ من أسفار الموت، وحرص على ما لا يخشى فيه الفوت، وربَّ حياةٍ كان سببها التعرض للوفاة، وربَّ موتٍ كان سببه طول الحياة، وليس للمحارب حصنٌ من الهلاك يلجأ إليه غير تـــأخير أجله، ومن اجتهد في سبيل الله على الموت وهبت له الحياة، مع حسن عمله.

الفارُ يُسَلِّمُ نفسه، والمقاتل يدافع عنها، وإذا انقضت مدة الأجل فالمنية لا بدَّ منها.

أما تخشى أيها الفارُ أن تدركك المنية، فتكون من أصحاب النار!! أما تخاف أن يأتيك سهمٌ وأنت مولِّي الأدبار، فيسكنك دار البوار؟!

وحكايات الذين فتنوا عن دينهم، لأنهم فرّوا ووقعوا في الأسر، أو استجابوا لشهوة، وصاروا نصارى كثيرة:

روى أبو القاسم القشيري في " الرسالة القشيرية ": عن منصور بن خلف المغربي، قال: كان رجلان اصطحبا في الإرادة والمجاهدة والتربية فترةَ من الزمان، وبعد ذلك سافر أحدهما وشارق صاحبه، وانقطعت أخباره.

وخرج الرجل الصالح لجهاد الروم، وبينما كان المسلمون يجاهدون الروم خرج مُقنّعٌ من وسط جــيش الـــروم وطلب مبارزة المسلمين، فخرج له أحد أبطال المسلمين، فقتله، ثم خرج له رجلٌ مسلمٌ آخر فقتله.

فخرج له هذا الرجل الصالح وتطاردا وتبارزا. فحَسَرَ الروميُ عن وجهه، فإذا هو صاحبُه الذي صحبه في المجاهدة والعبادة عدة سنين!

فوجىء المجاهد بما رأى، ولم يكن يتوقع أن يكون صاحبه مع الروم، يقاتل المسلمين، وقال له: ما الخبر؟

فأخبره أنه ارتدَّ وتنصَّر، وخالط الروم، وله أولاد عندهم، وحصّل عندهم مالاً كثيراً!

قال له: لقد كنت تقرأ القرآن وتفهمه، فأين أنت منه الآن؟

قال : لقد نسيته فلم أعد أذكر منه حرفاً واحداً.

قال له: ارجع إلى الإسلام، وإنّ الله يقبلُك!

قال : لا أستطيع، لأني لو فعلت لذهب مالي وأولادي.

فتصارعا وتبارزا، فقتلَ الرجلُ المجاهد ذلك المتنصر المرتد، وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وروى البيهقي عن عبدة بن عبد الرحيم قال: خرجنا في سرية إلى أرض الروم، فصحبنا شابّ، لم يكن فينا أحدٌ أقرأ منه للقرآن، ولا أفقه منه، وكان صائم النهار، قائم الليل. فمررنا بحصنٍ من حصون الروم، ولم نؤمر أن نقف عنده، ولكن ذلك الشابَّ قارىء القرآن مالَ إلى جانب الحصن، فظننّا أنه وقف ليبول.

فنظر إلى امرأةٍ من النصارى، فعشقها!! فقال لها بالرومية: كيف السبيل إليك؟

قالت له: هين.تتنصَّر، نفتح لك الباب، وأنا لك!

فتنصَّر، وفتحوا له الباب، ودخل الحصن.

وتابعنا سيرنا، ونحن أشدُ ما نكون غماً وحزناً على ذلك الشاب الذي تنصَّر، وكأنه ابنٌ لكلٍّ واحد منا.

ولما عدنا من الجهاد، مررنا بذلك الحصن، وإذا به يقف على أبراج الحصن يحرسه مع باقي النصارى.

فقلنا له: يا فلان: ما فعل قرآنك؟ وما فعل علمك؟ ما فعلت صلاتك وصيامك؟

قال : اعلموا أني نسيت القرآن كلَّه، ولم أعد أتذكَر منه إلا هذه الآية: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) [الحجر:٢ -٣]

وإذا جاهد المؤمن بصدق، ووقع أسيراً في يد الأعداء، وفتنوه عن دينه، فإن الله يعصمه ويحميه، ويحفظ عليه دينه.

ومن الأمثلة على ذلك عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

روى ابن الأثير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه. فدعاه ملكهم للدخول في النصرانية، ولكنه أبى وثبت على دينه!

وهدَّده الملك بأنه إن لم يتنصَّر فسوف يلقيه في الماء الذي يغلي، وطلب إحضار أحد أسرى المسلمين، وألقاه في ذاك الماء، فسقط لحمه عن عظمه فوراً، وقال لابن حذافة: إن لم تتنصَّر ألقيتك في هذا الماء، وتموت هكذا!

ولم يتنصر، وأمر الملك بإلقائه في ذلك الماء.

فبكى عبد الله بن حذافة، وقالوا للملك: إنه قد جزع فبكى.

ولما ردّوه قال للملك: لا تظنّ أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي، وإنما بكيت لأنه ليس لي إلاّ نفسٌ واحدة، يفعل بها هذا في سبيل الله، وكنت أحب أن يكون لي من الأنفس بعدد شعر رأسي، فتفعل أنت بها هذا، ويكون هذا في سبيل الله!!

أُعجب الملك بجواب ابن حذافة، وأراد أن يغريه إغراءً لعله يتنصر. قال له: تنصَّر وأزوجك ابـــنتي، وأقاسمـــك ملكي!

قال ابن حذافة: لن أفعل ذلك!

قال الملك: إذن قَبل رأسي وأطلق سراحك!

قال: على أن تطلق معي أسرى المسلمين!

وقبَّل ابن حذَافة رأس الملك، فأطلق سراحه، وأطلق سراح أسرى المؤمنين.

وعاد ابن حذافة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة. فقال عمر: حق على كل منكم أن يقبلَ راس ابن حذافة! فقبل عمرُ رأسه، وفعلوا مثل فعلِ عمر.

ولا يجوز للمسلم أن يفر من القتال خشية القتل، ولو لم يكن في القتل في سبيل الله إلاّ النجاة من سكرات الموت لكان في ذلك ما يوجب الثبات في القتال، فكيف إذا كان بعد القتل في سبيل الله الفوز العظيم في جنات النعيم؟

وكان عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه يحضٌّ على القتال، ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا، والذي نفسي بيده لألـــف ضربةٍ بالسيف أهون من موت على فراشِ!

وقال شدّاد بن أوس: الموت أفظع هولِ في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشدُ من نشرٍ بالمناشـــير، وقـــرضِ بالمقاريض، وغليٍ في القدور..

يا هذا: انظر ما تختاره لنفسك وتفرُّ إليه! أيُّهما خير لك: أهو القتل في سبيل الله أم الفرار؟

إن الذي يموت على فراشه يجد سكرات وأهوال الموت! وما بعد الموت أفظع وأبشع وأهمُّ وأشنع، كضمة القبر ووحشته، وفتنة الملكين وسؤالهما، والصيحة والبعث والحشر، وكربات يوم القيامة وأهوالها، من تطاير الصـــحف، والمرور على الصراط، ومناقشة الحساب، ووزن الخير والشر.

وقد أشار قوله تعالى إلى هذه الأهوال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) [الحج: ١ -٢].

وقد أخبرنا الله عن حياة الشهداء عنده، وذلك في قوله تعالى: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

هؤلاء الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، قد أمنوا من عظيم الأهوال والكربات، وسكنوا بأجلِّ المحالِّ في أعلى الغرفات، وكرعوا من النعيم أكواباً، وادَّرعوا من التنعيم أثواباً، ومتَّعوا بجنان الفردوس مستقرّاً ومآباً، وتمتَّعوا بحورٍ عينٍ كواعب أتراباً.. أرواحهم في جوف طير خضر تجول في الجنان، تأكل وتشرب وتأوي إلى قناديل معلَّقة في عرش الرحمن، يتمنون الرجوع إلى هذه الدار، ليقتلوا في سبيل الله مرات ومرات، لما بهرهم من ثواب الله الجزيل!!

فما أقبح العجز عن انتهاز هذه الفرص، وما أنجح الاحتراز بالجهاد عن مقاساة تلك الغُصص! وليت شعري بأيِّ وجهٍ يقدم على الله غداً من فرَّ اليوم من أعدائه، وماطله بتسليم نفسه بعد عقد شرائه،ودعاه إلى جنته ففرَّ وزهد في لقائه، وبأي عذرٍ يعتذر بين يديه من هو عن سبيله ناكب، وعمّا رغبه فيه من الفوز العظيم راغب!!

اللهم إليك يا من بيده أزمَّةُ القلوب نرغبُ في ثباها، وعليك يا علاّم الغيوب نعتمد في تصحيح قصدها وإخلاص نياها ! وإلى غناك نمدُ أيدي الفاقة، أن ترزقنا شهادة ترضاها، وأن تنيل نفوسنا من ثبات الأقدام في سبيلك مناها، فالحراك والسكون إليك، والمعوَّلُ في كل خيرٍ عليك. وأنت على كل شيء قدير!.

الباب السادس والعشرون

في بيان أن أجر الجهاد لا يحصل إلا بالنية الصالحة

قال الله تعالى: (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) [الزمر:٣] وقال الله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [البينة: ٥].

١٧٢ - روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله، فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتُه لدنيا يصيبُها، أو امرأةٍ ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه " [١].

١٧٣ - وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كنّا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة، فقال: " إن بالمدينة لرجالاً، ما سرتُم مَسيراً، ولا قطعتُم وادياً إلا كانوا معكم، حَبَسهم المرض " [٢].

١٧٤ - وروى البخاري عن أنسٍ رضي الله عنه قال: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك، ودنا من المدينة قال : " إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتُم وادياً إلا كانوا معكم! قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر" [٣].

قال القرطبي: يدلُّ هذا الحديث على أن صاحب العذر يعطى أجر الغازي، ويكون أجره مساوياً لأجر الغازي، وفي فضل الله متسع، وثوابه فضلٌ منه وليس استحقاقاً، ويثيب الله على النية مالا يثيب على الفعل.

١٧٥ - وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنّ أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟

---

[١] أخرجه البخاري في بدء الوحي: ١/ ٢. ومسلم في الإمارة: ٣/ ١٥١٥.
[٢] أخرجه مسلم في الإمارة: ٣/ ١٥١٨.
[٣] أخرجه البخاري في المغازي : ٥/ ١٣٦.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مَن قاتلَ لتكونَ كلما اللهِ هي العليا، فهو في سبيل الله "[١].

وفي لفظِ آخر عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتلُ شجاعة، ويُقاتل حمية، ويُقاتل رياء، أيُ ذلك في سبيل الله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مَن قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا فهو في سبيل الله ".

١٧٦ - وروى أبو داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ أعرابياً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن الرجل يقاتلُ لِيُذكر، ويقاتلُ ليُحمد، ويقاتلُ لِيَغنم، ويقاتلُ لِيُرى مكانُه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مَن قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله " [٢].

١٧٧ - وروى أبو داود والبيهقي والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: يا رسول الله: أخبرني عن الجهادِ والغزو؟

فقال صلى الله عليه وسلم: يا عبدَ الله بن عمرو: إن قاتلتَ صابراً محتسباً بعثَكَ اللهُ صابراً محتسباً، وإنْ قاتلْت مرائياً مُكاثِراً بعثَك اللهُ مرائياً مكاثراً ياعبد الله بن عمرو: على أي حالِ قَتلتَ أو قُتلتَ بعثكَ الله على تيكَ الحال "[٣].

١٧٨ - وروى أبو داود وابن حبان والحاكم : عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رجلاً قال : يا رسول الله رجل يريدُ الجهاد وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا أجْرَ له.

فأعظَمَ ذلك الناس، وقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلعلَّكَ لم تُفهِمْه السؤال!

فقال: يا رسول الله: رجل يبتغي الجهادَ في سبيل الله، وهو يبتغي عَرَضاً من عَرَضِ الدنيا؟

---

[١] أخرجه البخاري في الجهاد: ٣/ ٢٠٦. ومسلم في الإمارة: ٣/ ١٥١٢.
[٢] سنن أبي داود :٣/٣١، والحديث صحيح.
[٣] سنن أبي داود: ٣/ ٣٢. وسنن البيهقي: ٩/ ١٦٨. ومستدرك الحاكم: ٢/ ٨٥، والحديث حسن.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا أجرَ له!

فأعادَ الرجلُ سؤاله، وأعادَ الرسول صلى الله عليه وسلم جوابه!" [١]

والعَرَضُ هو ما يُقتنى من مالٍ ومتاع ونحوه.

وسأل عمر بن عبيد الله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قائلاً: أصلَحَك الله، أَذهبُ للغزو، وأُنفق ابتغاء وجه الله، وأخرج كذلك، فإذا كنت عند القتال ابتغيتُ أن يُرى بأسي وحضوري؟ قال: إذن تكون مرائياً!

وذكر قومٌ عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوماً قُتلوا في سبيل الله.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الأمرَ ليس على ما تذهبون وترون. إنه إذا التقى الزحفان نزلت الملائكة، لتكتب الناس على منازلهم تقول: فلانٌ يُقاتل للدينار، وفلان يقاتل للملك، وفلان يقاتل للذكر، وفلان يقاتل يريد وجه الله، فمن قُتل يريد وجه الله فهو الذي له الجنة.

وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه على مجلسٍ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا يتذاكرون سريةً هلكت في سبيل الله.

فقال بعضهم: هم عُمالُ الله، هلكوا في سبيل الله، وقد وجب أجرهم على الله. وقال آخرون: اللهُ أعلمُ بهم، لهم ما احتسبوا.

فقال لهم عمر: ما كنتم تتحدثون؟

قالوا: كنا نتحدث في هذه السرية. فقال قائلٌ كذا، وقال قائلٌ كذا.

---

[١] سنن أبي داود: ٣/ ٣٠. ومستدرك الحاكم: ٢/ ٨٥. وموارد الظمآن، ص:٣٨٦، والحديث صحيح لشواهده.

فقال عمر: والله إنَّ من الناس ناساً يقاتلون ابتغاء الدنيا، وإن من الناس ناساً يقاتلون رياءً وسمعة، وإن من الناس ناساً يقاتلون ابتغاء وجه الله. أولئك الشهداء، وكل امرىء يُبعثُ على الذي يموتُ عليه!

وقال أبو العجفاء السلمي: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: وأخرى تقولونها لمن قتل في الجهاد: قتل فلان وهو شهيد، أو مات فلان وهو شهيد.

ولعلَه أن يكون أوقر عجز دابَّته أو راحلته ذهباً أو فضة، يلتمس التجارة! فلا تقولوا ذلك.

ولكن قولوا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَن قُتِل في سبيل الله أو مات فهو في الجنة".

١٧٩ - روى أبو داود والبيهقي والحاكم عن يعلى بن منبه رضي الله عنه، قال: أذَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغزو، وأنا شيخ كبير ليس لي خادم، فالتمستُ أجيراً يكفيني، وأجري له سهمه!

فوجدت رجلاً، ولما دنا الرحيل أتاني، فقال: ما أدري ما السهمان! فسمِّ لي شيئاً محدداً، سواء كان السهم أم لم يكن. فسميت له ثلاثة دنانير أجرة.

فلما حضرت غنيمته، أردت أن أجري له سهمه، فذكرت الدنانير. فجئتُ النبيَ صلى الله عليه وسلم، فذكرت له أمره. فقال صلى الله عليه وسلم: ما أجدُ له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيرَه التي سَمَّى" [1].

١٨٠ -وروى أبو داود والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ عمرو بن أقيش كان له رباً في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه. فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟

قالوا: مشتركون في معركة أحُد.

قال: أين فلان؟ قالوا: بأحُد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحُد.

---

[1] سنن أبي داود:٣/٣٧ . وسنن البيهقي: ٩/ ٢٩. ومستدرك الحاكم: ٢/ ١١٢، والحديث صحيح.

فلبس لأمتَه، وركبَ فرسَه، ثم توجه إلى أحد.فلما رآه المسلمون قالوا: إليكَ عنّا يا عمرو.

قال: إني قد آمنت

فقاتل حتى جُرح، فحُملَ إلى أهله جريحاً. فقال سعدُ بن معاذ رضي الله عنه لأخته:

سليه، هل قاتل حميةً لقومه؟ أم غضباً لهم؟ أم غضباً لله ورسوله؟

قال: بل قاتلتُ غضباً لله ورسوله.

فمات، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة [١].

١٨١ - أبو داود والنسائي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" الغَزوُ غزوان: فأما مَن ابتغى وجْهَ الله، وأطاعَ الإمام، وأنفقَ الكريمة، وياسَرَ الشريك، واجتنب الفساد فإن نومَه وانتباهَه أجرٌ كُلُّه..

وأمّا مَنْ غزا فخراً ورياءً وسمعة، وعصى الإمام، وأفسدَ في الأرض، فإنه لا يَرجعُ بالكفاف" [٢].

ومعنى: ياسَرَ الشريك: عامَلَ شريكَه في الميدان باليُسر والسماحة.

١٨٢ - وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إنَّ أولَ الناس يقضى عليه يوم القيامة: رجل استشهد،. فأتِيَ به فَعَرَّفَه نعَمَه فَعَرَفَها قال : فماعملتَ فيها؟

قال: قاتلْتُ فيك حتى استشُهدتُ!

[١] سنن أبي داود: ٣/٤٣. ومستدرك الحاكم: ٢/١١٣، والحديث حسن.
[٢] سنن أبي داود: ٣/ ٣٠. وسنن النسائي: ٦/ ٤٩،الحديث حسن.

قال : كذبْتَ. ولكنك قاتلتَ ليقال: هو جرىء. فقد قيل. ثم أمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار.

ورجل تعلمَ العلمَ وعَلَّمَه، وقرأ القرآن. فأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها. قال : فما عملت فيها؟

قال: تعلمتُ العلمَ وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن!

قال: كذبت. ولكنك تعلَّمت ليقال: هو عالم. وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارىء. فقد قيل. ثم أمِرَ به فسُحِبَ على وجههِ حتى ألقيَ في النار.

ورجل وسَّعَ الله عليه، وأعطاه من أصنافِ المال، فأُتيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قال:فما عملت فيها؟

قال: ما تركتُ من سبيلٍ تُحِبّ أن يُنْفَقَ فيها إلاّ أنفقتُ فيها لك.

قال: كذبت. ولكنك فعلتَ ليقال: هو جَواد. فقد قيل. ثم أمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه، حتى ألقيَ في النار" [١].

فـــصل

في أنواع النيات في الجهاد

النية الخالصة لله واجبة في الجهاد، لأن الله لا يقبل جهاد المجاهد إلا إذا كان خالصاً له، وبما أن الأمر هكذا فلا بدّ من استحضار النية الصادقة لله، لأن المجاهد قد يقتلُ في المعركة، ولا مجال أمامه لاستدراك ما فات، إذا مـــا كـــان مخلصاً في عمله لله.

وتتنوع نيات المجاهدين بسبب تنوع مقاصدهم، والمجاهدون في نياهم أصناف، ولكل صنفٍ حكْمُه:

[١] أخرجه مسلم في الإمارة: ٣/ ١٥١٣.

الأول: من المجاهدين من يقصد بجهاده وجه الله، لأن الله يستحق هذه العبادة، فهو الذي أمرَ بها، وفرضها على عبادة، وأحبها منهم وأثابهم عليها.

فالمجاهد يسارع إلى الجهاد بهذه النية، ولهذا المعنى العظيم، ولا يلتفت إلى جزائها وثوابها في الآخرة.

وهذا الصنف قليل، بل هو عزيز الوجود.

أورد أبو المظفر بن الجوزي حادثةَ لأحد المجاهدين، الذي لم يجاهد طلباً للجنة وما فيها، وإنما جاهد ابتغاء مرضاة الله.

قال ميسرة الخادم: غزونا في بعض الغزوات، فخرج من بين الصفوف شاب، فحمل ميمنة العدو فطحنها، ثم مال على ميسرة العدو فطحنها، ثم مال على القلب يضرب من فيه، وهو مقنَّع بالحديد. وكان يمشد: أحسن بمولاك سعيد ظنَاً هذا الذّي كنت له تمنّى تنحّ يا حور الجنان عنّا لا فيك قاتلنا ولا قتلنا لكن إلى سيدنا اشتقنا قد علم السرَّ وما أعلنّا ثم حمل على العدوِّ وهو ينشد:

قد كنت أرجو ورجائي لم يخب   أن لا يضيع اليوم كدي والتعب

يا من ملا تلك القصور باللعب   لولاك ما طابت ولا طاب الطَرب

ثم حمل على العدوِّ حتى قتل منه عدداً كثيراً، وهو ينشد:

يالعبتي الخلد قفي ثمَّ اسمعي   لا فيك قاتلنا فكفّي وارجعي

ثم ارجعي إلى الجنان وأسرعي   لا تطمعي لا تطمعي لا تطمعي

الثاني: من المجاهدين من يحمله على الجهاد الغيرة على الإسلام، والحرص على إعلاء وإعزاز كلمة الله، وإذلالِ كلمة الكفر وأهلها.

وهاتان النيتان لا شك في صحتهما، ولا ريب في الفوز عند الله بهما. ومما يدلُ على إخلاص المجاهد فيهما: الاجتهاد في أخفاء عمله وجهاده، وعدم الافتخار بما صدر منه، والرغبة في أن لا يذكر شيء من عمله وجهاده، واحتساب ذلك عند الله.

الثالث: من المجاهدين من يقصد بجهاده الجنة وما فيها من ثوابٍ ونعيم، والنجاة من النار وعذابها، وهذا هو حال أغلب المجاهدين، فهم يريدون الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وقال بعضهم: هذا القصد لا يكفي في نيل رتبة الشهادة!

لكن الراجح الصحيح أن هذا القصد كافٍ في نيل الشهادة، وفي أخذ الأجر على الجهاد، وقد دَلت النصوص وأفعال الصحابة على ذلك.

لقد رغب الله المجاهدين في الجنة ونعيمها. قال تعالى:(إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) [التوبة: ١١١].

وأخبرهم أن الجهاد تجارة رابحة منجيةٌ من النار،قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [الصف: ١٠ - ١٢].

١٨٣ - روى مسلمٌ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: قوموا إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض.

فقالَ عُمَيرُ بن الحمام: يا رسولَ الله: جنةِ عرضُها السموات والأرض؟ قال: نعم. قال عمير: بخٍ بخٍ.

قال صلى الله عليه وسلم: ما يَحملُك على قولك بخ بخ؟ قال : لا والله يا رسول الله الاّ رجاءَ أن أكونَ من أهلِها!

قال صلى الله عليه وسلم: فإنكَ مِن أهلها.

فأخرج تمراتٍ من قَرْنه، فجعلَ يأكلُ منهن، ثم قال : إن أنا حييتُ حتى آكلَ تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة!!

فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتَلهم حتى قُتِل" [١].

١٨٤ - وروى النسائي عن شدّاد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتَّبعه، ثم قال له: أهاجرُ معك. فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم بعضَ أصحابه. فلما كانت غزوة خيبر، غنم النبي صلى الله عليه وسلم غنيمة، فقسّم منها لذلك الرجل، وكان يرعى ظهرهم. فلما جاء، دفع أصحابه له نصيبه. فقال: ما هذا؟ قالوا: قسمٌ قسمه لك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هذا؟ قال صلى الله عليه وسلم: قسمٌ قسمته لك!

قال: ما على هذا اتبعتك ! ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت فأدخل الجنة!

قال صلى الله عليه وسلم: إلن تَصدُقِ الله يَصدُقكَ !

فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي بالرجل محمولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قد أصابه سهم حيث أشار!

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ. ثم كفّنهَ صلى الله عليه وسلم في جُبته، ثم قَدّمَه فصلى عليه. ودعا الله له قائلاً: اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقُتِلَ شهيداً، وأنا شهيدٌ على ذلك" [٢].

فانظر - رحمك الله - كيف شهد له النبيُ صلى الله عليه وسلم بالشهادة، مع أنه ما أراد غير الجنة، ولو كانت هذه النية غير صحيحة لأرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى غيرها. قال الإمام ابن دقيق العيد: المجاهد لطلب ثواب الله والنعيم المقيم مجاهدٌ في سبيل الله. ويشهد له فعل الصحابة.

---

[١] رواه مسلم: ٣/ ١٥١٠.
[٢] سنن النسائي: ٤ /٦١،الحديث صحيح.

وتشير الشريعة إلى أن الأعمال الصالحة لأجل الجنة أعمال صحيحة، لأن الله ذكر صفة الجنة ومـا أعـدّ فيهـا للعاملين، ترغيباً للناس في العمل الصالح، وكيف يرغبهم الله في العمل للجنة وثوابها ويكون هذا غير صحيح؟ [١]

إن النيات الثلاث المذكورات كافياتٌ في نيل المقصود، كفيلاتٌ بدار الخلود. غير أنّ النية الثالثة كالقشر بالنسبة إلى الأولى والثانية.

الرابع: ومن المجاهدين من إذا دهمه القتال قاتل مقبلاً غير مدبر، لا نية له إلا الدفع عن نفسه.

وهذا قريبٌ من أصحاب النية الثالثة، وليس مثلهم، وهذا المجاهد شهيداً إن قتل في هذا الجهاد، لأن من دفع عن نفسه قطّاع الطريق فقتلوه كان من الشهداء، فكيف لا يكون شهيدا من قتل بسيوف الأعداء؟.

لهاذا فرَّ المجاهد من المعركة حيث يحرم الفرار، فقتل مدبراً، فإنه ليس شهيداً، ولو جرت عليه أحكام الشهداء في الدنيا.

١٨٥ - روى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قام في المسـلمين خطيباً، فذكر أنَّ الجهاد في سبيل الله والإيمان به أفضل الأعمال.

فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله: أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله أتكفرُ عني خطاياي؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، إن قتلتَ في سبيل الله، وأنتَ صابرٌ محتسب، مقبل غيرَ مدبر.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف قلت:

قال : أرأيت إنْ قتلت في سبيل الله أتكفَّرُ عني خطاياي؟

قال صلى الله عليه وسلم: نعم، وأنت صابرٌ محتسب، مقبل غيرَ مدبر، إلاّ الدَّينَ.. فإن جبريلَ قال لي ذلك! " [١].

---

[١] انظر شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد: ٤/ ٢٤٨.

فدل هذا الحديث عن أن من قتل مدبراً حيث لا يجوز له الفرار ليس بشهيد، بل قد باء بغضب الله وسخطه.

وعلى هذا قوله تعالى:(وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال: ١٦].

١٨٦ - وروى النسائي عن أبي اليسر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه:"... وأعوذُ بك أنْ أقتلَ في سبيلك مدبراً" [٢].

وقد ذكر الإمام النووي أن الشهداء ثلاثة أقسام: شهيداً في الدنيا والآخرة: وهو من قتل في سبيل الله.

وشهيدٌ في الآخرة دون أحكام الدنيا، وهو المبطون والمطعون والغريق، ونحو ذلك.

وشهيدٌ في الدنيا دون الآخرة، وهو من غلّ من الغنيمة أو قتل مدبراً" [٣].

الخامس: ومن المجاهدين من يخرج إلى الجهاد ليكثر سواد المجاهدين، وليس له نية في أن يقتل الكفار، أو يقتل في سبيل الله.

وهذا إذا قتل يكون شهيداً، لأنَّ من كثر سواد قومٍ فهو منهم.

السادس: ومن المجاهدين من تكون نيته من الجهاد وجه الله ونيل الغنيمة معاً. أي أنه شرَك في النية، حيث أراد الدنيا وأراد وجه الله.

وقد اختلف العلماء في هذه النية وأشباهها:

---

[١] صحيح مسلم: ٣/ ١٥٠١.
[٢] رواه النسائي في الاستعاذة: ٨/ ٢٨٢، والحديث صحيح.
[٣] صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣/ ٦٣.

فذهب بعضهم إلى أن هذه النية فاسدة، وأن صاحبها غير مأجور، بل هو معاقب، لأنه أدخل قصد الدنيا في عمل الآخرة.

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه النية صحيحه، وأن صاحبها مأجور مثاب عند الله.

وهذا هو الصحيح، لأنه يتفق مع فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام القرطبي: دلَّ خروج النبي صلى الله عليه وسلم لتلقي عير أبي سفيان لما قدم من الشام على جواز الخروج للغنيمة، لأنها كسبٌ حلال.

وهو يردُ ما كره مالك من ذلك، إذ قال: ذلك قتالٌ على الدنيا.

وما جاء أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، دون من يقاتل للغنيمة، فإنما يراد به أنَّ من كان قصده الغنيمة وحدها، وليس للدين عنده حظ [١].

وهذا الدليل الذي استدلَّ به القرطبي جيد.

وكذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة رضي الله عنه يعترض عير قريش، وكان فيها صفوان بن أمية ومعه آخرون من قريش، وكان في العير مالٌ كثيرٌ وآنية فضة وغير ذلك. واعترض زيد بن حارثة رضي الله عنه ومعه مائة مجاهد العير في منطقة "القردة" بأرض نجد، فأخذوها وهرب المشركون، وقدموا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم! [٢]

ومما يدلُّ على صحة هذه النية، ونيل الشهادة بها، أن الله كان يرغبُ المؤمنين المجاهدين بالغنيمة. قال تعالى: (وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ) [الفتح: ٢٠].

---

[١] تفسير القرطبي: ٤/ ١٨١٢.
[٢] طبقات ابن سعد: ٢/٣٦.

ومن غير المعقول أن يرغب الله عباده في الغنيمة، ويعدهم بها ويمتن عليهم بنيلها، ثم يحظر عليهم نيتها وقصدها وطلبها!

ومما يدلُّ على صحة هذه النية أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرسل السرايا ليغيروا على أنعام وأموال وذراري المشركين، فإذا لحق بهم المشركون قاتلوهم دفاعاً، عما في أيديهم من الأنعام، وقصداً لإعلاء كلمة الله. وربما انتصر المسلمون، وربما كانت الأخرى، وقد استشهد رجالٌ من الصحابة في ذلك، وكانوا إذا انهزم المشركون لم يلحق بهم المسلمون، وإنما ذهبوا بما معهم من الغنيمة! ومما يدلُّ على صحةْ هذه النية تصريح الرسول صلى الله عليه وسلم بجواز ذلك:

١٨٧ - روى أبو داود عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه، قال: بعَثَنَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لنغنَم على أقدامنا. فرجَعنا فلم نغنَم شيئاً، وعرف الجهدَ في وجوهِنا، فقامَ فينا فقال: اللهمّ لا تكلهم إليَّ فأضعف، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم " [1].

فالحديث صريحٌ في جواز الغزو للغنيمة والثواب معاً، فقد قال ابن حوالة رضي الله عنه: بعثنا لنغنم!

وقد تقدّم حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى سيف البحر، والذي قال فيه جابر رضي الله عنه:" بَعَثَنَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نرصدُ عِيراً لقريش".

ورغم أنه يجوز أن ينوي المجاهد الجهاد والغنيمة معاً، إلاّ أنّ من كانت نيته هكذا لا يستوي مع من كانت نيته الجهاد خاصة، ولم يلتفت للغنيمة إطلاقاً، لأنَّ نيل الغنيمة في الجهاد ينقص أجر المجاهد، وإن لم ينو ذلك، وهذا ما صرَّح به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٨٨ - روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" ما مِن غزيةٍ أو سريةٍ تُخفقُ وتخَوّفُ وتُصاب، الاّ تَم أجرُهم " [2].

---

[1] رواه أبو داود في الجهاد: ٣/٤١، والحديث صحيح.
[2] رواه مسلم في الأمارة: ٣/ ١٥١٥.

وفي روايةٍ ثانية، قال صلى الله عليه وسلم:" ما من غازيةٍ أو سرية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجّلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تمَّ لهم أجرهم".

يقال: أخفق الغازي إذا غزا ولم يغنم ولم يظفر.

ولأجل ما في نيل المغنم في الجهاد من شائبة نقص الأجر، كان جماعة من المجاهدين السابقين يتعففون عن أخذِ الغنيمة، لئلا ينقص أجرهم.

كان إبراهيم بن أدهم إذا خرج للغزو والجهاد لم يأخذ من الغنيمة شيئاً، فيقولون له: أتشُك إنه حلال؟

فيقول: لا أشُك أنه حلال، وإنما الزهد في الحلال!

وأنشد بعضهم في هذا المقام قول الشاعر:

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالكٍ إن كنت جاهلةً بمالم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة أنّني أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم

والأفضل للمجاهد إذا أراد أن يترك الغنيمة، أن يتركهما إيثاراً، بمعنى أن يؤثر بها بعض إخوانه، وإذا تركها زهداً فيها فهذا جيد.

وإذا ترك الغنيمة قطعاً لمادة استشراف النفس إلى نيلها فحسن وجميل، لأنَّ النفس إذا استشرفت إلى نيل الغنيمة وتوقعت وجودها كان ذلك نقصاً في إخلاصها.

السابع: من المجاهدين من يجاهد ونيته تحصيل عرضٍ من أعراض الدنيا، من غير التفات إلى قصد نوعٍ من أنواع العبادة، ولا إلى تقرُبِ إلى الله.

وهذا إذا عرض عليه غزو طائفةٍ من الكفار ليس لهم ما يغنمه توقّف عن ذلك، وإذا علم أنه منع من الغنيمة توقف عن الغزو كذلك.

فهذا إذا قتل أثناء الغزو لا يكون شهيداً في الحقيقة، وإن كان حكمه في الظاهر حكم الشهداء. ولا أجر له على غزوه لعدم صفاء نيته.

الثامن: من المجاهدين من يغزو رياءً وسمعةَ وافتخاراً، ليقول عنه الناس: غازٍ أو شجاع، وهذا ما أراد بغزوه وجه الله، وإذا قتل لا يكون شهيداً، ولا أجر له عند الله، وهو خليق في صفقته بالخسران، وجدير في آخرته بالمذلة والهوان.

وهو أوَل من تسعر بهم النار يوم القيامة، كما مرّ معنا في الحديث المتقدم، وإنما استوجب من الله هذا المقت العظيم، وحقّ عليه عند الله العذاب الأليم، لأنه تقرّب بالعبادة إلى غير من شرعها واستحقها، وبذلك كان مرائياً مشركاً بالله. وإن شرَّك في هذه النية، فكانت نيته في الجهاد الأجر والثواب، والذكر والمدح، والوصف بالشجاعة الإقدام، فهذا لا يأخذ أجر المجاهد أو الشهيد، وإن كان حكمه في الظاهر حكم الشهداء.

ودلت النصوص على أن نيته إن كانت هكذا، فإنه لا يثاب ولا يعاقب، بل يكفيه من العقوبة إحباط عمله وجهاده ، وذهاب أجره وثوابه، وخسارته بذلّ نفسه التي هي أنفس الأشياء لديه، وأعزُّها عليه.

مع ما ناله من ألم الجهاد والقتال والقتل، وهذا لا يخفف عنه ألم القتل في سبيل الله كما يخفُّ ألم القتل عن المخلص في قتاله وقتله.

١٨٩ - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل:" أنا أغني الشركاء عن الشرك، فَمَنْ عمل عملاً لي، أشرك فيه غيري، فأنا منه برىء، وهو للذي أشرك.. " [١].

١٩٠ - وروى الترمذي وابن ماجة وأحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَن كان أشركَ في عمله أحداً، فليطلبُ ثوابَه مِن عندِه، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك " [١]

---

[١] رواه مسلم في الزهد والرقائق: ٢/ ١٤٠٥.

التاسع: من المجاهدين من يجاهد ويغزو ليقتل، فيستريح مما هو فيه من ضعفٍ مؤلم، أو دينٍ لازم، أو فقرٍ ملازم، أو شر يتوقعه، أو مصيبةٍ تنزل به.

ولم يخطر بباله أثناء جهاده التقرب إلى الله، ولا إعلاء كلمته.

ويحتمل القول: هذا ليس شهيداً عند الله، لأنه لم يتمحض عنده قصد التقرب إلى الله ولا إعلاء كلمته. كما يحتمل القول: إنه شهيد، لأنه لم يسمح بنفسه إلا في وجه الجهاددون غيره، ورغبته فيه دون غيره.

وهذا الاحتمال الثاني أقرب من الأول، ولكنه لا يلتحق بالمخلصين الصادقين، الذين تقربوا إلى الله بجهادهم.

فــــصل

في من يغزو بجُعل وأجرة

اعلم أن الأئمة رضي الله عنهم قد اختلفوا في أخذ الأجرة على الجهاد: فمنهم من منعه، ومنهم من جوّزه.

وعلى القول بجواز أخذ الأجرة على الجهاد فإنه لا يجوز أن يتوقف جهاده على أخذ الأجرة، بحيث إنه إذا لم يأخذ الأجرة لم يجاهد، فإن كان كذلك لم يأخذ على جهاده أجراً ولا ثواباً، وإذا قتل فالظاهر أنه ليس شهيداً.

وإذا حضر هذا المجاهد بأجرة الميدان ثم رزقه الله إخلاص النية، فقاتل مقبلاً غير مدبر حتى قتل، فيرجى أن يكون شهيداً. ولكنه لا أجر له على ما قبل إحضار نيته الخالصة، من الغدوّ والرواح، والغبار والخوف، وغير ذلك، لأنــه لولا الأجرةُ لما خرج.

وإن كان فقيراً لا يجد ما ينفقه على نفسه في الجهاد، فأخذ الأجرة على تجهيز نفسه للجهاد، فهــذا في جهــاده مأجور، وأخذه الأجرة لا يقدح في جهاده.

---

[1] رواه الترمذي في التفسير: ٣١٤/٥. وابن ماجة في الزهد: ٢/ ١٤٠٦. وأحمد: ٣: ٤٦٦، والحديث حسن.

١٩١ - روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " للغازي أجرُه، وللجاعل أجرُه وأجرُ الغازي " [١].

وأما من استؤجر للخدمة في الغزو لا للقتال، فإن له أجر القتال عند اشتراكه فيه، إذا كانت نيته في ذلك خالصةً لله.

وكذلك التجار والصنّاع، إذا قاتلوا بنيةٍ صادقة لله، فلهم أجرهم عند ربهم، وإذا قتلوا في سبيل الله كانوا شهداء.

فصل

في حدوث الرياء بعد الخروج الصادق للجهاد

من غزا في سبيل الله بنيةٍ خالصةٍ صادقة، ثم طرأ واردُ الرياء، بعد شروعه في أفعال الجهاد، ففي المسألة تفصيل:

الطاعات والقربات التي قام بها قبل حدوث الرياء، التي لا يتوقف ثوابها على القتال، فهذه له أجرٌ عليها، كالنفقةِ في سبيل الله، وتجهيز المجاهدين، والرباط والحراسة وغير ذلك.

فالرياء يحبط العمل الصادر بعده، ولكنه لا يحبط العمل الصادر قبله، والمؤمن يطمع في سعة رحمة الله، ومعاملته عباده بالجود والفضل. وإن لم يكن صدر منه شيء من القربات قبل طارىء الرياء، وإنما طرأ عليه الرياء عند خروجه للجهاد مباشرة، فهذا لا أجر له، لأن الرياء أحبط كل عمله. وإن أنشأ قصد الجهاد بالنية الخالصة، وخرج للجهاد مخلصاً لله، فلما تراءى الجمعان، وصُفّ الناس للقتال، ذهبت عنه النيةُ الخالصة التي خرج بها للجهاد، ولكن لم يحل محلها ما ينافيها من رياءٍ أو افتخار، فالنية الأولى تكفيه، وهو مأجور على جهاده. لأنه خرج للجهاد في سبيل الله، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

[١] رواه أبو داود في الجهاد: ٣/٣٧،الحديث صحيح.

ويكفي استحضار نيته للجهاد بصورةٍ عامة، ولا يشترط تحقق النية في كل جزئية من جزئيات الجهاد، ولا في كل لحظةٍ من لحظات السير للجهاد، ويكفي عدمُ حدوثِ ما يبطل نية الجهاد. وإن لم يكن قتاله في سبيل الله، وإنما كان قتاله خوفاً من الذمِّ والعار إذا فرّ من الميدان، فهذا لا اجر له على قتاله، لأنه لم يكن لله.

فعلى المجاهد أن يبعد عن ذهنه وقلبه وارد الرياء والافتخار، والنظر إلى الناس، وانتظار حمدهم وثنائهم، وخــوف مذمتهم وكلامهم، وعليه أن يجاهد نفسه في نفي هذه الخواطر المحبطة لجهاده ، وفي تحقيق قصد الإخلاص لله، وعليه أن يلجأ إلى الله التجاء الغريق مسلوب القدرة في تيار الماء القاهر، فلعل الله أن ينظر إلى عجــزه واضــطراره، وأن يدركه بنفحةٍ من نفحات الإخلاص في آخر حياته، فيفوز بالشهادة، ويظفر بعد الفقر بكتر السعادة، والله يعصم من يريد، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فـــصل

في حكم من أعلن أنه شارك في الغزو والجهاد

قد يجاهد المجاهد مخلصاً لله، وتبقى نيته الخالصة الصادقة لحين انتهاء المعركة، ويعود من المعركة والغزو ســالماً، ثم تظهر له رغبة في ذكر جهاده وغزوه لمن لم يعرف ذلك، ليعرف عنه أنه قد غزا، أو يفصل بعض أحــداث غــزوه وجهاده، الدالة على شجاعته أو صبره أو حسن ممارسته للحرب، أو نحو ذلك.

وقد وردت الآثار والأخبار على أن عمل هذا حابط، وأن كلامه محبطٌ لجهاده السابق الصادق.

١٩٢ - روى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجلٍ قال :" صُمْتُ الدهرَ يا رسولَ الله! ".

فقال صلى الله عليه وسلم: ما صُمتَ ولا أفطرتَ [١].

[١] رواه مسلم في الصيام: ٢/٨٢٨.

وسمع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلاَ يقول: قرأت البارحة سورة البقرة!

فقال: ذاك حظُه من قراءته!

على المرء أن لا يذكر جهاده وسائر عمله الصالح لغير فائدة، لئلا يكون ذلك محبطاً لعمله. فإن كانت هنالك فائدةٌ نافعة من ذكره لجهاده، وخلصت نيته، وانتفى عنه الرياء، فلا مانع من ذلك، وهذا لا يحبط عمله.

وذلك كأن يكون قدوة لغيره، أو يريد تقوية قلوب مستمعيه جرأةً وشجاعة وقوة.

كأن يذكر عن نفسه أنه ثبت لكذا وكذا فارس، وأنفق في سبيل الله كذا وكذا، وخاطر بنفسه في كذا وكذا، فيقوى قلب السامع، ويجود بماله أو نفسه، وتزول عن قلبه ظلمة

الجبن والبخل، لأن النفس مجبولةٌ على التحدي والتشبه بالأقران.

هذا كان قصد السلف الصالح في ذكر ما يحكونه من أفعالهم.

لماذا علم أن مقصوده في الاقتداء يحصل بالحديث عن الجهاد دون عزو ذلك إلى نفسه فعل، ولا ينسبه إلى نفسه، لئلا يكون في ذلك رياء.

وذلك كأن يقول: اتفق لبعض المجاهدين كذا، أو: رأيت شخصاً حصل منه كذا، أو أعرف رجلاَ فعل كذا.

بذلك لا يفهم المخاطب أنه هو الفاعل، ويحصل به المقصود من الاقتَداء ونحوه.

وكان اكثر السلف يجتهدون على إخفاء أعمالهم مطلقاً، ولو كانوا قدوةً يُقتدى بهم، لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم الرياء.

١٩٣ - روى الطبراني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَن سَمَّعَ الناسَ بعمله، سَمَّعَ اللهُ به سامِعَ خلقه، وصغَّره وحَقَّره "[1].

١٩٤ - وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله به " [2].

والمعنى: من أظهر عمله، وسمَّع الناس به، إعلاماً ورياءً لهم، أظهر الله نيته الفاسدة، وفضحه على رؤوس الخلائق.

فلما علم الموفقون أن التحدث بالطاعة وإظهارها خطرٌ عظيم، وأن دسائس النفس لا يحاط بأنواعها، أخفوا طاعاتهم ضناً بها، وخوفاً من إحباطها، واكتفاءً باطّلاع الله عليها وعلمه بها، لأنه هو وحده الذي يجازيهم بها.

وأهمُّ العبادات وأوّلاها بالستر والإخفاء الجهاد، لأنه سبب السعادة الأبدية إن كان خالصاً لله، أو الشقاوة السرمدية إن أبطله بالرياء.

ومن الأمثلة على حرص الصالحين على إخفاء جهادهم:

روى ابن عساكر عن عبد الله بن سنان قال : كنت مع عبد الله بن المبارك والمعتمر ابن سليمان بطرطوس، فصاح الناس: النفير، النفير، فخرج ابن المبارك والمعتمر وخرج الناس.

فلما اصطفّ المسلمون والعدو، خرج رجل من الروم يطلب البراز. فخرج إليه مسلم، فشدّ العلجُ الروميُّ على المسلم فقتله، فخرج إليه مسلم آخر فقتله، حتى قتل ستة من المسلمين مبارزة.

وصار الرومي يتبخترُ بين الصفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد من المسلمين.

قال المعتمر: فالتفت إلي ابن المبارك فقال: يا عبد الله: إن حدث بي حادث الموت فافعل كذا وكذا.

---

[1] رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال رواه الطبراني في الكبير. مجمع الزوائد:١٠/٢٢٢ ، والحديث صحيح.
[2] رواه البخاري في الرقائق: ٧/١٨٩. ومسلم في الزهد: ٤/٢٢٨٩.

وحرك دابته، وخرج إلى العلج الرومي، فعالجَ معه ساعة، فقتله، ثم طلب ابن المبارك المبارزة، فخرج إليه علــج آخر، فقتله، حتى قتل ستةً من علوج الروم مبارزة، ثم طلب المبارزة، فلم يخرج إليه أحد منهم جُبناً.

فضرب ابن المبارك دابته، ونظر بين الصفين، وغاب، وعاد إلى الموضع الذي كان واقفاً فيه بجانبي.

فقال لي: يا عبد الله: لا تُحَدِّث بما رأيت مني أحداً وأنا حَي، وإلاّ.. فما حَدَّثتُ أحداً بما فعلَ إلاّ بعدما مات!

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ما رواه ابن عساكر، عن الأصمعي قال: حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً في بلاد الروم، فأصابهم فيه جهدٌ عظيم، ولم يتمكنوا من اقتحامه وافتتاحه.

وجاء رجل من الجند فدخل من نقبٍ في الحصن، وفتح الله على المسلمين.

وبعد ما انتهت المعركة بانتصار المسلمين نادى منادي مسلمة بن عبد الملك: أين صاحب النقب؟ فلم يجبه أحد، ونادى الثانية والثالثة والرابعة، فلم يُجبه أحد.

بعد ذلك دخل أحد الجنود على مسلمة فقال: إن صاحب النقب يشترطُ عليك ثلاثة شروط: أنْ لا تسجلوا اسمَه في صحيفة، وأنْ لا تأمروا له بشيء من المال أو المكافأة، وأن لا تُشغلوه عن أمره.

قال مسلمة: ذلك له، ونحن ملتزمون بهذه الشروط.

قال له: أنا صاحب النقب! وغاب بعد ذلك، ولم يُرَ.

فكان مسلمةُ بعد ذلك يقول في دبرِ كل صلاة: اللهمّ اجعلني مع صاحبِ النَّقب!

الباب السابع والعشرون

في بيان أن من خرج مجاهداً فمات من غير قتال فهو شهيد

قال الله تعالى: (وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ) [آل عمران: ١٥٧ -١٥٨].

وقال تعالى: (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً) [النساء: ١٠٠].

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) [الحج: ٥٨ -٥٩].

١٩٥ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَثَلُ المجاهدِ في سبيل الله كمَثل القانتِ الصائم، لا يفتُرُ صلاةً ولا صياماً، حتى يُرجعَه اللهُ الى أَهله بما يُرجعه إليهم من غنيمة أو أجر، أو يتوفّاه فيدخلُه الجنة " [1].

١٩٦ - وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما تَعُدّون الشهادة فيكم؟

قالوا: مَن قُتل في سبيل الله فهو شهيد.

قال: إن شهداءَ أمتي إذن لقليل!

قالوا: فمن هم يا رسولَ الله؟

[1] رواه البخاري في الجهاد: ٣/٢٠١. ومسلم في الإمارة: ٣/ ١٤٩٨.

قال: مَن قُتل في سبيل الله فهو شهيد، َومن ماتَ في سبيل الله فهو شهيد، ومَن مات في الطاعون فهو شهيد، ومَن مات في البطن فهو شهيد، ومَن غرقَ فهو شهيد" [١].

١٩٧ - وروى البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " خمسٌ مَن قُبضَ في شيء منهن فهو شهيد: القتيلُ في سبيل الله شهيد، والغريقُ في سبيل الله شهيد، والمطعونُ في سبيل الله شهيد، والمبطونُ في سبيل الله شهيد، والنفساءُ في سبيل الله شهيدة "[٢].

١٩٨ - وروى الترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يَحكي عن ربه عز وجل:" أيّما عبد من عبادي خرجَ مجاهداً في سبيل الله، ابتغاءَ مرضاتي، ضمنتُ له إن رجعتُه أن أرجعهُ بما أصابَ مِن أجر أو غنيمة، وإن قبضتُه غفرتُ له" [٣].

١٩٩ - وروى النسائي وأحمد وابن أبي شيبة عن سَبُرَةَ بن الفاكِه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" إن الشيطانَ قعد لابن آدم بأَطرُقه، فقعدَ له بطريق الإسلام فقال: تسلمُ وتَدع دينكَ ودين آبائك؟. ثم قعدَ له بطريقِ الهجرة، فقال: تهاجرُ وتَدَعُ مولدَك؟ ثم قعدَ له بطريق الجهاد، فقال: تجاهدُ فتُقتل، فَتُزَوَّجُ امرأتك ويقسَم ميراثُك؟

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل ذلك ضمنَ اللهُ له الجنة، إن قُتل أو ماتَ غرقاً أو حرقاً أو أكلَهُ السَبعُ" [٤].

وقال ابن عتيك عن كلمة " مات حتف أنفه": إنها لكلمة ما سمعتُها من أحد من العرب، وأولُ ما سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى: مات حتف أنفه: مات على فراشه. وقيل فيه ذلك لأنَّ نفسه تخرج بتنفسِه في فمه وأنفه.

---

[١] رواه مسلم في الإما رة: ٣/١٥٢١.
[٢] رواه البخاري في الجهاد والسير: ٣/٢١١. ومسلم في الامارة: ٣/١٥٢١.
[٣] رواه الترمذي في فضائل الجهاد: ٤/١٦٤. والنسائي في الجهاد: ٦/١٨، والحديث صحيح.
[٤] رواه النسائي في الجهاد: ٥/٢٩٣. وأحمد: ٣/٤٨٣. وابن أبي شيبة: /٢٩٣ ، والحديث صحيح.

٢٠٥ - روى البيهقي وأحمد عن حميد بن عبد الرحمن الحميري أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له حممة، جاء إلى أصبهان في خلافة عمر رضي الله عنه، فقال: اللهمَّ إن حَمَمَةَ يزعمُ أَنه يحبُّ لقاءك، فإن كان حممةُ صادقاً فيما يقول، فاعزم عليه بصدقه، وإن كان كاذباً فاعزم له عليه وإن كره. اللهم لأ تَرُد حَمَمَةَ من سفرتهِ هذه!

فأخذهُ بطنُه فماتَ بأصبهان.

فقام أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس: إنّا والله ما سمعنا فيما سمعنا من نبيك صلى الله عليه وسلم، ولا فيما بلّغ علمنا، الاّ أن حممةَ مات شهيداً" [1].

إن من قتل في سبيل الله فهو شهيد، وإن من خرج للجهاد فمات في سبيل الله قبل حضور المعركة فهو شهيد.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الإثنين سواء، يستويان في الشهادة وفي الأجر والثواب.

ولكن الراجح أنهما لا يستويان، فهناك فَرقٌ بين من قتل في سبيل الله، ومن مات في سبيل الله.

ولا شكَّ أنَّ المقتول في سبيل الله أفضل من الميت في سبيل الله، ومن الفروق بينهما:

للمقتول في سبيل الله مزيةٌ وفضلٌ على الميت في سبيل الله لما أصابه من القتل.

٢٠١ - روى ابن حبان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سُئل رسول الله صلى الله عليـه وسـلم: أيُ الجهاد أفضل؟ قال: أنْ يُعقَرَ جوادُك، ويُراقَ دمُك " [2].

المقتول أفضل من الميت، لأن من نوى عملاً فعمله، أفضل ممن نوى عملاً ولم يتمكن من فعله، فالمقتول عمل مـا نوى، والميت لم يتمكن من ذلك.

---

[1] أسد الغابة لابن الأثير: ٢/ ٥٨. ومجمع الزوائد للهيثمي: ٩/ ٤٠٠.
[2] موارد الظمآن. ص: ٣٨٧، الحديث صحيح.

الميت يسمى ميتاً، وإن كان له مثلُ أجر الشهيد، والمقتول لا يسمى ميتاً، بل يسمى شهيداً. وقد نهى الله عن تسمية الشهداء أمواتاً. فقال تعالى: (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ) [البقرة: ١٥٤].

للمقتول ثواب ما أصابه من الجراح في سبيل الله، حيث تأتي يوم القيامة تتفجر دماً، اللون لون الدم والريح ريح المسك، والميت لم ينل ذلك! المقتول في سبيل الله يتمنّى الرجعة إلى الدنيا، ليقتل في سبيل الله مرةً ثانية، لما رأى من ثواب القتل. والميت في سبيل الله لا يتمنى ذلك.

٢٠٢ - روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" ما من نفسٍ تموت لها عند الله خير، يسرُّها أن ترجعَ إلى الدنيا، وأنّ لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، يتمنّى أن يرجع، فيُقتل في الدنيا، لما يرى من فضل الشهادة" [1].

القتل في سبيل الله يكفر كلَّ ذنب، والموت في سبيل الله لا يكفر كلَّ ذنب.

الميت في سبيل الله يُصلّى عليه، والمقتول في سبيل الله لا يغسَّل ولا يصلّى عليه، لأن الصلاة على الميت طلبٌ من الله أن يغفر له ذنوبه، وذنوب الشهيد قد غفرت له بمجرد قتله في سبيل الله، ولذلك لا يصلّى عليه.

المقتول في سبيل الله روحه في جوف طيرٍ أخضر في الجنة، وليس كذلك الميت في سبيل الله.

المقتول في سبيل الله يأمن من فتنة القبر، وليس كذلك الميت.

المقتول في سبيل الله يشفعُ في الآخرين، وليس كذلك الميت.

المقتول في سبيل الله يرى الحور العين قبل أن يجفَّ دمه، وليس كذلك الميت في سبيل الله.

---

[1] رواه مسلم في الإمارة: ٣/ ١٤٩٨.

ويتميز الميت في سبيل الله عن المطعون والمبطون والغريق والحريق ومن ذكر معهم من الشهداء، بما ناله من أجـــر الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والغدوِّ والرواح والغبار والسير والصدقة والنفقة، وتضعيف ما قام به في خروجـــه من عباداتٍ وقرباتٍ وطاعات.

وإذا مرض الخارج للجهاد في سبيل الله، وأصيب بصداعٍ في رأسه، أو مرضٍ في جسمه، غفر له ما تقدم من ذنبه.

الباب الثامن والعشرون

في الترغيب في سؤال الشهادة والحرص عليها ومن تعرض لها فنالها

فرض الله على المسلمين أن يسألوه في كل صلاة هدايتهم إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم:(اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) [الفاتحة: ٦ -٧].

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً) [النساء: ٦٩].

٢٠٣ - روى مسلم عن سهل بن حنيف رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" مَنْ سَألَ اللهَ تعالى الشهادةَ بصدق، بلغَه اللهُ منازلَ الشهداء، وإنْ ماتَ على فراشه " [1].

٢٠٤ - وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَن طلبَ الشهادةَ صادقاً أُعطِيَها، ولو لم تُصبْه " [2].

٢٠٥ - وروى أبو داود والترمذي والنسائي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" مَنْ قاتلَ في سبيل الله فُواقَ ناقة فقد وجبت له الجنة، ومَن سألَ اللهَ القتل مِنْ نفسه صادقاً ثم مات أو قُتل فإن له أجرَ شهيد" [3] .

٢٠٦ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تضمَّنَ اللهُ لمن خرجَ في سبيله، لا يُخرجُهُ إلا جهادٌ في سبيلي، وإيمانٌ بي، وتصديق برسلي، فهو عليَّ ضامن أن أدخلَه الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمة. والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما كلمٌ يكلمُ في سبيل الله إلاجاء يوم القيامة كهيئته يومَ كلِم، لونُه لونُ دم، وريحُه ريحُ مسك. والذي نفسُ محمد بيده لولا أن أشق على

[1] رواه مسلم في الإمارة: ٣/١٥١٧.
[2] رواه مسلم في الإمارة: ٣/ ١٥١٧
[3] رواه أبو داود في الجهاد: ٣/ ٤٦. والترمذي: ٤/ ١٨٥. والنسائي: ٦/ ٢٥ الحديث صحيح.

المسلمين ما قعدتُ خلافَ سريةٍ تغزو في سبيل الله، ولكن لا أجدُ سَعةَ فأحملهم، ولا يجدونَ سَعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني.

والذي نفسُ محمد بيده لوددتُ أني أغزو في سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأُقتل" [١].

وروى الحاكم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال له يوم أحـــد: ألا تأتي ندعو الله.

فدعا سعدٌ ربه قائلاً: يا رب: إذا لقينا القوم غداً، فلَقني رجلاً، شديداً بأسُه، شديداً حِرده، فأقاتلُه فيك ويقاتلُني، ثم ارزقني عليه الظفرَ حتى أقتلَه!

ودعا عبد الله بن جحش رضي الله عنه ربَّه قائلاً: اللهم ارزقني رجلاً، شديداً حَرْدُه، شديداً بأسُه، أقاتلُه فيـــك ويقاتلُني، ثم يأخذُني، فيجدعُ أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلتَ لي: يا عبد الله: فيم جُدِع أنفك وأُذُناك؟

فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت.

وقد استشهد عبد الله بن جحش رضي الله عنه في المعركة.

وقال سعد لابنه إسحاق: يا بني: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، لقيته آخر النهار، وهو قد جُــدع أنفُــه وأذُناه!

وروى ابن إسحاق أنه لما حان خروج جيش مؤتة، ودعَّ الناس الجيش. ولما ودّع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه من ودع بكى.

فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟

---

[١] رواه البخاري في الجهاد: ٤/١١. ومسلم في الإمارة: ٣/١٤٩٥.

قال: أما والله ما بي حبّ الدنيا ولا صبابةٌ لها. ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آيةَ من كتـــاب الله يذكر فيها النار: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً) [مريم: ٧١ -٧٢] . فلا أدري كيف لي بالصُّدور بعد الورود؟

قال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين.

فردّ عليهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قائلاَ:

لكنّني أسأل الرَّحمن مغفرةً وضربةَ ذات فرعٍ تقذف الزَّبدا

أو طعنةَ بيدي حرَّان مجهزةً بحــربةٍ تنفــذُ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مرَّوا على جدثي يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا

وحارب المسلمون الروم في مؤتة، وكان عبد الله بن رواحة القائد الثالث، حيث سبقه القائدان زيد بن حارثـــة، وجعفر بن أبي طالب، ولقي الثلاثة الشهادة رضوان الله عليهم. وعن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه كان يقول: اللهم إني أسألك شهادةً في سبيلك. ووفاةً ببلدِ رسولك صلى الله عليه وسلم.

فاستجاب الله له ،ورزقه الشهادة في المدينة.

وروى الذهبيُّ عن سليم بن عامر قال: دخلتُ على الجراح بن عبد الله الحكمي، فرفع يديـــه، فرفـــع الأمـــراء أيديهم.

فقال لي الجراح: يا أبا يحيى: هل تدري ما كنّا فيه؟

قلت: لا. وجدتكم في رغبة، فرفعت يدي معكم!

قال : سألنا الله أن يرزقنا الشهادة.

قال سليم بن عامر: فو الله ما بقي منهم أحدٌ في تلك الغزوة حتى استشهد.

وروى ابن المبارك عن حميد بن هلال قال : كان الأسود بن كلثوم قد خرج للجهاد، فدعا الله قائلاً: اللــــهمَ إن هذه نفسي، تزعم في الرضا، أنها تحبك، فإن كانت صادقة، فارزقها لقاءك، وإن كانت كاذبةَ فاحملــــها عليــــه وإن كرهت. واجعله قتلاً في سبيلك، واطعم لحمي سباعاً وطيراً.

فانطلق الأسود للجهاد، وقاتل الأعداء حتى قُتل.

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: شهدت أنا وأخي هشام معركة اليرموك. فبتنا ندعو الله أن يرزقنا الشهادة. ولما أصبحنا رزقهُ اللهُ الشهادة وحرمني إياها.

٢٠٧ - وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصـــحابه، حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون بعد ذلك. وحث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المســـلمين علـــى الجهاد، وقال:" قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض" قال عُمير بن الحمام: يا رســـول الله: جنـــة عرضــــها السموات والارض؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم. قال ابن الحمام: بخ، بخ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يحملُك على قولك بخ بخ؟

قال: لا والله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها.

قال صلى الله عليه وسلم: فإنك من أهلها!

فأخرج تمراتٍ من قرنه، فجعل يأكل منهن. ثم قال : إن أنا حييتُ حتى آكلَ تمراتي هذه

إنها لحياةٌ طويلة!

فرمى بما كان معه من تمر، ثم قاتلهم حتى قتل. رضي الله عنه [١].

وروى ابن المبارك عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مررت يوم اليمامة بثابت بن قيس رضي الله عنه، وهو يتحنَّط. فقلت: يا عم: ألا ترى ما يلقى المسلمون وأنت هنا؟ فتبسم ثم قال: الآن يا ابن أخي!

فلبس سلاحه، وركب فرسه، حتى أتى الصف. ثم قاتل حتى قُتل رحمه الله.

والحنوط: هو الطيب الذي يوضع على الميت. ولعلهم كانوا يتحنَّطون عند المعركة لتوطين نفوسهم على الموت في سبيل الله.

٢٠٨ - وروى النسائي وأبو عوانة والحاكم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يُؤْتى بالرجلِ من أهلِ الجنة، فيقولُ اللهُ له: يا ابنَ آدمْ كيف وجدتَ منزلَك؟

فيقول: يا رب: خيرُ منزل.

فيقول الله: سَل وتَمَن!

فيقول: أسألك أن تَرُدني إلى الدنيا، فأُقتلَ في سبيلك عشرَ مرات!

وذلك لما يرى من فضل الشهادة" [٢].

وإذا كان أهل الجنة يتمنون الشهادة، ويسألونها، وقد حصلوا على ما حصلوا عليه من الفوز العظيم، ووصـــلوا إلى ما وصلوا إليه من النعيم المقيم، فكيف لا يسأل الشهادة ولا يتمناها من هو الآن في دار المحن والشرور؟

---

[١] رواه مسلم في الإمارة: ٣/ ١٥٠٩.
[٢] رواه النسائي: ٦/ ٣٦. وأبو عوانة في مسنده؟:٣٣/٥ ، والحديث صحيح.

وروى ابن إسحاق في السيرة عن محمود بن لبيد رضي الله عنه : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة أحد كان حسَيْلُ بن جابر - وهو اليمان والد حذيفة بن اليمان - وثابت بن وقش في الآطام مع النساء والصبيان.

فقال أحدهما لصاحبه - وكانا شيخين كبيرين -: ماذا ننتظر، فوالله ما بقي للواحد منا من عمره إلا ظمءُ حمار، وإنما نحن هامة اليوم أو غداً، فلنأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، لعل الله أن يرزقنا الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم!

فأخذوا أسيافهما حتى دخلا في الناس، ولم يعلم بهما المسلمون.

أما ثابت بن وقش فقد قتله المشركون رضي الله عنه.

وأما حسيل بن جابر فقد اختلفت عليه أسياف المسلمين، وهم لا يعرفونه، فظنوه واحداً من المشركين، فقتلوه.

ورأى حذيفة والده رضي الله عنهما يُقتل: فنادى: أبي والله!

فقالوا: واللهِ ما عرفناه، وظننّاه أحَد المشركين.

فقال حذيفة: يغفر اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين!

وأراد الرسول بعد ذلك أن يدفع ديته، لأنه قتل خطأ، فتصدق حذيفة رضي الله عنه بديته على المسلمين، فزادَه ذلك خيراً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو نعيم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأخيه زيد رضي الله عنه يوم أحد: خذ درعي يا أخي!

فقال له زيد: إني أريد من الشهادة مثل الذي تريد!

فتركا الدرع رغبةً في نيل الشهادة.

وقد استشهد زيد بن الخطاب في معركة اليمامة، بينما استشهد عمر في المحراب، رضي الله عنهما.

وروى ابن الأثير في أسد الغابة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج إلى بدر يتوارى!

قلت له: مالَكَ يا أخي تتوارى؟

قال: إني أخافُ أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيستصغرُني فيردُّني. وأنا أحبُّ لقاء الله!

فعُرِض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستصغره،وقال له: ارجع!

فبكى عمير. فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكنت أعقد له حمائل سيفه [العلاقة التي يُعَلَقُ بها السيف] من صغره. فقتل يومَ بدر، وهو ابنُ ست عشرة، قتله عمرو بن عبد وُدّ. وروى ابن المبارك في الجهاد أنَ رجلاً من قوم صلة بن أشْيَمَ العَدَويِّ رضي الله عنه قال له: يا أبا الصهباء: إني رأيت أني أعطيت شهدةً من عسل، واعطيت أنت شهدتين اثنتين من العسل.

فقال له صِلَةُ بن أشيم: رأيت خيراً، سوف تنال أنت الشهادة في سبيل الله، وسوف أنالُها أنا وابني أيضاً!

وخرج صلة بن أشيم للجهاد، وكان عمرهُ مائةَ وثلاثين سنة، وخرج معه ابنُه للجهاد، وحارب المسلمون الترك بسجستان [في أفغانستان].

ولما اشتدت المعركةْ قال صلةُ لابنه: يا بُني: ارجع إلى أمك!

فقال له ابنه: يا أبتِ أتريد الخير لنفسك وتأمرني بالرجوع، وأنت والله كنت خيراً لأمي منْي.

فقال له أبوه: أما إذا قلت هذا، فتقدم للقتال. فتقدم الابن، فقاتل حتى قتل!

ثم تقدم صلة بن أشيم، فقاتل حتى قتل! وجاء خبرُ استشهاد صِلَةَ وابنه إلى امرأتِه مُعاذَة، فقالت للنساء: إن كنتُن جئتُن لتهتيننا بما أَكرَمنا اللهُ به من استشهادِهما فذاك، وإلاّ فارجعن!

وروى ابنُ أبي شيبة عن سعد بن إبراهيم أنهم مروا على رجل يوم القادسية وقد قطعت يداه ورجلاه وهو يفحصُ بدمه [يتقفبُ بدمه] وهو يقول: (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً) [النساء: ٦٩].

قالوا: من أنت يا عبد الله؟

قال: أنا رجل من الأنصار!!

الباب التاسع والعشرون

في فضل الشهيد المقتول في سبيل الله

اعلم أن الشهادة رتبة عظيمة ومنزلة سامية، لا يُلَقاها إلاّ ذو حظ عظيم، ولا ينالها إلا من سبق له القدر بــالفوز المقيم.

والشهداء مع الأنبياء في الجنة، قال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَـيْهِم مِّــنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً) [النساء: ٦٩].

واختلف العلماء في حكمةِ تسميةِ الشهيد شهيداً.

فقيل: سمي بذلك لأنه مشهود له بالجنة.

وقيل سمي الشهداء بذلك، لأن أرواحهم شهدت الجنة، وحضرت دار السلام، وهم أحياءٌ عند ربهم.

فالشهيد بمعنى الشاهد، والشاهد هو الحاضر في الجنة.

قال القرطبي: وهذا هو الصحيح.

وقال ابن فارس في " مقاييس اللغة": الشهيد القتيل في سبيل الله. وسمي بذلك إما لأن الملائكة تشهده.

وإمّا لأنه شهد على نفسه لله عز وجل، حين لزمه الوفاء بالبيعة التي بايع الله عليها والتي أشار لها قوله تعالى: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) [التوبة: ١١١].

فاتصلت شهادة الشهيد الحق بشهادة العبد، فسماه الله شهيداً!

وقال ابن الأنباري: سمي شهيداً لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة.

وقيل: سُمي بذلك لأنه عند خروج روحه، يشهد ما أعدَّ الله له من الثواب والكرامة.

وقيل: سمي بذلك لأن عليه شاهداً يشهد كونه شهيداً، وهو الدم.

وقد منّ الله على الشهداء بنعم عظيمة، وخصَّهم بمآثر جليلة.

ومن أعظم هذه النعم والمآثر المزايا أنه جعلهم أحياء عنده، يرزقهم من الجنة

حيث شاءوا.

قال تعالى: (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ) [البقرة: ١٥٤].

وقال تعالى: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

٢٠٩ - وروى أحمد والحاكم وابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الشهداء على بارق نهرٍ بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرجُ عليهم رزقُهم من الجنة بكرَة وعشياً" [1] .

٢١٥ - وروى الترمذي والحاكم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نظرَ إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فقال: يا جابر: مالي أَراكَ مُهتَماً؟

قلتُ: يا رسولَ الله: استشُهد أبي، وتركَ عليه دَيناً وعيالاً.

---

[1] رواه أحمد: ١/٢٦٦. والحاكم: ٢/٧٤. وابن أبي شيبة: ٥/ ٢٩٥،الحديث صحيح.

قال: أَلا أخبرُك؟ ما كلمَ الله أحداً إلاّ من وراءِ حجاب، وإنه كَلَمَ أباك كَفاحاً. [والكفاح: المواجهة]. فقال: سَلْني أعطك؟

قال: أسألك أن أرَدَّ إلى الدنيا، فأُقتل ثانية!

فقال الرب: إنه سبقَ مني أنهم اليها لا يُرجعون "[1].

وقد اختلف العلماء في معنى حياة الشهداء:

قال القرطبي: الذي عليه معظم العلماء أن حياة الشهداء مُحَققَة، وأنهم أحياءٌ في الجنة يُرزقون فيها، كما أخبرَ الله تعالى.

لقد ماتوا وغادروا هذه الدنيا، لكنهم فُضلوا على سائر الناس بالرزقِ في الجنة، حتى كأن الحياة دائمةٌ لهم.

وذهب بعض العلماء إلى أنَّ أرواحهم تُرَدُ إلى أجسادهم وهم في قبورهم، فيتنعمون فيها.

وقال مجاهد: يرزق الشهداء من ثمر الجنة، ويجدون من ريحها، مع أنهم ليسوا فيها. ولكن الراجح الصحيح هو: أن أرواح الشهداء في جوف طيرِ خضر، وأنهم في الجنة، يرزقون ويتنعمون ويأكلون. لأنه هو الذي دَلَّت عليه النصوص السابقة من الآيات والأحاديث.

والشهداء ليسوا على رتبةٍ واحدة عند الله، فهم متفاوتون في المكانة، ومتفاوتون في المكان.

وسبب ذلك التفاوت هو تفاوتهم في درجات إخلاصهم، وسماحة أنفسهم بأنفسهم، وتفاوتهم في ما كانوا عليه قبل الاستشهاد من الأعمال الصالحة:

---

[1] رواه الترمذي في التفسير: ٢٣٠/٥. والحاكم في معرفة الصحابة:٣/٢٥٣، وإسناده حسن.

- من الشهداء من تكون روحه في جوف طيرٍ أخضر، يرعى في الجنة حيث شاء، ثم يأوي إلى قناديل معلقــةٍ في ظل العرش!

- ومن الشهداء من يكون على بارق نهرٍ بباب الجنة، يأتيهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً!

- ومن الشهداء من يطير مع الملائكة في الجنة حيث يشاء!

- ومن الشهداء من يكون على أسرةٍ في الجنة! إنَّ الأرض لا تأكُل أجساد الشهداء:

روى مالك وابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، أنه بلغه أنَّ عمرو بن الجموح وعبــد الله بــن عمــرو الأنصاريين استشهدا يوم أحد، فوضعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرِ واحد.

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما جاء السيل فأخذ جزءاً من قبرهما، فحفرعنــهما ليغيّــرا مــن مكانهما، فوجدا لم يتغيرا، كانما ماتا بالأمس.

وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه، فدُفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه، ثم أرسلت، فرجعت كما كانت!

وكان بين يوم أُحد وبين يوم حُفِرَ عنهما ستٌ وأربعون سنة! [١]

وروى ابن المبارك عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما أراد معاويةُ رضي الله عنه أن يُجري الكظامة في أحد، قال: من كان له قتيلٌ فليأت قتيله، فأخرجهم رِطاباً يتثنوْن! وأصابتِ المسحاةُ رِجْل رَجُل منــهم فــانفطرت دَماً"[٢]**.**

والكِظامَةُ: بئرُ ماءٍ في أحد.

[١] موطأ مالك: كتاب الجهاد: ٢/ ٤٧٠. وطبقات ابن سعد: ٣/٥٦٢-٥٦٣

[٢] الجهاد لابن المبارك: ص: ٨٤. ومصنف عبد الرزاق: ٢٧٧/٥.

والمسحاة هي المجرفةُ من حديد.

وروى عبد الرزاق في المصنف عن قيس بن أبي حازم قال: روى بعض أهل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، أنه رآه في المنام، فقال له طلحة: إنكم دفنتموني في مكانٍ قد آذاني فيه الماءُ، فحولوني عنه!

فأخْرجوه كأنه سُلْفَة [هي جلد رقيق] لم يتغيّر منه شيء، إلا شعراتٌ من لحيته " [1].

وروى الحاكم في المستدرك عن ابنةِ ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، أنه خرج مع المجاهدين إلى اليمامة فقاتل فيها حتى لقي الله شهيداً.

وكان عليه درع نفيس، وبعدما استشُهد مَرَّ به رجلٌ فأخذ درعَه!

وبينما رجلٌ من المسلمين نائم إذ أتاه ثابتٌ في منامه، فقال له: إني موصيك بوصية، فإياك أن تقولَ: هذه حُلُم فتضيعُها.

إني لما قُتلتُ بالأمس، مَر بي رجلٌ من المسلمين، فأخذ درعي، ومنزلهُ في أقصى الناس، وعند خيمته فرس يستنُّ في طوله [يرعى ضمن حبله]، وقد كفأ على الدرع بُرْمَةَ [هي القدر] وفوق البرمةِ رَحْل [الذي يوضَعُ على الجمل] فائتِ الأميرَ خالدَ بن الوليد، فَمُرهُ أنْ يبعثَ إلى درعي فيأخذَه، فإذا قدمْتَ المدينةَ على خليفةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له: إنَّ عليّ مِن الدينِ كذا وكذا، وفلانٌ من رقيقي عتيق! وإياك أن تقول: هذا حُلُمٌ فتضيِّعَه !!

وفي الصباح أتى الرجلُ خالدَ بن الوليد رضي الله عنه فاخبرَه بذلك، فبعث خالدٌ إلى الدرع، فأتى به. ثم أُخبرَ أبو بكر رضي الله عنه بوصيتِه، فأجازها وأنفذها.

ولا نعلمُ أحداً أُجيزَتْ وصيتُه بعد موته إلاّ ثابتُ بن قيس، رضي الله عنه [2].

وبما أنّ الشهيد حيُّ حكماً، لذلك لا يصلّى عليه كالحي حساً.

---

[1] مصنف عبد الرزاق: كتاب الجهاد: ٢٧٧/٥.
[2] المستدرك للحاكم. كتاب الصحابة:٣/٢٣٥. ومجمع الزوائد للهيثمي:٩/٣٢١-٣٢٢.

وقد اختلف العلماء في غسل الشهداء:

فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري: إلى أن الشهداء لا يغسّلون من دمائهم.

٢١١ - روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بدفن شهداء أحد بدمائهم، ولم يُصلّ عليهم ولم يغسّلوا" [١].

والعلة في عدم تغسيلهم هي أنّ دماءهم تأتي يوم القيامة، لونها لون الدم، وريحها ريح المسك.

وقال الحسن وابن المسيب: الشهداء يغسّلون.

والراجح هو القول الأوّل الذي عليه معظم العلماء، فالشهداء لا يغسّلون، وإنما يكفّنون في دمائهم.

واختلف العلماء أيضاً في الصلاة على الشهداء:

فذهب مالكٌ والشافعي وأحمد إلى أنه لا يصلى على الشهداء. استدلالاً بحديث جابر السابق، حيث لم يصلِّ الرسول صلى الله عليه وسلم على شهداء أحد.

وذهب فقهاء الكوفة والبصرة والشام إلى أنه يصلى عليهم.

والراجح هو القول الأول.

فالشهداء إذن لا يغسّلون، وإنما يكفنون في دمائهم، ولا يصلى عليهم.

---

[١] رواه البخاري في المغازي: ٥/٣٩.

وهذا الحكم في من قُتلَ في المعركة. أمّا من جرح في الميدان، ثم حمل إلى مكان آخر، وعولج، وأكل وشـــرب، ثم مات بعد ذلك بسبب ذلك الجرح، فإنه يغسّل ويصلّى عليه. كما فعل الصحابة بعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طعن، حيث غسّلوه وصلّوا عليه، مع أنه مات بتلك الطعنة.

فـــصل

في فضائل الشهداء

للشهداء فضائل عديدةٌ عند الله، أخبرنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الأولى: لا يدخل أحدٌ الجنة ويحبُّ أن يخرج منها؟ ولو أعطي ما في الدنيا جميعاً، إلاّ الشهيد. فإنه يتمنى أن يـــرده الله إلى الدنيا، ليقتل في سبيل الله، لما يرى من فضل الشهادة وكرامة الشهـــيد.

٢١٢ - روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" مـــا مِن أحد يدخلُ الجنة، يحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا، وأن له ما على الأرض مِن شيء، إلاّ الشهيد، فإنه يتمنّى أن يرجـــعَ الى الدنيا، فيقتلَ عشرَ مرات، لِما يرى من الكرامةِ" [١].

وفي رواية أخرى عند الإمام مسلم: أنه قال في آخر الحديث:" لما يرى مِنْ فضل الشهادة")[٢].

٢١٣ - وروى النسائي وأبو عوانة عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول صلى الله عليه وسلم قال:" يؤتى بالرجل مِن أهلِ الجنة. فيقول اللهُ له: يا ابنَ آدم: كيفَ وجدتَ منزلَك؟ فيقول: أي ربِّ: خيرُ منزل.

فيقول: سَل وتَمَن.

[١] رواه البخاري في الجهاد: ٣/ ٢٠٨. ومسلم في الإمارة: ٣/ ١٤٩٨.
[٢] رواه مسلم في الإمارة: ٣/ ١٤٩٨.

فيقول: وما أسأَلك وأتمنى. أسأَلك أنْ تردَّني إلى الدنيا، فأُقتلَ في سبيلك عشرَ مرات.. لما يرى من فضلِ الشهادة"[١].

٢١٤ - وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "... والذي نفسُ محمدٍ بيده لوددتُ أني أغزو في سبيلِ الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزوا فأُقْتل ..."[٢] .

٢١٥ - وروى النسائي وأحمد عن محمد بن أبي عميرة المزني رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" ما مِن نفسٍ مسلمةٍ يقبضُها ربهُّا تحبُّ أنْ ترجعَ إليكم، وأنَّ لها الدنيا وما فيها، غيرَ الشهيد".

وقال صلى الله عليه وسلم: " لأَنْ أُقتلَ في سبيل الله أحبُّ إليَّ مِن أنْ يكونَ لي أهلُ الوَبَرِ والمَدَر " [٣].

وأهلُ الوبر هم سكان الخيام من الأعراب.

وأهل المدر هم سكان البيوت في القرى والمدن.

الثانية: الشهادة في سبيل الله تكفر ما على العبد من الذنوب التي بينه وبين الله.

٢١٦ - روى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فيهم، فذكر: أنّ الجهادَ في سبيل الله والإيمانَ بالله أفضلُ الأعمال.

فقامَ رجلٌ فقال: يا رسولَ الله: أرأيتَ إنْ قُتلتُ في سبيلِ الله، أتكَفرُ عني خطاياي؟

فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: نعم إن قُتلتَ في سبيلِ الله، وأنتَ صابرٌ محتسب مقبلٌ غيرُ مدبر !

ثم قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: كيف قلت؟

---

[١] رواه النسائي في الجهاد: ٦/ ٣٦. وابو عوانة في المسند: ٥/ ٣٣، والحديث صحيح.
[٢] رواه البخاري في الجهاد :٤/١١. ومسلم في الإمارة: ١٤٩٥/٣.
[٣] رواه النسائي في الجهاد: ٦/ ٣٣. وأحمد: ٤/ ٢١٦،وسنده حسن.

قال: أرأيتَ إن قُتلتُ في سبيل الله، أتكفرُ عني خطاياي؟

فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: نعم. وأنتَ صابرٌ محتسب مقبل غيرُ مدبر. إلاّ الدَّيْن، فإنّ جبريلَ قـال لي ذلك" [١].

والمراد بالدين هنا: كل ما كان من حقوق الآدميين، كالغصب وأخذ المال بالباطل، والقتل والجـرح، والغيبـة والنميمة والسخرية، وغير ذلك.

٢١٧ - وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُغفَرُ للشهيد كل شيءَ إلا الديَّن وفي رواية أخرى قال:" القتلُ في سبيل الله يكفرُ كل شيء إلا الدّيْن" [٢].

وقال القرطبيُّ في التفسير: الدّيْن الذي يحبس صاحبه عن الجنة - والله أعلم - هو: الدّين الذي لم يوص بأن يدفع مع أنه ترك له وفاءَ وسداداً من تركته، أو الدّين الذي قدر على أدائه، ولم يؤدة مماطلة، أو الدّين الذي اسـتدانه في سفهٍ وسرف، ولم يوفِّه لأصحابه.

أما من استدان في حق واجب كفقر وعسر، ولم يستطع أداءه لضيق ذات يده، ومات وهو عاجز عن أدائه، فإنه إن مات شهيداً فإنّ الله لا يحبسه عن الجنة.

والأصل أن يؤدي السلطان عن المدين العاجز عن الأداء دينه، إمّا مِن الصدقات أو من سهم الغارمين أو من مال الفيء. وفى دليلُ هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

٢١٨ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم الاّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة! إقرءوا إن شئتُم قوله تعالى: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِـالْمُؤْمِنِينَ مِـنْ أَنفُسِـهِمْ) [الأحزاب: ٦]. فأيُما مؤمنُ مات وتركَ مالاً فليرثه عصَبَتُه، ومَنْ تركَ دَيْناً أو ضَياعاً، فليأتِني فأنا مولاه " [٣].

وإن لم يؤدِّ السلطان عنه دَيْنَه، فإن الله يرضي خصمه الدائن عنه، بحيث يتنازل عن حقه.

---

[١] رواه مسلم في الإمارة: ٣ / ١٥٠١.
[٢] رواه مسلم في الإمارة: ٣/١٥٠٣.
[٣] رواه البخاري في التفسير: ٦/٢٢. ومسلم في الفرائض: ٣/١٢٣٧.

٢١٩ - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" مَنْ أخذ أموالَ الناس يريدُ أداءَها أدّى اللهُ عنه، ومَن أخذها يريدُ إتلافَها أتلفه الله" [1].

ومما يدلكُ على أنّ الشهيد المدين في ديْنٍ واجب لا يحبسُ عن الجنة الحديث في استشهاد عبد الله بن حرام - والد جابر رضي الله عنهما - يوم أحد.

فقد استشهد وعليه دَين، ورأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم ابنَه جابراً وهو مهمومٌ للدَّين الذي على أبيه، فأخبَره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله كلم أباه كفاحاً مُواجهة.

ولو كان محبوساً على باب الجنة لما حصلت له هذه المنزلة العظيمة.

الثالثة: الملائكة تظلل الشهيد بأجنحتها:

٢٢٠ - روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : جيء بأبي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم قد مثلَ به، فوضع بين يديه، فذهبتُ أكشف عن وجه، فنهاني قوم!

فسمع صوت نائحةٍ فقيل: ابنةُ عمرو، أو أختُ عمرو.

فقال صلى الله عليه وسلم: لِمَ تَبكين؟ - أو: لا تبكي - ما زالت الملائكةُ تُظله بأجنحتها" [2].

الرابعة: الشهادة الخالصة في سبيل الله توجب دخول الجنة قطعاً:

قال تعالى: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ) [التوبة: ١١١] .

وقال تعالى:(وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) [محمد: ٤ -٦].

---

[1] أخرجه البخاري في الاستقراض: ٣/ ٨٢.
[2] رواه البخاري في الجهاد: ٣/٢٥. ومسلم في فضائل الصحابة: ٤/ ١٩١٧.

٢٢١ - روى البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيتُ الليلةَ رجلين اَتياني، فصعدا بي الشجرة، فأَدخلاني داراً هِي أحسنُ وأفضل، لم أرَ قط أحسنَ منها.. وقالا لي: أمّا هذه الدارُ فدارُ الشهداء" [١].

٢٢٢ - وروى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يَضحكُ اللهُ لرجلين، يَقتلُ أحدُهما الآخر، كِلاهما يدخل الجنة! قالوا: كيفَ يا رسولَ الله؟

قال: يُقتلُ هذا فيلجُ الجنة! ثم يتوبُ الله على القاتل، ويَهديه إلى الإسلام، ثم يجاهدُ في سبيل الله، فيُستشهد" [٢].

٢٢٣ - وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنّ أُمُّ الربيع بنت البراء - وهي امُّ حارثة بن سراقة - أتت النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله: ألا تحدثني عن حارثة - وكان قد قُتل يوم بدر. أصابه سهمٌ غَرب - فإن كانَ في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدتُ عليه بالبكاء.

فقال: يا أمّ حارثة: انها جِنان في الجنة! وإنّ ابنكِ أصابَ الفردوسَ الأعلى.. "

وفي لفظِ آخر قال: "أهَبلْتِ؟ أجنةٌ واحدةٌ هي؟ إنها جنان كثرة، وإنه في الفردوس الأعلى" [٣].

الخامسة: عندما يقتلُ الشهداء في سبيل الله فإن الله يجعل أرواحهم في أجواف طيرٍ خضرٍ في الجنة.

٢٢٤ - روى مسلمٌ عن مسروقٍ قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) [آل عمران :١٦٩]

فقال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:" أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خضر، لها قناديلُ معلّقةٌ بالعرش، تسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل! فاطلعَ إليهم ربّهم اطلاعةً، فقال: هل تشتهونَ شيئاً؟

---

[١] رواه البخاري في الجهاد: ٣/٢٠٢.
[٢] رواه البخاري في الجهاد:٣/٢١٥. ومسلم في الإمارة: ٣/ ١٥٠٣.
[٣] رواه مسلم في الإمارة: ٣/ ١٥٠٢.

قالوا: أيَّ شيء نشتهي، ونحنُ نسرحُ مِن الجنة حيثُ شئنا؟

ففعلَ بهم ذلك ثلاثَ مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يَسْأَلوا، قالوا: يا ربِّ نريدُ أنْ تَـرُدَّ أرواحَنـا في أجسادِنا حتى نُقتلَ في سبيلِك مرةً أُخرى. فلما رأى أنْ ليس لهم حاجة تُرِكوا" [1].

٢٢٥ - وروى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لما أُصـيبَ إخوانكم جعلَ اللهُ أرواحَهم في جوفِ طيرٍ خضر، تَرِدُ أنهارَ الجنة، تأكل من ثمارِها، وتأوي إلى قناديلَ من ذهـب، معلقةٍ في ظلِّ العرش.

فلما وَجدوا طيبَ مأكلِهم ومَشربهم ومقيلهم، قالوا: مَن يبلِّغُ إخوانَنا عنّا أنا أحياءٌ في الجنة نُرْزَق، لئلاّ يَزْهَدوا في الجهاد، ولا يَنكُلوا عن الحرب!

فقال الله: أنا أبلِّغهم عنكم، وأنزلَ قولَه سبحانه:(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَـاء عِنـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[2] [آل عمران: ١٦٩].

٢٢٦ - روى الترمذي عن كعب بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: " أرواحُ الشهداء في أجوافِ طيرٍ خضرٍ تَعْلُق من ثمرِ الجنة" [3].

ومعنى "تَعلُقُ" : ترعى. أي أنها ترعى من أعالي أشجار الجنة.

لقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يجعل أرواح الشهداء في أجواف طيرٍ خضر.

ولعلّ الحكمة في جعل أرواح الشهداء في أجساد الطيور الخضر، أنهم جاهدوا في سبيل الله، وجادوا بأجسـادهم الكثيفة لله تعالى، وبذلوها في حبِّ الله، وعرَضوها للآلام والمشقات الشديدة وسمحوا بها للفناء، امتثالاً لأمـر الله، وطلباً لمرضاته!

---

[1] رواه مسلم في الإمارة: ٣/ ١٥٠٢.
[2] رواه أبو داود في الجهاد: ٣/٣٢ ، والحديث صحيح.
[3] رواه الترمذي فضائل الجهاد:٤/١٧٦، والحديث صحيح.

فلما فعلوا ذلك عوّضهم الله عنها أجساداً لطيفة في دار النعيم الباقي، يأكلون ويشربون، ويســرحون في الجنــة حيث يشاءون..

ولعلّ الحكمة في اختيار الطيور ذوات اللون الأخضر والقناديل المعلقة في ظلّ العرش هي: إنَّ ألطفَ الألوان هو اللونُ الأخضر. والطف الجمادات الشفافة هو الزجاج.

ولذلك جعل الله أرواح الشهداء في ألطف الأجساد، وهو الطير، واختار ألطف الألوان وهو الأخضر، ويــأوي ذلك الطير الأخضر إلى ألطف الجمادات وهي القناديل المنوَّرة والمفْرِحَة في ظل العرش، لتكملَ لها لــذةُ النعــيم في جوارِ الربّ الكريم!

وليس هذا الفضل خاصاً بالشهداء، بل هو عامّ يشمل المؤمنين الصالحين أيضاً. ٢٢٧ - روى الإمام أحمــد بــن حنبل عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، عن الإمام مالك بن أنس، عن الإمام الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" نَسَمَةُ المؤمنِ طائرٌ يَعلَقُ من شجرِ الجنة حتى يرجعَه اللهُ إلى جسدهِ، يومَ يبعَثهُ"[١].

وهذا حديثٌ عظيمٌ صحيح عزيز الوجود، لأنه اجتمع في سنده ثلاثة من الأئمة الأربعة.

والفرق بين روح الشهيد وروح المؤمن غير الشهيد أنّ روح الشهيد في جوف طير أخضر، فكأنها تركب ذلــك الطير. أما روح المؤمن فإنها على شكل طيرِ في الجنة، فكأنها تطيرُ بنفسها!

السادسة: الشهداء لا يفتنون في قبورهم ولا يصعقون عند نشورهم: وقد ثبت أنّ المرابط في سبيل الله لا يفتن في قبره، فالشهيد أولى من المرابط بذلك، لأنه أفضل منه.

ولا يفتن الشهيد في قبره، لأنه كفى ببارقةِ السيوف على رأسه فتنة.

إن الفتنة في القبر إنما هي لاختبار ما عند الإنسان من حقيقة الإيمان والتصديق.

[١] مسند أحمد: ٦ / ٤٥٥ ، والحديث صحيح.

ولا شكَّ أن من وقف للقتال ورأى السيوف تلمع وتقطع، والأسنة تبرقُ وتخرق، والسـهام ترشـق وتمـرق، والرؤوس تنَدُرُ، والدماءَ تثعب، والأعضاء تتطاير، والناس بين قتيلٍ وجريح وطريح، إن من رأى ذلك فثبت ولم يول الدبر ولم ينهزم، وإنما جادَ بنفسه لله تعالى، إيماناً به، وتصديقاً بوعده ووعيده، إنما يكفيه هذا امتحاناً لإيمانه، واختباراً له، وهذه هي الفتنة التي ما بعدها فتنة.. إذ لو كان عنده شكّ أو ارتيابٌ في ما عند الله لولّى الدبر، وذهل عما هو واجبٌ عليه من الثبات.

يكفي للشهيد هذا الامتحان من سؤالِ الفَتّان.

والشهيد لا يصعق عندما يُبعثُ من قبره يوم القيامة:

٢٢٨ - روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سألَ جبريلَ عن هذه الآية: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ) [الزمر: ٦٨] مَن هم الذين لم يشأ الله أن يَصعَقَهم؟ قال جبريل: هم شهداءُ الله " [١].

السابعة: الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته، ويأمن من الفزع الأكبر ويغفر له باول قطرةٍ من دمه.

٢٢٩ - وروى أبو داود والبيهقي عن نِمران بن عتبة الذماري قال: دخلنا على أمِّ الدرداء، ونحن أيتام، فقالت: ابشروا، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" يَشفعُ الشهيدُ في سبعينَ مِن أهلِ بيته" [٢].

٢٣٠ - روى أحمد والطبراني عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال:" إنّ للشهيد عند ربه سبعُ خصال: أن يُغفرَ له في أولِ دفعةٍ من دمه، ويَرى مقعده من الجنة، ويُحلّى حليةَ الإيمان، ويُجارَ من عذاب القبر، ويأمَنَ من الفزعِ الأكبر، ويوضَعَ على رأسه تاجُ الوقار، الياقوتة منه خيرٌ منَ الدنيا ومـا فيهـا، ويُزَوّجَ ثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفعَ في سبعينَ إنساناً مِن أقار به" [٣].

---

[١] رواه الحاكم في المستدرك: ٢/٢٥٣، والحديث حسن.
[٢] رواه أبو داود في الجهاد:٣/٣٤. والبيهقي في السنن: ٩ /١٦٤،والحديث صحيح.
[٣] مسند أحمد: ٤ /١٢١. ومجمع الزوائد للهيثمي: ٢٩٣/٥، وإسناده صحيح.

٢٣١ - وروى البيهقي عن سهل بن حنيف رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنّ أولَ ما يُراقُ من دم الشهيد تُغفَرُ له ذنوبهُ" [١].

وقال مجاهد: قام يزيد بن شجرة الرهاويُّ في أصحابه خطيباً فقال: إنها قد أصبحت عليكم من بين أخضر وأصفر، وفي البيوت ما فيها. فإذا لقيتم العدوَ فقدماً قدماً. لقد فتحت أبواب السماء، وأبواب الجنة، وأبواب النار، وزينت الحورُ العين، واطلعن عليه.

فإذا أقبل الرجل المجاهد، قلن: اللهم انصره. واذا أدبر احتجبن منه، وقلن: اللهم اغفر له. فأنهكوا وجوه القوم، فدى لكم أبي وأمي، ولا تخزوا الحور العين، فإنَ أول قطرة تنضح من دمه يكفرُ الله عنه كل شيء عمله، وتترل إليه زوجتان من الحور العين، تمسحان التراب عن وجهه، وتقولان له: مرحباً قد آنى لك، فيقول: مرحباً قد آنى لكما"[٢].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: إذا قُتل العبد فِى سبيل الله فأول قطرة تقع على الأرض منْ دمه يغفر الله ذنوبه كلها [٣].

الثامنة: من استشهد في سبيل الله أفضل ممن انتصر وعاد سالماً:

٢٣٢ - روى أحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

قال: قالَ رجل: يا رسول الله: أيُّ الجهادِ أفضل؟ قال: أن يُعقَرَ جَوادُك، ويُراقَ دمُك " [٤].

٢٣٣ - وروى أبو داود والنسائي والدارمي وأحمد عن عبد الله بن حبش الخثعمي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أيُّ الاعمال أفضل؟

قال: إيمان لا شكَّ فيه، وجهاد لا غلولَ فيه وحجةٌ مبرورة!

---

[١] السنن الكبرى للبيهقي: ٩ /١٦٣. ومجمع الزوائد للهيثمي: ٣/٩٠، والحديث حسن.
[٢] المصنف لابن أبي شيبة: ٥/ ٢٩٢-٢٩٣.
[٣] مجمع الزوائد للهيثمي: ٥/ ٢٩٨.
[٤] مسند أحمد:٣/ ٣٠٠. وصنف ابن أبي شيبة: ٥/ ٢٩٠. ومجمع الزوائد: ٥/٢٩١، والحديث حسن.

قيل: فأيُّ الصدقةِ أفضل؟

قال: جهدُ المقلّ!

قيل: فأيُ الهجرةِ أفضل؟

قال: مَن هَجَرَ ما حَرّم الله!

قيل: فأي الجهادِ أفضل؟

قال: مَن جاهَدَ المشركين بمالِه ونفسه!

قيلَ: فأيُّ القتلِ أشرف؟

قال: مَن أهريق دَمُه، وعُقِرَ جَوادُه [١].

٢٢٤ - وروى أحمد والطبراني عن عمرو بن عبسة السُلمي رضي الله عنه، قال: قال رجل: يا رسـول الله: مـا الإسلام؟

قال: أن يُسلمَ قلبك، وأن يَسلمَ المسلمونَ مِن لسانِك ويدك؟

قال الرجل: فأي الإسلام أفضل؟

قال: الإيمان !

---

[١] رواه أبو داود في الصلاة: ٢/٦٤١. النسائي في الزكاة: ٥/ ٨٥ . والدارمي في الصلاة: ١/١٣٣. وأحمد: ٣/٤١٤، والحديث حسن.

قال الرجل: وما الايمان؟

قال: أن تؤمنَ باللهِ وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت.

قال الرجل: فأي الإيمان أفضل؟

قال: الهجرة.

قال الرجل: فأيُّ الهجرة أفضل؟

قال: الجهاد.

قال: وما الجهاد؟

قال: أن تُقاتلَ الكفارَ إذا لقيتَهم.

قال الرجل: فأيُّ الجهاد أفضل؟

قال: مَن عُقِرَ جوادُه، وأُهريق دمُه [1].

وفي هذه الأحاديث أوضح دليلِ على بطلان قول من قال: إن المجاهد الغالب المنتصر أفضل من المجاهد الشهيد المقتول.

وقد روى ابن المبارك عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: مرّ عمرو بن العاص فطاف بالبيت فرأى حلقةَ من قريش جلوساً.

---

[1] مسند أحمد: ٤/ ١١٤. ومجمع الزوائد للهيثمي: ١/ ٥٩، ورجاله ثقات.

فلما رأوه قالوا: أهشامُ بن العاص كان أفضل في أنفسكم أم أخوه عمرو؟ فلما فرغ من طوافه جاء، فقام عليهم، فقال: إني علمت أنكم قد قلتم شيئاً حين رأيتموني، فما قلتم؟

قالوا: ذكرناك وهشاماً. فقلنا: أيهما أفضل؟

قال: سأخبركم عن ذلك. إنّا شهدنا اليرموك، فبات وبتُّ يسأل الله الشهادة، وأسأله إياها. فلما أصبحنا، رُزِقها وحُرِمْتُها. وفي ذلك يتبين لكم فضله عليّ" [1].

وكلام عمرو بن العاص رضي الله عنه يدلُّ على فضل الشهيد، على من رجع سالماً.

التاسعة: الشهيد لا يجد من ألم القتل إلا كما يجد من ألم القرصة:

٢٣٥ - روى الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يجدُ الشهيدُ مِن مَس القتل إلاّ كما يجدُ أحدكم مِن مَسّ القرصة" [2].

العاشرة: يدخل الملائكة على الشهداء من كل باب يسلّمون عليهم:

٢٣٦ - روى أحمد والحاكم وابن حبان عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" أولُ ثلة تدخلُ الجنة الفقراءُ المهاجرون، الذين تُتقى بهم المكاره، إذا أُمِروا سَمعوا واطاعوا، وإنْ كانت للرجلِ منهم حاجة إلى السلطان لم تُقضَ له، حتى يموتَ وهي في صدره. وإن الله عز وجل ليدعو يومَ القيامة الجنة، فتأتي بزخرفِها وزينتها.

فيقول: أينَ عبادي الذين قاتَلوا في سبيلي وقُتلوا وأوذوا وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة.

فيدخلونَها بغير حساب.

---

[1] الجهاد لابن المبارك: ٩٥.

[2] رواه الترمذي في فضائل الجهاد: ٤/١٩٠. والنسائي في الجهاد: ٦ /٣٦. ومو ارد الظمآن ص: ٣٨٨ ، وإسناده حسن.

وتأتي الملائكة فيسجدون، فيقولون: ربّنا نحنُ نسبحُ بحمدك الليلَ والنهار ونقدسُ لك. مَن هؤلاء الذين آثَـرتَهم علينا؟

فيقولُ الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين قاتَلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي.

فتدخلُ عليهم الملائكةُ من كل باب: سلام عليكم بما صبرتُم، فنعم عُقبى الدار" [١]

الحادية عشرة: يَرضى الله عن الشهيد رضى لا سخطَ بعدَه:

٢٣٧ - روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء أناسٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ابعث معنا رجالاَ يعلموننا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم القُرّاء - فيهم خالي حَرامُ بنُ مَلحان - يقرءون القرآن ويتدارسونه بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضـعونه في المسـجد ويحتطبون، فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصُّفّة وللفقراء.

فبعثهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فعَرَضوا لهم فَقَتَلوهم قبلَ أن يبلغوا المكان.

فقالوا: اللهمَ أبلغ عنا نبينا، أنّا قد لقيناك، ورضينا عنك، ورضيت عنا!

وأتى رجلٌ حراماً خالَ أنس فطعنه برمحٍ حتى أنفذها. فقال حرام: فُزْتُ وربّ الكعبة؟

فقالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن إخوانَكم قد قُتلوا. وإنهم قالوا: اللهمَّ بلغ عنا نبيّناأنّا قد لقيناكَ وَرَضينا عنك ورضيتَ عنا! " [٢].

الثانية عشرة: لا يشترط في الشهادة سبق أعمال الأبرار، بل هي بسابق الإرادة والاختيار.

---

[١] أحمد في المسند: ٢/ ١٦٨. والمستدرك للحاكم: ٢/ ٧٢. وموارد الظمآن ص :٦٣٦،ورجاله ثقات والحديث حسن.
[٢] البخاري في المغازي: ٥/ ٤٢. ومسلم في الإمارة: ٣/ ١٥١١.

٢٣٨ - روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل مقنعٌ بالحديد، فقال: يا رسول الله : أقاتلُ أو أسلم؟

قال: أسلم ثم قاتل.

فأسلَمَ ثم قاتَلَ، فَقُتل.

فقالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: عَمِل قليلاَ ً وأجِرَ كثيراً" [١].

٢٣٩ - وروى سعيد بن منصور عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقاتل، فقال له: أهو خير لي أن أسلم؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم.

فقال الرجل: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله. ثم قال: أهو خير لي أنْ أُقاتِلَ حتى أُقتل؟

قال: نعم.

قال الرجل:وإن لم أُصَلِّ لله صلاة؟

قال: نعم.

فحمل الرجل على المشركين فقاتلهم، ثم اعتونوا عليه، فقتلوه!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عملَ قليلاً، وأُجِرَ كثيراً" [٢].

---

[1] البخاري في الجهاد: ٣/ ٢٠٦. ومسلم في الإمارة: ٣/ ١٥٠٩.
[2] سنن سعيد بن منصور في الجهاد: ٢/٣/٢٣١،والحديث حسن.

٢٤٠ - وروى الطبرانيُّ في الكبير والأوسط عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم كان في غزوة. فبارز رجل من المشركين رجلاً من المسلمين، فقتله المشرك، ثم برز له رجلٌ مـــن المســـلمين فقتلـــه المشرك.

ثم جاء المشرك فوقف على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: على ماذا تُقاتلون؟ فقالَ صلى الله عليه وســـلم: دينُنا أن نقاتلَ الناسَ، حتى يَشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن نفيَ لله بحقه.

فقال الرجل: والله إن هذا لحسن، آمنتُ بهذا، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله!

ثم تحوّل إلى المسلمين، وحمل معهم على المشركين، فقاتل حتى قُتل!

فوُضِعَ بجانبِ صاحبيه اللّذين قَتلهما قبل ذلك!!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء أشدُّ أهلِ الجنة تحاباً "[1].

أي: هم أشدُّ أهل الجنة محبةً فيما بينهم، لأن المقتول يرى أن القاتل كان هو السبب فيما هو فيـــه مـــن النعـــيم العظيم..

الثالثة عشرة: لا يفضل الأنبياء الشهيد إلاّ بدرجة النبوة. ٢٤١ - وروى أحمد والبيهقي وابن حبان عن عتبة بن عبد السُلمي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" القتلى ثلاثة: رجلٌ مؤمنٌ جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقيَ العدوَّ قاتلَهم حتى يُقتل، فذلك الشهيدُ الممتَحَنُ، في جنةِ الله، تحتَ عرشِه، لا

يفضله النبيون إلاّ بفضلِ درجةِ النبوة.

---

[1] مجمع الزوائد للهيثمنى: ٣/٢٩٦،والحديث صحيح.

ورجل فَرِقَ على نفسهِ من الذنوب والخطايا. جاهدَ بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقيَ العدوَ قاتـلَ حـتى يقتل، فتلكَ مَصمَصَة، مَحَتْ ذنوبهَ وخطاياه، إنَّ السيفَ مَحاءٌ للخطايا، وأدخلَ مِن أي أبوابِ الجنة شاء، فان لهـا ثمانيةَ أبواب، وبعضُها أفضلُ من بعض، ولجهنم سبعة أبواب.

ورجل منافق. جاهدَ بنفسه وماله، حتى إذا لقيَ العدو وقاتل في سبيلِ الله حتى يقّتل، فذلك في النار، لأنَّ السيف لا يَمحو النفاق "[1].

ومعنى قوله عن الصادق:" الشهيدُ المُمتَحَن لما: الشهيدُ المشروحُ صدره، الذي امتَحَن الله قلبه للتقوى، وشـرح صدره للإسلام. وينطبق عليه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْـتَحَنَ اللَّـهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) [الحجرات: ٣].

ومعنى قوله:" تلك مَصمَصَةٌ": مُمَحّصَة، أي: استشهادُه في سبيل الله مَحَّصَ له ذنوبَه، وكفّرها له، يقال: مَصمَصَ الإناءَ: إذا جعلَ فيه الماءَ وحركه.

أي: القتلُ في سبيل الله يطهّرُ صاحبَه من الذنوب، كما يُمَصمَصُ الإناءُ ويُحرَك بالماءِ.

ومعنى "فِرقَ على نفسه ": خافَ على نفسه من ذنوبه.

فــصل

في الحور العين التي أعدها الله للمؤمنين

يزوجُ الله المؤمنين من الحور العين في الجنة. ويخصُّ الشهداء من ذلك بالفضل العظيم.

---

[1] رواه أحمد في المسند: ٤/ ١٨٥. والبيهقي في السنن: ٩/ ١٦٤. وابن حبان. انظر موارد الظمآن. ص: ٣٨٨. ومجمع الزوائد: ٥/٢٩١، والحديث حسن.

وأخبار الأوطان عند الغريب لا تُمَل، ووصف الأحباب عند المشتاق لا يسأم، وذكر معاهد الوصال تثير لواعج الغرام، وتذكرُ دار التلاق يضرم نار الاشتياق. ووصف الجنة ونعيمها وقصورها وحورها كثيرٌ في القرآن. يزوّج الله الشهداء بالحور العين. دهان الحور العين قد يتراءَيْن للجريح إذا أُغمي عليه، قبل خروج روحه، وذلك بشارةٌ له بأن الله قد تقبّلَه شهيداً. وقد يتراءَين للمجاهد في المنام، ليكون هذا أدعى له لبذلِ مزيد من الجهد في الجهاد والقتال.

والحور العين اسمٌ أطلق في القرآن على النساء اللواتي خلقهنّ الله في الجنة، وجعلهنّ للمؤمنين الصالحين، وبالذات للمجاهدين والشهداء.

ومفردُ الحور العين: الحوراء العيناء.

والحوراء هي: شديدة بياض العين، وشديدة سواد الجزء الأسود من العين، فالحور شدة بياض العين في شدة سوادها.

والعيناء هي: عظيمة العينين واسعتُهما جميلتُهما. قال تعالى: (وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) [الواقعة: ٢٢ -٢٣].

وقال تعالى: (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) [الرحمن : ٥٨].

وقال تعالى: (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) [الصافات: ٤٨ - ٤٩].

وما جاء عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من صفات نساء الجنة وحورها كثير، يذهل المفكرين، ويذهب بلب المتبصرين:

٢٤٢ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ أول زمرةٍ يدخلون الجنةَ على صور القمر ليلةَ البدر، والتي تليها على أضوءِ كوكبٍ دريٍّ في السماء. لكل إمرىءٍ منهم زوجتان، يُرى مُخُّ سوقهما مِن وراءِ اللحم، وما في الجنةِ أعزب" [1].

---

[1] رواه البخاري في بدء الخلق: ٤/٨٨. ومسلم في الجنة ونعيمها: ٤/٢١٧٨.

٢٤٣ - وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لو أطّلعت امرأةٌ من نساء أهلِ الجنةِ إلى الأرض لَملأت ما بينهما ريحاً، ولأضاءَتْ ما بينهما، لنصيفها على رأسِها خيرٌ من الدنيا وما فيها" [١].

النصيف: الخمارُ الذي على رأسِ الحورية.

وقد صحّ أن الله يُعطي لآخرِ مَن يخرج من النار ويدخل الجنة عشرة أضعاف الدنيا، منذ أن خلقها الله حتى قيام الساعة!

فإذا كان هذا لأدناهم، فكيف بما أعده الله لأعلاهم، وإذا كان هذا بالذي لأسفلهم درجةً في الجنة، فكيف بالذي أعدَه الله للمجاهد، الذي يرفعه الله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، بل كيف بما أعدَهُ الله ذو الجلال والإكرام للشهيد، من الفضل الجزيل والإنعام الجميل؟!

والله إنه لا يحصر ماله عند الله فهمٌ، ولا يُكَيِّفُه وهمٌ ، ولا يحيطُ به عقل. وتذكَر قول الله سبحانه فيمن هم دون رتبة الشهداء من المسلمين الصالحين: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة: ١٧].

٢٤٤ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه قال :" أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأتْ ولا أذُنٌ سمعَت، ولا خطرَ على قلبِ بشر" [٢]

٢٤٥ - وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: سأل موسى ربة عز وجلْ ما أدنى أهلِ الجنة منزلة؟

فقال اللهُ له: هو رجل يجيءُ بعدَما يَدخلُ أهلُ الجنة الجنة. فيقالُ له: أدخُل الجنة!

فيقول: ربي وكيف، وقد نزلَ الناسُ منازلَهم وأخذوا أخذاتِهم؟

---

[١] رواه البخاري في الجهاد: ٤/ ٢٥٣.

[٢] رواه البخاري في بدء الخلق: ٤/ ٨٦. ومسلم في الجنة ونعيمها: ٤/ ٢١٧٤.

فيقال له: أترضى أنْ يكونَ لك مِثل مَلِكٍ من ملوكِ الدنيا؟

فيقول: رضيتُ يارب. فيقول: لك ذلك، ومثلُه، ومثلُه، ومثلُه!

فقال في الخامسة: رضيتُ يارب.

فيقول: هذا لك، وعشرة أمثاله!! ولكَ ما اشتهَت نفسُك، ولَذّت عينك!

فيقول: رضيتُ يارب.

قال موسى: ربِّ فأَعلاهم منزلة؟

قال: أولئكَ الذين أردَت، غرستُ كرامَتَهم بيدي، وختَمتُ عليها، فلم تَرَ عَين، ولم تسمَع أذُن، ولم يخطُرْعلى قلبِ بشر" [1].

---

[1] رواه مسلم في الإيمان: ١/ ١٧٦.

الباب الثلاثون

في تحريم الغُلول وتغليظ الإثم فيه

الغُلولُ هو ما يأخذه أمير الجيش أو أحد المجاهدين من الغنائم، قبل تقسيمه بين العسكر، بحيث يأخذه لنفسه، ولا يأتي به إلى الذي يتولّى قسمته بين مستحقيه.

وهو حرامٌ سواء كان قليلاً أو كثيراً، فهو سرقه وخيانة.

وسمي غلولاً: لأنّ الأيدي مغلولةٌ عنه، ممنوعةٌ من تناوله وأخذه.

قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) [آل عمران: ١٦١].

والغُلول هو أحد عظائم الذنوب، وكبائر المعاصي، وموبقات الآثام.

والأحاديث كثيرةٌ في النهي عن الغلول. وفي الوعيد الشديد على من أخذه.

٢٤٦ - روى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدَّثني عمر رضي الله عنه قال: لما كان يومُ خيبر، أقبل نفرٌ من أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: فلانٌ شهيد، وفلانٌ شهيد.

حتى مَرّوا على رجل، فقالوا: فلانٌ شهيد!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلاّ. إني رأيته في النار في بردةٍ أو عباءة غلَّها.

ثم قال: يا ابنَ الخطاب، اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون "[١].

وقد دلّ الحديث على أنه من غلَّ شيئاً مما يلبس، فإنه يلبسه في النار، وهو يلتهب عليه ناراً.

٢٤٧ - وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر. ففتح الله علينا، ولم نغنم غنماً ولا فضة، وإنما غنما المتاعَ والطعامَ والثياب.

ثم انطلقنا إلى الوادي - وادي القرى - ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد له وهبه له رجلٌ من جذام يدعى رفاعة بن زيد.

فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلُّ رحله، فرمي بسهم، وكان فيه حتفه.

فقلنا: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله!

قال صلى الله عليه وسلم: كلاّ. والذي نفسُ محمد بيده، إنَّ الشملَةَ لتلتهبُ عليه ناراً، أخذها من الغنائم، لم تصِبها المقاسم!

ففزِعَ الناس، فجاء رجل بشراكٍ أو شراكين. فقال: أصبتُ هذا يوم خيبر!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" شِراكٌ أو شراكان من نار" [٢].

الشّملَة هي: كساءٌ يشتملُ به الإنسان.

والحتفُ هو: الموت.

---

[١] رواه مسلم في الإيمان: ١/ ١٠٧.
[٢] رواه البخاري في الأيمان والنذور: ٧/ ٢٣٥. ومسلم في الإيمان: ١/ ١٠٨.

الشِّراك: هو ما يُربطُ به الحذاء أو النعل.

وهذا العبد الأسود اسمه "مِدْعَم".

٢٤٨ - وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كان على ثقل [متاع] رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يقال له" كَرْكَرْة". فمات!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو في النار.

فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءَة قد غلّها!" [1].

أمّا من غل شيئاً مما لا يُلْبَسُ فإنه يأتي به يوم القيامة يحمله على عنقه.

ودليل هذا قوله تعالى: (وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [آل عمران: ١٦١].

٢٤٩ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره، حتى قال: لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاء، فيقول: يا رسول الله أغثني. فأَقول: لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغتك!

لا أَلْفَيَن أحَدَكم يجيءُ يوم القيامة على رقبتِه فرس له حمحَمة، فيقول: يا رسولَ الله أغِثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتك!

لا أَلْفَيَنَّ أحَدكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته شاةٌ! لها ثُغاء، فيقول: يا رسول الله أغثْني، فأقول: لا أملكَ لك شيئاً قد أبلغتك!

---

[1] رواه البخاري في الجهاد: ٤/ ٤٧.

لا أُلْفَيَنَّ أحَدكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسولَ الله أغثني. فأقول: لا أملكُ لــك شيئاً، قد أبلَغْتك!

لا ألفَيَن أحَدكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته رقاعٌ ئخفق، فيقول: يا رسولَ الله أغِثْني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتك!

لا ألفَيَن أحَدكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته صامِت، فيقول: يا رسولَ الله أغِثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك" [١].

ومعنى: "لا ألفَيَنَّ ": لا أَجِدَنَّ.

والرُغاء: صوتُ الإبل. والحَمحَمَةُ: صوتُ الفرس. والثغاء: صوتُ الغنم.

والرقاع: الأوراقُ التي تكتَبُ بها الحقوق. وتَخْفق: تتحرك.

والحكمةُ في خفقِ الرقاع وصوتِ الحيوان: أن كل منَ غَلَّ شيئاً في سبيل الله، فإنه يأتي يوم القيامة، وهــو علــى عنقه، يصوِّتُ بلغته، ويصيح على رأسه، ليروّعَه ويُخيفَه بصياحِه، وليَفتضحَ بذلك على رؤوس الأشهاد، ويحصل له الخزيُ والهوان، بإظهار خيانته بين كافة العباد، مع ما هو فيه من مشقةِ حملِه في كرب المحشر، وشدةِ الزحام، وإلجامِ العرق، وعظمِ الأهوال، و غير ذلك.

وخرجَ ابن عساكر أن رجلاً خرج للجهاد فماتت دابته في الطريق، فأتى مالك بن عبد الله الخثعمي، وبين يديــه برذون من المغنم.

فقال: احملني أيها الأمير على هذا البرذون.

فقال الأمير: أنا لا أستطيع حمله!!

---

[١] رواه البخاري في الجهاد: ٤/ ٣٦. ومسلم في الإمارة: ٣/ ١٤٦١.

قال الرجل: أنا لم أطلب منك أن تحمله، وإنما سألتك أن تحملني عليه!

قال الأمير: هذا البرذون من الغنائم، وإن أعطيتك إيّاه أكون قد غللت، والله يقول: (وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)! وأنا لا أطيق حمله يوم القيامة!

٢٥٠ - وروى أبو داود والنسائي وأحمد ومالك وابن ماجة عن زيد بن خالد رضي الله عنه، أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم توفي يوم خيبر.

فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: صَلّوا على صاحبكم!

فتغيرَتْ وجوهٌ لذلك، فقال: إن صاحبكم غَلَّ في سبيل الله!! ففتشنا متاعه، فوجدنا خرزاً من خرز يهود، لا يساوي درهمين!! "[1].

ومن رأى غالاً أو علم به فستر عليه، كان عليه مثلُ إثمه.

والغُلُول ذنب عظيم عند الله تعالى، سواء كان قليلاً أو كثيراً، جليلاً أو حقيراً.

٢٥١ - روى أحمد والبزار عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذُ الوبرة من فيء الله، فيقول: مالي مِن مثلِ هذا إلاّ مثلَ ما لأَحدكم، إلاّ

الخمس، وهو مردودٌ فيكم، فأدّوا الخيطَ والمِخيَطَ فما فوقَهما، وإياكم والغلول، فإنه عارٌ ونارٌ وشنارٌ على صاحبه يوم القيامة"[2].

المِخْيَطِ: هو ما يُخاطُ به كالإبرة.

والشنّار: هو الأمرُ القبيح الشنيع.

---

[1] أبو داود: ٣/ ١٥٥. والنسائي: ٤/ ٦٤. وأحمد: ٤/ ١١٤. وابن ماجة: ٢/ ٩٥٠، وإسناده صحيح.
[2] مسند أحمد: ٤/ ١٢٨. ومجمع الزوائد: ٦/ ٣٣٧، والحديث صحيح لغيره.

٢٥٢ - وروى أبو داود والنسائي وأحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، رضي الله عنه، في قصة وفد هوازن، أنه دنا النبي صلى الله عليه وسلم من بعير، فأخذَ وبرةٌ من سنامه، ثم قال: "يا أيها الناس: إنه ليسَ لي مــن هذا الفيء شيء، ولا هنا، إلاّ الخمسُ، والخمسُ مردود عليكم، فأَدّوا الخِياط والمِخيَط!

فقامَ رجل في يده كُبّة من شَعر، فقال: أَخذتُ هذا لأصلحَ بها برذعةً لي!

فقال صلى الله عليه وسلم: أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لك!

فقال الرجل: أمّا إذا بلغت، فلا أَرَبَ لي فيها. ونبَذها !" [١].

٢٥٣ - وروى البيهقي عن عبد الله بن شقيق عن رجل من بلقين قال: أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله ما تقول في الغنيمة؟

قال صلى الله عليه وسلم: لله خُمُسُها، وأربعةُ أخماسِها للجيش.

قلت: فما أحدٌ أَولى به من أحد؟

قال صلى الله عليه وسلم: لا. ولا السهمُ تستخرجُه من جنبك، لستَ أحقَ بهِ من أخيك المسلم" [٢].

فـــصل

في عقوبة الغالّ

اعلم أن من غل شيئاً في سبيل الله فقد استوجب عقوبتين: عقوبة في الآخرة، وعقوبة في الدنيا.

---

[١] أبو داود: ٣/١٤٢.والنسائي: ٧/١٣١. وأحمدك ٢/١٨٤، والحديث صحيح لغيره.
[٢] السنن الكبرى للبيهقي: ٦/٦٢٤. وصححه ابن كثير، وقواه الذهبي.

أمّا عقوبة الآخرة فقد ذكرها الأحاديث السابقة، فمن غل شيئاً يدخله الله النار، ويلبس مثل ما غل من النـــار، ويأتي يوم القيامة وهو يحمل ما غله على عنقه، وهو يصيح عليه ويفضحه على رؤوس الأشهاد. وإذا سأل هذا الغالّ الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة الشفاعة والإغاثة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغتك! وهذا الغالّ لا يكون شهيداً في الآخرة.

هذا بعض ما يعاقب به الغالّ في الآخرة، وناهيك ببعضه عذاباً ونكالاً، وحسبك به في الآخرة خزيـــاً ووبـــالاً، ولسخط الله أعظم. قال الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّـــهِ) [آل عمران: ١٦٢]. (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّه): الذي لم يَغُل. و (كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّه): الذي غل.

وأما عقوبة الغالِّ في الدنيا، فإنَّ للغلول تأثيراً خطيراً على الجيش، لأنه ما ظهر الغلول في قـــومِ إلا ألقـــى الله في قلوبهم الرعب، واخرّ عنهم النصر.

روى مالك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب، ولا فشـــا الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع الله عنهم الرزق، ولا حكم قوم قـــط بغير الحق إلاّ فشا فيهم الدم، ولا نقض قومٌ العهد إلاّ سلَّط الله عليهم العدو!

٢٥٤ - وروى الطبراني في الأوسط عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسلم:" إنْ لم تغُلَّ أمتي لم يقَمْ لهم عدوٌّ أبداً" [1].

ولذلك قال أبو ذر الغفاري لحبيب بن مسلمة الفهري: هل يثبتُ لكم العدوُّ حلبَ شاة؟

قال حبيب بن مسلمة: نعم. قال أبو ذر: غَلَلْتم وربّ الكعبة.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لمن ورد عليه: هل ثبت لكم العدو؟

فإن قالوا: نعم،قال قد غللتم!!

---

[1] مجمع الزوائد: ٣٣٨/٥.ورجاله ثقات.

وقد اختلف العلماء في عقوبة الغالّ في الدنيا، فذهب جمهورهم إلى أن الغالّ يضرب ويحرق متاعُه.

روى أبو داود عن صالح بن محمد قال: غزونا مع الوليد بن هشام، ومعنا سالم بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز، فغل رجلٌ متاعاً، فأمر الوليد بمتاعِه فأُحرق، وطيفَ به، ولم يُعطِه سهمه.

وجمهور العلماء على أنه يحرق متاعُ الغال، ولا تحرق دابته ولا ثيابه ولا سلاحه ولا مصحفه، ولا الشيء الـذي غله، ويُحرق ما سوى ذلك. وإذا استهلك ما غله فإنه يُغرّمُه، ويوضع ثمنه في بيت المال!

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يحرق رحل الغالّ ولا يعاقب في حاله.

قال القرطبي في التفسير: إذا غلَّ الرجلْ من الغنيمة شيئاً ووجد ذلك، أُخِذَ منه، وأدب وعوقب بـالتعزير عنـد مالك والشافعي وأبي حنيفة [1] .

وقال النووي في شرح مسلم: واختلفوا في صفةِ عقوبةِ الغال: فقال جمهور العلماء وأئمة الأمصار: يُعَـزرُ علـى حسب ما يراه الإمام، ولا يُحرَقُ متاعه. وهذا قول مالك والشافعي وأبي حنيفة! وقال الإمام أبو بكر ابن المنـذر: أجمع عامة أهل العلم - إلاّ من شذ منهم - على أن للقوم المجاهدين عند دخولهم دار الحرب أن يأكلوا طعام العدو، وأن يعلفوا دوابّهم.

فالطعام هو المرخصُ فيه من بين سائر الأشياء، والعلف في معناه، وليس لأحد! أن ينال من أموال العـدو شـيئاً سوى الطعام للأكل والعلف للدواب.

ولا بأس للمجاهد أن يأكل من ثمار أشجار العدو، على أن لا يحمل منه شيئاً، ولا يفضل منه شيء.

ولا يأخذ من الدواء إلا إذا احتاج إليه.

أما الأموال والمتاع فلا يجوز أن يأخذ المجاهد منها شيئاً، فإن أخذ شيئاً غُرم ودفع ثمنه.

---

[1] تفسير القرطبي: ٤ /٦٠ ٢.

وللمجاهدين التزود من الأطعمة التي يأخذونها من أرض الأعداء أثناء سيرهم للجهاد، إن لم يكن معهـــم زادٌ ولا طعام، أما إذا كان معهم زاد وطعام فلا يجوز أن يأخذوا من طعام وزرع وثمر العدو!

الباب الحادي والثلاثون

في فكاك أسرى المسلمين وفدائهم والقتال لإنقاذهم

قال تعالى: (وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً) [النساء:٧٥].

قال القرطبي في التفسير: أوجب الله الجهاد لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس.

وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين، إما بالقتال، وإما بالأموال، وذلك أوجب لكونها دون النفوس، إذ هي أصون منها.

وقال الإمام مالك: يجب على الناس أن يفدوا الأسارى، بجميع أموالهم، وهذا لا خلاف فيه.

ويجب على المسلمين أن يواسوا الأسرى، فإن المواساة هي دون المفاداة [١].

٢٥٥ - روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم : "فكوا العاني [الأسير]، وأطعموا الجائع وعودوا المريض" [٢].

ومذهب الشافعي أن فداء الأسير مستحب.

ومذهب مالك وأحمد بن حنبل: فداء الأسير واجب. وإذا دفع مبلغ للعدو مقابل فداء الأسير بإذنه، فإن الأسير بعد فدائه يجب أن يدفع ذلك المبلغ إلى من قدمه، عند كثيرٍ من العلماء.

---

[١] تفسير القرطبي: ٥/٢٧٩.
[٢] أخرجه البخاري في الجهاد: ٤/٣٠.

وإذا لم يكن الدفع بإذنه، فقد أوجب بعض العلماء عليه دفع المبلغ، وبعضهم لم يوجبه عليه!

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا خرج الأسير المسلم يُفادي نفسه فقد وجب فداؤه على المسلمين، ولا يجوز للمسلمين ردُه إلى المشركين، لأن الله تعالى يقول: (وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ) [البقرة: ٨٥].

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: (وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ) [الأنفال: ٧٢].

إن طلب المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض العدو عون المسلمين بنفيرٍ أو مالٍ لاستنقاذهم، فعلى المسلمين أن يعينوهم وينقذوهم، ولا يجوز أن يخذلوهم، إلا أن يستنصروا المسلمين على قومٍ بينهم وبينهم ميثاق، فلا يجوز أن ينصروهم في تلك الحالة.

إلا أن يكون أولئك المسلمون مستضعفين، فإن الولايةَ معهم قائمة، ونصرهم واجب على المسلمين.

وقال ابن العربي: إلاّ أن يكونوا مستضعفين فإنَ الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة، حتى لا تبقى منا عين تطرف، حتى نخرج إلى استنقاذهم، إن كان عددُنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم، حتى لا يبقى لأحدنا درهم.

كذا قال مالك وجميع العلماء. فإنا لله وإنا إليه راجعون، على ما حل بالخلق، في تركهم إخوانهم في أسر العدو، وبأيديهم خزائن الأموال، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد [١].

وخرَّجَ ابن عساكر أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى المسلمين الأسرى في القسطنطينية: " أما بعد: فإنكم تُعدون أنفسكم الأسارى، ومعاذ الله، بل أنتم الحبساءُ في سبيل الله.

واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلاّ خصَّصت أهلكم بأكثر من ذلك وأطيبه.

---

[١] تفسير القرطبي: ٨/٥٧.

وإني قد بعثت إليكم فلان بن فلان بخمسة دنانير. ولولا أني خشيت أن يحبسها عنكم طاغية الروم لزدتكم عليها. وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، وذكركم وأنثاكم، وحُرَّكم ومملوككم، بما يسأل عنه.

فأبشروا ثم أبشروا. والسلام.

ذكر الإمام النوويُّ أنه إذا أسر الأعداء مسلماً أو مسلمين، فالراجح أن المسألة كدخول العدو ديار الإسلام، لأن حرمة المسلم أعظم من حرمة الدار، فيجب العمل على استخلاص الأسير أو الأسيرين.

ومن الأمثلة على ذلك ما حصل من المنصور بن أبي عامر أحد أعظم الملوك المسلمين في الأندلس، فقد خرج للجهاد ضدَّ الفرنج، وحاربهم في عدة معارك، وانتصر عليهم، واضطر الفرنج إلى طلب الصلح منه.

وقد طلب المنصور منهم أن يزوجوه ابنة ملكهم، وأن يعطوه أموالاً طائلة، وتحفاً كثيرة، ففعلوا.

وكانت البنت في غاية الجمال، ولما شيّعها قومها طلبوا منها أن تحسن الوساطة لقومها عنده.

وكانت فتاةً حكيمة، فقالت لهم: إنَّ الجاهَ لا يطلبُ بأفخاذِ النساء، وإنما يُطلب برماحِ الرجال!!

ولما أنهى المنصور حربه، وعاد إلى عاصمته، تلقَته امرأةٌ مسلمة، وقالت له: أنت والناس يفرحون، وأنا باكيةٌ حزينة!

قال: ولماذا؟

قالت: ولدي أسير عند الفرنج!

فلم يذهب المنصور إلى قصره، وإنما سيَّرَ الجيوش فوراً، وأمرهم أن يقاتلوا الفرنج حتى يخلصوا ابنها من الأسر. وجاءوا به حُراً طليقاً.

فرحم الله تلك الأمم الخالية بتلك الهمم العالية، وأثابهم على إعزاز دين الإسلام رضوانه التام في دار السلام.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً: أنَ علجاً من علوج الروم لطم امرأةَ مسلمة أسيرةَ من عمورية.

فصاحت المرأة المسلمة: وامعتصماه. واستنجدت بالخليفة العباسي المعتصم!

ولما سمع المعتصم باستغاثتها جهّزَ جيشاً كبيراً، وتوجه نحو عمورية، وحارب الروم، وأنقذ المرأة المسلمة من الأسر!

وهكذا فليكن إعزاز الدين، ومثل هذا ينبغي أن تكون أئمة المسلمين.. اللهمَّ لا تحرمه أجر هذه الهمة، وأثبه على ما كان عليه بكشف تلك الغمة!

وكان في مدينة أنطاكية عددٌ من أسرى المسلمين، وكانت تحت سيطرة الروم، فغزاها المسلمون، وافتتحوها، وأخضعوها لسلطان المسلمين، وأنقذوا من فيها من المسلمين! وأخذ الصليبيون خمسمائة أسير من المسلمين، وسجنوهم في مدينة الرَّها، فغزا السلطان عماد الدين زنكي مدينة الرَّها، ونصره الله على الصليبيين فيها، وخلَّص المسلمين الأسرى من الأسر.

وذكر العماد الكاتب أنّ السلطان صلاح الدين الأيوبي لما انتصر على الصليبيين فى معركة حطين خلَّصَ أكثر من عشرين ألف أسيرٍ من المسلمين، وأسر من الصليبيين مائْة ألف أسير.

وهكذا كان حال سلاطين المسلمين المجاهدين، يُخَلَّصون المسلمين الأسرى من أسر أعدائهم، ويحاربون الأعداء من أجل ذلك، وكانوا يأخذون الأسرى من الأعداء. وكان بعض هؤلاء الأسرى الكافرين يدخلون في الإسلام، وعندما كانوا يسلمون كانوا ينالون حريتهم، ويطلق سراحهم.

وينطبق عليهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢٥٦ - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " عَجِبَ اللهُ من قومٍ يدخلونَ الجنةَ في السلاسل" [1].

---

[1] رواه البخاري في الجهاد: ٤/٢٠.

أي أن هؤلاء الكفار جيء بهم أسرى، مقيدين في السلاسل، فلما اَمنوا صاروا من أهلِ الجنة، وفكت عنهم القيود والسلاسل.

الباب الثاني والثلاثون

في ذكر مغازي الرسول وسراياه وأشهر معارك المسلمين من بعده

قال الإمام أبو عبد الله الحليمي رحمه الله في كتاب شُعَب الإيمان: كان للنبيً صلى الله عليه وسلم قبل فرض الجهاد منازل مع المشركين: فأوّل ذلك أن الله أوحى إليه الوحي في قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [العلق: ١].

ثم أمره الله بالتبليغ، في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ) [المدثر: ١ -٢].

ولما بلَّغهم وكذبوه أمره الله بالصبر عليهم، في قوله تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً) [المزمل: ١٠] .

وأمره الله بالإعراض عنهم، في قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) [الأنعام: ٦٨].

ولما فتح الله المدينة للإسلام، وأسلم الأنصار، أمر الله المؤمنين بالهجرة من مكة إلى المدينة. فقال تعالى: (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) [النساء: ١٠٠].

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أذن للمسلمين بالقتال، فقال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [الحج: ٣٩].

وأمر الله المسلمين بقتال من قاتلوهم، فقال تعالى: (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) [البقرة: ١٩٠].

ثم أمر الله المسلمين بقتال الذين يلوهم من الكفار، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً) [التوبة:١٢٣] .

وأوجب الله على المؤمنين القتال، فقال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢١٦].

وأخبرهم أن القتال بيعة معه سبحانه، فقال تعالى: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: ١١١] .

فلما فرض الله الجهاد صار قبوله والتزامه وتنفيذه من الإيمان، وكان الشرط فيه أن من قتل الكفار في سبيل الله فله الجنة ومن قتله الكفار في سبيل الله فله الجنة، ومن وفى بالشرط كان باذلا نفسه لله، وهذه هي صورة المبايعة.

وبذلك كان المجاهدون بائعين، وكان الله مشترياً. وكل من باع بثمن إلى أجل، فإنه مطالب أن يسلم ذلك، وهكذا المجاهد فإنه مطلوب منه أن يسلم المطلوب، وهو بذل نفسه لله، لينال الجزاء، وهو الجنة!

ومن المعلوم أن نفاسة السلعة تعرف بثلاثة أشياء:

- بعظم المشتري: لأن عظيم القدر لا يشتري الأشياء الخسيسة.

- وبجلالة الدلال: لأنّ الدلاّل الكبير لا يُسمسر على الأشياء الحقيرة.

- وبعظم الثمن: لأن الشيء الحقير لا يدفع فيه الثمن الكبير.

فانظر إلى نفوس الشهداء والمجاهدين كيف اشتراها الله سبحانه بنفسه، وجعل السمسار عليها أشرف خلقه أجمعين محمداً صلى الله عليه وسلم، وجعل الثمن الجنة عنده سبحانه.

وناهيك بهذا شرفاً لم ينله غير المؤمنين المجاهدين، وفضلاً لم يصل إليه غيرهم.

وقال بعض العارفين: النفوس ثلاثة:

- نفوسٌ لم يقع عليها البيع لحريتها، وهي نفوس الأنبياء عليهم السلام.

- ونفوس لم يقع عليها البيع لخساستها، وهي نفوس الكفار. - ونفوس وقع عليها البيع لكرامتها، وهي نفوس المؤمنين.

نكتة:

المؤمنون عبيد الله، والعبدُ لا يملك شيئاً يبيعه لسيده، وإذا أعتقه سيده صح بيعه.

وشراء الله سبحانه من عباده المؤمنين إشارةٌ إلى أنه سبحانه لم يشتر إلاّ ممن سبق قضاؤه بعتقهم، فكل من وفقه لتسليم نفسه إليه، بشهادة أو جهاد أو حراسة، بشرط الإخلاص في ذلك، علمنا أنَّ البيع قد صدر منه أزلاَ، وأن الله قد أعتقه بفضله من النار! لطيفة:

لما أخبر الله أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فكأنهم قالوا: يا ربنا: وما الثمن في هذا البيع؟

فقال تعالى: (بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّة). وأخبرهم أن ثمن البيع هو الجنة.

فكأنهم قالوا: يا ربنا وكيف نسلم هذه السلعة التي وقع عليها البيع؟

فقال تعالى: (يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُون). أي: إذا فعلتم ذلك فقد سلَمتم السلعة، ووفيتم بما لزمكم في هذه الصفقة، ووجبت لكم الجنة.

فكأنهم قالوا: يا ربنا مضت سُنتك بأن تشهد ملائكتك على ما تنعمُ به على عبيدك، فمن أشهدت في هذا البيع؟ وأين هي الوثيقة؟

فقال تعالى: (وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآن). أي: إذا أردتم يا عبادي وثيقةً واحدة، فهذه ثلاث وثائق، في التوراة والإنجيل والقرآن!

وإذا أردتم شاهداً أو شاهدين، فقد أشهدت على الصفقة ثلاث أمم، كل أمة عـــددها كـــبير، وهـــم: اليهـــود والنصارى والمسلمون!

فكأنهم قالوا: يا ربنا: أنت تمحو ما تشاء وتُثبت، ولا تُسألُ عما تَفْعل!

فقال تعالى: (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّه)؟. أي: لا أحد أوفى بعهده منّي.

ومن البيع ما يعقبه الندمُ إذا تبين لصاحبه النقصُ أو الخسارة، ومن البيع ما يعقبه الفرحُ والسرور، لمـــا يظهـــر لصاحبه فيه من الربح والفوز والغبطةِ وحسن الوفاء.

والصفقة مع الله من أربح الصفقات، ولذلك دعا الله المؤمنين إلى الاستبشار والفرح.

فقال:(فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم) [التوبة: ١١١].

ولهذا لما مرَّ الأعرابيُّ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ الآية: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُـــؤْمِنِينَ أَنفُسَـــهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ) قال: هذا بيع مربح والله لا نقيلُ ولا نستقيل. وخرج إلى الجهاد، وقاتل حتى استشهد!

فـــصل

في غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم

الغزوة هي التي غزا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وقاد المسلمين فيها في حرب الكفار.

وقد اختلف العلماء في عدد غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم:

٢٥٧ - روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غـــزا إحـــدى وعشرين غزوة [١].

وقال زيد بن أرقم رضي الله عنه: غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة.

وذكر ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم غزا سبعاً وعشرين غزوة.

وهذه هي أشهر غزواته:

الأولى: غزوة الأبواء. وهي غزوة ودّان. وكانت في صفر من السنة الأولى للهجرة.

وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلق حرباً [٢].

الثانية: غزوة بُواط. وكانت في شهر ربيع الأول من السنة الثانية [٣].

الثالثة: غزوة العشيرة. في جمادى الأولى من السنة الثانية [٤].

الرابعة: غزوة بدر الأولى: كانت بعد غزوة العشيرة بليال قلائل، وفي جمادى الأولى من السنة الثانية، حيث خرج يطلب كرز بن جابر لما أغار على سرح المدينة.

الخامسة: غزوة بدر الكبرى:

غزوة بدر الكبرى هي البطشة الكبرى التي أعز الله بها الإسلام، وأهلك بها رؤوس الكفر. وكانت صبيحة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية.

---

[١] رواه مسلم في الجهاد: ٣/١٤٤٨.
[٢] سيرة ابن هشام: ٢/ ١٧٠- ١٧١.
[٣] المرجع السابق: ٢/ ١٧٦.
[٤] المرجع السابق: ٢/ ١٧٦.

وكان عدد الصحابة المشتركين في الغزوة ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

٢٥٨ - روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: حدَّثني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ممن شهدوا بدراً أنهم كانوا عدد أصحاب طالوت، الذين أجازوا معه النهر، ثلاثمائة وبضعة عشررجلاً [1].

٢٥٩ - وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً" [2].

وسار الرسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه، فأتاه الخبر عن قريشٍ بخروجهم لمنع قافلتهم.

فاستشار صلى الله عليه وسلم الناس، وأخبرهم خبر خروج قريش، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال وأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله: امضِ لما أمرك الله، فنحنُ معك، والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، وكما نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم خيراً، ودعا له بخير.

ثم قال صلى الله عليه وسلم: "أشيروا عَلَي أيها الناس".

فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدُنا يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وسلم:" أجل ".

قال سعد: قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أنَ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن نلقى عدوَنا غداً، إنّا لصُبُر في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء،

---

[1] البخاري في المغازي: ٥ /٥.
[2] مسلم في الجهاد: ٣/١٣٨٣.

لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله!!

فسُر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ثم قال: "سيروا وأبشروا، فإن اللهَ قد وعدني إحدى الطائفتين، واللهِ لكأنّي أنظُر إلى مصارعِ القوم"[١].

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء أدنى ماءٍ من بدر، فترل به.

فقال له الحبّاب بن المنذر: يا رسول الله: أرأيت هذا المترل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخرَ عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال صلى الله عليه وسلم: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة".

قال الحباب: يا رسول الله: إن هذا ليس بمترل، فالهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءِ من القوم، فنترله، ثم نفوِّر ما وراءه من القلب والآبار، ثمَّ نبني عليه حوضاً، فنملأه ماء، فنشرب ولا يشربون!

فقال صلى الله عليه وسلم: "لقد أشرتَ بالرأي"!

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس، فساروا حتى أتى أدنى ماءٍ من القوم، فترلوا عليه، ثم أمر بالقلُب والآبار ففوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملىء ماء [٢].

قال ابن اسحاق: وخرج الأسود بن عبد الأسود المخزومي - وكان رجلاَ شرسا سيء الخُلُق - فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه!

فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه وقطعها، فوقع عل ظهره رجله تشخب دماً، فزحفَ إلى الحوض ليشرب منه، فقتله حمزة في الحوض، وهو أول قتيلٍ من المشركين في بدر.

---

[١] سيرة ابن هشام: ٢/ ١٨٨.
[٢] المرجع السابق: ٢/ ١٩٢.

ثم خرج شيبة بن ربيعة، وأخوه عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، ودعوا المسلمين إلى المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة فتيةٍ من الأنصار. فقالوا: من أنتم؟

قالوا: نحن من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة! ثم قالوا: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال صلى الله عليه وسلم: " قُم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي ".

فبارز عبيدة عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد. فأما حمزة فإنه لم يمهل شيبة أن قتله، وأما عليّ فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان، كلاهما أثبت صاحبه. فكرَّ حمزةُ وعلي بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه، وحملا صاحبهما عبيدة جريحا إلى صفِّ المسلمين [١].

واستعدَّ الفريقان للقتال. وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يسوي الصفّ، وفي يده قدحٌ يعدل به الصحابة، فمرّ على سواد بن غزيّة رضي الله عنه وهو بارز في الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: "استو يا سواد".

قال سواد: لقد أوجعتني يا رسول الله، فأقدني!

فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه، وقال: " استقد يا سواد! فقبلَ سواد بطن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: "ما حملك على هذا يا سواد"؟

قال سواد: يا رسول الله: حضرت المعركة، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك!

---

[١] المرجع السابق: ٢/١٩٤- ١٩٥.

وبعد ما عدَّلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف رجع إلى العريش، فدخله، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: " اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبدَ في الأرض ".

فقال أبو بكر: يا رسول الله: بعض مناشدتك ربّك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

فأَغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم انتبه مسروراً، وقال: "ابشر يا أبا بكر، أتاك نصرُ الله. هذا جبريلٌ آخذ بعنانِ فرسه يقودُه، على ثناياه الغبار" [1].

وأنزل الله الملائكة مدداً للمسلمين في بدر، وعلّمهم كيف يقتلون المشركين . قال تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) [الأنفال: ١٢].

وكان مجموع مدد الملائكة في بدر خمسة آلاف ملك، يقودهم جبريل عليه السلام.

واشتركوا في حرب المشركين.

ومعلومٌ أنه يكفي ملكٌ واحد من الملائكة ليهزم المشركين ويقضي عليهم، فلماذا بعث اللهُ خمسة آلاف ملك؟

إنَ الحكمة من ذلك هي بيان كرامةِ الرسول صلى الله عليه وسلم على ربه، وتسكين وتطمين قلوبِ المؤمنين.

وليس هذا خاصاً بالصحابة في بدر، بل إن الله يُمِدُّ المؤمنين في كل زمان ومكان، عندما يصدقون في جهاد الأعداء في سبيل الله!

قال الحسن البصري: الخمسة آلاف ملك الذين أمدَّ الله بهِمْ المؤمنين يوم بدر، هم مدد للمؤمنين إلى يوم القيامة!

---

[1] المرجع السابق: ٢/ ١٩٥-١٩٦

٢٦٠ - روى البخاريُ عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبيٌ صلى الله عليه وسلم، وقـــال له: ما تعدون أهل بدرٍ فيكم؟

قال صلى الله عليه وسلم: " من أفضل المسلمين ".

قال جبريل: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة ! [١]

٢٦١ - وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتدُ في أثر رجلِ من المشركين أمامه، إذ سمع ضربةَ بالسوط فوقه، وصوتُ الفارس يقول: أقدم حيزوم!

فنظر إلى المشرك أمامه، فخرَّ مستلقياً. فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أنفُه وشُق وجهُه.

فجاء الأنصاري، فحدّثَ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "صَدَقْتَ. ذلـــك مَـــدَد مـــن الســـماء الرابعة"[٢].

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنةً من الحصباء، فرمى بها في وجوه قريش، وقال: "شاهت الوجـــوه". وأمر أصحابه بالهجوم على قريش.

وشدَّ الصحابة وحملوا على قريش، وكتب الله لهم النصر، فقتلوا سبعين وأسروا سبعين من المشركين [٣].

قال معاذ بن عمرو: سمعت القوم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه فتوجهْتُ إليه، ولما تمكنت منه حملت عليـــه، فضربته ضربةً أطنت قدمه بنصف ساقه.. فضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فقطع يدي، وبقيت معلَقـــةً بجلـــدةٍ في جنبي، وأجهدني القتال، حيث

كنت أقاتل عامةَ النهار، وأنا أسحبُها خلفي، فلماَ آذتني وضعت قدمي عليها، ثم تمطَيت بها حتى طرحتُها [١].

---

[١] رواه البخاري في المغازي: ٥/ ١٣.
[٢] رواه مسلم في الجهاد: ٣/١٣٨٤
[٣] سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٦.

وهكذا كتب الله للمسلمين النصر في بدر. وامتن عليهم بقوله: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّــهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [آل عمران: ١٢٣].

السادسة: غزوة بني سُليم:

قال ابن إسحاق: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدرٍ إلى المدينة، أقام بها سبع ليال، ثم خرج بأصحابه ليغزو بني سليم، وبلغ ماء لهم، وأقام عليه ثلاث ليال، ولم يحصل قتال [٢].

السابعة: غزوة بني قينقاع:

كانت يوم السبتِ في النصفِ من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

وكان بنو قينقاعِ أول من غدر من اليهود، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحصَّنوا هم بحصونهم، ثم قذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتشفع فيهم زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، فأجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل أراضيهم وأموالهم للمسلمين [٣].

الثامنة: غزوة السّويق:

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة في الخامس من ذي الحجة، في السنة الثانية من الهجرة، قاصداً أبا سفيان وصحبه من المشركين، فلما علم أبو سفيان به هرب، وألقى ما كان معه من السّويق، ليتخفف من حمله، فسميت غزوة السويق [٤].

التاسعة: غزوة غطفان:

---

[١] المرجع السابق: ٢/٢٠١.
[٢] المرجع السابق: ٣/ ٣.
[٣] طبقات ابن سعد: ٢/ ٢٩- ٢٩.
[٤] سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٠٣.

وتسمى غزوة أنمار، وغزوة ذي أمر. وهي في أرض نجد وكانت في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة. وكـان مع الرسول صلى الله عليه وسلم أربعمائة وخمسين رجلاً. ورجع بدون قتال، لأنه لم يلق عدواً [١].

العاشرة: غزوة بني سُليم الثانية:

توجه إليها النبي صلى الله عليه وسلم في منطقة الفرع بالحجاز، وأقام بها شهرى ربيع الآخر وجمادى الأولى، ولم ينشب فيها قتال، لأنه لم يلق عدواً[٢].

الحادية عشرة: غزوةُ أحد: وكانت غزوة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة. وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف، وعدد المسلمين سبعمائة.

ولما التقى الجمعان في أحد كان يحمل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة، فطلب المبارزة، فبرز له علـي بـن أبي طالب رضي الله عنه فقتله، فحمل اللواء عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة رضي الله عنه فقتله. ثم حمل اللواء سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقتله. ثم حمل اللواء مسافع بن طلحة فرماه عاصم بـن ثابت فقتله. ثم حمل اللواء الحارث بن طلحة، فرماه عاصم بن ثابت فقتله.

ثم حمل اللواء كلاب بن طلحة فقتله الزبير بن العوام ثم حمل اللواء الجلاس بن طلحة، فقتله طلحة بن عبيـد الله رضي الله عنه. ثم حمل اللواء أرْطَأة بن عبد شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه [٣].

وهكذا قُتلَ سبعةٌ من آل أبي طلحة يوم أحد تباعاً. وبقي لواء المشركين صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية. ولما قتل أصحاب اللواء ولى المشركون الأدبار، وانهزموا لا يلوون على شيء، وتبعهم المسلمون، ووضعوا فيهم السلاح، وصار المسلمون يجمعون الغنائم.

واختلف الرماة المسلمون على الجبل، وترك معظمهم الجبل، ونزلوا يجمعون الغنائم، وكرَّ خالدُ بـن الـو ليـد وعكرمة بن أبي جهل على الرماة الذين بقوا على الجبل وقتلوهم، وأعملوا السلاح بالمسلمين!

[١] طبقات ابن سعد ٢/ ٣٤- ٣٥.
[٢] المرجع السابق: ٢ / ٣٥.
[٣] المرجع السابق: ٢/ ٤٠ - ٤١.

ونادى إبليس: إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل، واختلط المسلمون، وصاروا يقتتلون على غير شعار، وقَتلَ المشركون من قَتلوا من المسلمين، ودارت الدائرة على المسلمين.

وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الميدان، وثبت معه عدد من أصحابه، وأكرم الله عدداً من المسلمين بالشهادة، وأصيب عدد من المسلمين بالجراح.

وكان يومُ أحد يوم بلاء وتمحيص للمسلمين.

الثانية عشرة: غزوة حمراء الأسد:

وكانت يوم الأحد في السادس عشر من شوال من السنة الثالثة، بعد غزوة أحد مباشرة. وحمراءُ الأسد قريبة من المدينة.

وقد استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان معه في أحد، ولحق بأبي سفيان زعيم قريش، ليُريه أن بالمسلمين قوة، وأنَ ما أصابهم في أحد لم يُضعفهم. ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد، تابع سيره متوجهاً إلى مكة [١].

الثالثة عشرة: غزوة بني النضير:

كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة، بعد خمسة أشهر من أحد.

وخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم نقضوا العهد معه، وحاصرهم مدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشفع فيهم ابن أبي زعيم المنافقين، وخرجوا لا يحملون إلاّ ما حملت دوابهم من المتاع، إلاّ المال والسلاح، وذهبوا إلى خيبر وغيرها، وجعل الله أرضهم وديارهم فيئاً للمسلمين [٢].

---

[١] سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٤- ٤٥.
[٢] المرجع السابق: ٣/ ١٠٩.

ونزل في يهود بني النضير سورة الحشر.

الرابعة عشرة: غزوة ذات الرِّقاع:

كانت غزوة ذات الرقاع في جمادى الأولى من السنة الرابعة. وسميت ذات الرقاع لأنه تقطعت أحذية المسلمين، ودُميت أرجلهم، فكانوا يلفون عليها الرقاع والخِرَق.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توجّه في هذه الغزوة إلى ارض نجد، يريد حرب بني محارب وبني ثعلبة وبني غطفان.

ولقي الرسول صلى الله عليه وسلم بها جمعاً من غطفان، وخاف الناس بعضهم بعضاً، ولم ينشب فيها قتال. وصلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيها صلاة الخوف لأوَّل مرة[1].

الخامسة عشرة: غزوة بدر الصغرى:

كانت غزوة بدر الصغرى في شعبان من السنة الرابعة، وتوجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بدر لميعاد أبي سفيان، وكان معه ألفٌ وخمسمائة من أصحابه.

وخرج أبو سفيان بقريش لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم في بدر. ثم بدا له أن يعود إلى مكة، وأن لا يقاتل المسلمين. وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه إلى المدينة [2].

السادسة عشرة: غزوة دومة الجندل:

وكانت في ربيع الأولى من السنة الخامسة.

ودومة الجندل طرف من أطراف الشام، في البرية بين الشام والعراق ونجد، وهي مدينةٌ عليها حصنٌ منيع.

[1] المرجع السابق: ٣/ ١١٩.
[2] سيرة ابن هشام: ٣/ ١٢٣.

وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَ الكفار يجمعون الجموع بدومة الجندل، ليغزوا المسلمين في المدينة!

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في ألفِ من المسلمين، وكان يسير في الليل ويكمن في النهار. وعلم المشركون بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فخافوا وتفرقوا.

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بدومة الجندل، ولم يلق بها أحداً، وهجم على ماشيتهم ورعاهم، وأصاب من أصاب، وهرب من هرب. وأقام بها أياماً، وبعث السرايا للمنطقة، فلم يجدوا بها أحداً [١].

السابعة عشرة: غزوة الخندق: غزوة الخندق هي غزوة الأحزاب.

وكانت في شوال من السنة الخامسة. وقد خرج أبو سفيان في قريش، وخرج عيينة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف في بني مرة. وخرجت غطفان وأشجع، وتجمَّع من أحزاب المشركين خمسة آلاف.

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروجهم، واستشار المسلمين، فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق حول المدينة. فحفره المسلمون في بضع عشرة ليلة. وكان المسلمون ثلاثة آلاف.

ولما وصل المشركون المدينة فوجئوا بالخندق: فترلت قريش بمجمع الأسيال، ونزلت غطفان إلى جانب أحد، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين إلى الخندق، وكانت ظهورهم إلى جبل سلع، ووجوههم إلى أحزاب المشركين.

وأقاموا بضعاً وعشرين ليلة، وبارز عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه عمرو بن عبد وُد فقتله، وكان بين الفريقين رمي بالنبال.

وفي فترة الحصار أسلم نعيم بن مسعود الأشجعي، ولم يعلم أحد بإسلامه وعرض خدماته على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[١] طبقات ابن سعد: ٢/٦٢-٦٣ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنّا ما استطعت، فإن الحرب خُدعة!"

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى يهود بني قريظة، وكان نديماً لهم في الجاهلية ، و كانت قريظة قد نقضت عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحالفت مع أحزاب المشركين! وكلَم، نعيم بن مسعود زعماء بني قريظة، وبين لهم خطأهم في نقضهم ا العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبرهم أنَّ أحزاب المشركين سيعودون إلى بلادهم، وسينفرد بهما الرسول صلى الله عليه وسلم ويقتلهم، وأشار عليهم أن لا يقاتلوا مع أحزاب المشركين إلا بعد أن يأخذوا منهم رهائن من رجالهم، ليضمنوا عدم إنسحابهم. فأخذوا برأيه.

وخرج نعيم بن مسعود من عند يهود بني قريظة، وتوجه إلى أبي سفيان وزعماء الأحزاب، وأظهر لهم نصحه، وأخبرهم أن بني قريظة ندموا على نقضهم العهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهم قد اتفقوا معه على أن يأخذوا مجموعةً من زعماء الأحزاب ليقتلهم ويضرب رقابهم. وقال لهم: إن طلب بنو قريظة منكم رهائن فلا تعطوهم، لأنّهم سيسلمونهم للمسلمين ليقتلوهم.

وفي ليلة السبت أرسل أبو سفيان إلى يهود بني قريظة، يطلب منهم أن يهجموا من جهتهم على المسلمين صباح السبت، والأحزاب سيهجمون من جهتهم!

فطلب اليهود منهم رهائن، كما نصحهم نعيم بن مسعود، وأدرك قادة الأحزاب أنهم يريدون الرهائن ليقدموهم للرسول صلى الله عليه وسلم لضرب أعناقهم.

فقال كل فريق منهم: صدقكم نُعَيْمُ بن مسعود، وافترقت كلمة المشركين واليهود، وأوقع الله بينهم، واختلفوا وتشاتموا!

وبعث الله على معسكر الأحزاب ريحاً عاصفةً في ليالٍ باردةِ شديدة البرد، وجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم وتقلع خيامهم.

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم باختلاف كلمة الاحزاب بعث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ليأتيه بخبرهم، وأمره أن لا يحدث هناك شيئاً.

وسار حذيفة رضي الله عنه في تلك الليلة العاصفة الباردة المظلمة، وجلس وسط المشركين، وكان أبـــو ســـفيان مجتمعاً معهـــماً.

وأخبرهم أبو سفيان بقراره في الانسحاب، وقال لهم: يا معشر قريش: إنكم ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلـــك الكراع والخف، ولَقينا من هذه الريح ما ترون، ولا يستمسك لنا بناء، ولا تثبت لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا فإني مرتحل!

ووثب على جمله فركبه. وفعل القوم مثله، وانسحبوا عائدين.. وسمعت غطفان بما فعلت قـــريش، فانســـحبت مثلها[1].

وأراح الله المسلمين من شر أولئك الأحزاب. وأنزل قوله تعالى:(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْـــراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً) [الأحزاب: ٢٥].

الثامنة عشرة: غزوة بني قريظة:

وكانت فور انسحاب أحزاب المشركين عن المدينة. فالأحزاب انصرفوا في الليل، وفي الصباح عاد المسلمون إلى بيوتهم. وعند الظهر أتى جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وقال له: أوضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع السلاح بعد! وإن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة، وإني عامدٌ إليهم لأزلزل بهم!!

فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُصلِّين العصـــر إلاّ في بـــني قريظة !"

وتوجَّه المسلمون إلى بني قريظة وهم ثلاثة آلاف، لسبعٍ بقين من ذي القعدة في السنة الخامسة من الهجرة.

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصـــار، وقـــذف الله في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه.

---

[1] انظر سيرة ابن هشام: ٣:١٣٧- ١٤٠.

وحكم سعد بن معاذ بأن يُقتل رجالهم، وتسبى نساؤهم وأولادهم، لأنهم نقضوا العهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:" لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات ".

وأخذ المسلمون رجال يهود بني قريظة، وكانوا بين الثمانمائة والتسعمائة رجل.

وخندق الرسول صلى الله عليه وسلم خندقاً في سوق المدينة، وأمر بسوقهم وضرب رؤوسهم تِباعاً.

وكان فيهم كعب بن أسد زعيم بني قريظة، وفيهم حُيُيُّ بن أخطب زعيم اليهود كلَهم.

ولما جيء بحصيٍّ بن أخطب لضرب عنقه، كانت يداه مجموعتين إلى عنقه بحبل، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكن من يخذُله الله يُخذَل... ثم ضُربت عنقه [١].

وهكذا تمّ القضاء على يهــود بني قريظة. وورث المؤمنون أرضهم وديارهم وأموالهم.

التاسعة عشرة: غزوة بني لحيان:

كانت غزوة بني لحيان في ربيع الأول سنة ست من الهجرة.

وبنو لحيان هم الذين غدروا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، خُبَيب بن عدي ومن معــه رضــي الله عنهم، وقتلوهم على ماءِ الرجيع. فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ليأخذ بثأر أصحابه الذين قتلوهم.

ولما سمعوا بخروجه إليهم هربوا، ولم ينشب قتال[٢].

---

[١] المرجع السابق: ٣/ ١٤١-١٤٧.
[٢] المرجع السابق: ٣/١٧٤-١٧٥.

العشرون: غزوة ذي قرد:

ذو قرد: ماء بين المدينة وخيبر، على مسافة ليلتين من المدينة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاد للمدينة بعد غزوة بني لحيان، فلم يقم بها إلاّ أياماً قلائل، حتى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيلٍ من غطفان على لقاح رسوق الله صلى الله عليه وسلم.

وقد ذهب ابن إسحاق إلى أنها كانت في منتصف سنة ست من الهجرة [١].

بينما ذهب البخاري ومسلم وغيرهما إلى أنهـا كانت في أوائل سنة سبعٍ من الهجرة، بعد صلح الحديبية، وقبل غزوة خيبر.

وهذا ما أخبر به سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، بطل تلك الغزوة. وهذا ما رجّحَه الحافظ ابن كثير في تاريخه. وهذا هو الأرجح [٢].

٢٦٢ - روى مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه حديث غزوة ذي قرد، فقال: قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أربع عشرة مائة.. فذكر الحديث إلى أن قال:... ثم قدمنا المدينة، فبعث رسـول الله صلى الله عليه وسلم بظهره [الرواحل التي تحمل متاعه] مع غلامه رباح ، وأنا معه.. وخرجت معه بفرس طلحة، أندّيه مع الظّهر. [يرعى ثم يشرب من الماء].

فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري، قد أغار على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستاقه أجمع، وقتـل راعيه.

فقلت: يا رباح: خذ هذا الفرس، فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين قد أغاروا على سرحه!!

---

[١] سيرة ابن هشام: ٣/١٧٥.
[٢] البداية والنهاية لابن كثير ٤/١٥٠.

ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز قائلاً: أنا ابن الاكوع، اليومُ يوم الرَّضع. فلحقت رجلاً منهم فرميته بالسهم، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه. وقلت: خُذها وانا ابن الأكوع، اليوم يوم الرُّضع!

فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إليَّ فارسٌ منهم أتيت شجرة فجلست في أصلها ثم رميته...

ومروا في مضيق بين جبلين، فعلوت الجبل، وجعلت وأرميهم بالحجارة وصاروا يتخلَصون من إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُخَلفونها وراءهم، وما زلت أتبعهم وأرميهم بالحجارة، حتى استخلصت منهم إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلفْتُها كلها وراء ظهري!

وما زلت أتبعُهم أرميهم بالحجارة، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بُردَة، وثلاثين رمحاً، يتخلفون من حملهم! وكانوا لا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه علامةَ من الحجارة، ليعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وأتوا مضيقاَ بين جبلين، وأنا فوقهم على الجبال، وأتاهم ابن بدرالفزاري، وجلسوا يتغدَّون، وجلستُ على رأس جبلِ فوقهم. ونظر إليَّ الفزاريُّ فرآني، فقال لهم: ما هذا الذي أرى؟

قالوا: لقد لقينا منه الشِّدَة، والله ما فارقنا منذ الغلس، وما زال يرمينا، حتى انتزع منا كل شيء بأيدينا!

قال: فليقم إليه أربعةٌ منكم!

فصعد إليَّ أربعةٌ منهم في الجبل، ولما اقتربوا بحيث يسمعون كلامي قلت لهم: هل تعرفونني؟

قالوا: لا. من أنت.

قلت أنا سلمةُ بن الأكوع. والذي كَرَّمَ وجهَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم: إنني ما أطلب منكم رجلاً إلآ أدركته، ولا يطلبني أحدٌ منكم ويستطيع أن يدركني!

قال أحدهم: إني أظن ذلك! ورجعوا.

فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلَّلون الشجر. وكان أوَّلهم الأخرم الأسدي، وعلى أثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندي. وولوا مدبرين.

فأخذت بعنان فرس الأخرم الأسدي، وقلت: يا أخرم احذرهم لا يقتطعوك، وانتظر حتى يلحق بك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

فقال لي: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق، فلا تخلّ بيني وبين الشهادة!! فتركته!

فالتقى هو وعبد الرحمن الفزاري زعيم القوم، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، ولقي الأخرم وجه الله شهيداً. وأخذ الفزاريُّ فرسه.

ولحق أبو قتادة الأنصارفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الرحمن الفزاري، فطعنه وقتله! وهرب القوم، وتبعتهم أعدو على رجليّ، وابتعدنا عن رسول الله ، وما رأيت ورائي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غبارهم شيئاً! وقبيل غروب الشمس عدلوا إلى شعب، فيه ماء يقال له: ذو قرد. وأرادوا أن يشربوا

منه وهم عطاش. ولكني لحقت بهم. فنظروا إليَّ أعدو وراءهم، فخافوا وهربوا، وجليَتهم عنه، وما ذاقوا منه قطرة!!

وخرجوا يشتدون ويركضون حتى دخلوا ثنية، وعدوت خلفهم، ولحقت رجلاً منهم، وضربته بسهم فأصاب كتفه، وقلت: خذها وأنا ابن الاكوع، اليوم يوم الرُّضع!

قال: واثكل أُمي. أكوع بُكرة! الذي ما زال يلاحقنا منذ الصباح؟

قلتْ نعم يا عدوَ نفسك أكوعُ بُكرة!

وخلَّفوا وراءهم فرسين، واستمروا هاربين.

فأخذت الفرسين، وجئت بهما أسوقهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فتوضأتُ، وشربت شيئاً من اللّبن.

وأتّيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الماء الذي جليت القوم عنه، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ تلك الإبل، وأخذ كل رمحٍ وكل بردة، وكل شيء استنقذته من المشركين.

وإذا بلال رضي الله عنه قد نحر ناقةَ من الإبل التي استنقذها من القوم، وهو يشوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كبدها وسنامها!

قلت: يا رسول الله: خَلّني أنتخبُ من القوم مائة رجل، فأتبع القوم المشركين، فلا يبقى منهم أحدٌ إلا قتلته!

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى بدت نواجذه في ضوء النار، وقال:" يا سلمة أتراك كنتَ فاعلاً؟ "

قلت: نعم، والذي أكرمك يا رسول الله! قال:" إنهم الآن يقرون ويأكلون فى أرض غطفان! "

فجاءنا رجلٌ من غطفان، فقال: نحرَ لهم فلان جزوراً، فلما سلخوا جلدها، رأوا غُباراً، فقالوا: أتاكم المسلمون. فخرجوا هاربين!!

فلما أصبحنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كان خيرُ فرساننا اليوم أبو قتادة، وخيرُ رجالتنا سلمة".

ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل، جمعهما لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم وراءه على ناقته العضباء، راجعين إلى المدينة!

وبينما نحن نسير وقف رجل من الأنصار، وكان لا يسبقه أحد، فقال: ألا من مسابقٍ إلى المدينة؟ من يُسابقُني إلى المدينة؟

وأعاد ذلك مِراراً. فقلت له: أما تكرمُ كريماً؟ ولا تهابُ شريفاً؟ قال: لا. إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: يا رسول الله: بأبي أنت وأمي. ذرني أسابق الرجل!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إن شئت !"

فقلت للرجل: قد أتيتك، وثنيت رجلي، فطفرت، فعدوت، فربطت عليه شَرَفاً أو شَرَفَين، أستبقي نفسـي.. ثم عدوت في إثره، فربطت عليه شرفاً أو شرفين.. ثم عدوت حتى لحقته، فصككته بين كتفيه، فسبقته، وقلت له: قـد سبقتك والله!!

فسبقته إلى المدينة.. " [1].

الحادية والعشرون: غزوة بني المصطلق:

اختلف العلماء في وقتها فمنهم من قال: كانت في السنة الرابعة، ومنهم من قال كانت في شعبان مـن السـنة الخامسة قبل غزوة الخندق، ومنهم من قال: كانت في شعبان عن السنة السادسة.

والقول الأخير قال به ابن إسحاق.

وسميت غزوة بني المصطلق لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم حارب قبيلة بني المصطلق، وكانوا يسـكنون علـى الساحل، بين المدينة والبحر.

وتسمى غزوة المريسيع، وهو اسم ماءٍ في منطقة قُدَيْد على الساحل، كانوا يسكنون حوله.

وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار، وكان قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهم يجمعون الجموع لحربه في المدينة، فتوجَّه لهم صلى الله عليه وسلم ومعه مجموعةٌ من أصحابه، وتراموا النبل ساعة، ثم حمل عليهم المسـلمون فهزموهم، وقتلوا من قتلوا منهم، وأسروا من أسروا، وغنموا الكثير من الأنعام: الإبل والغنم.

---

[1] رواه مسلم في الجهاد: ٣/١٤٣٣.

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جوَيرِيَةَ بنت الحارث بنت ملكهم الحارث بن أبي ضرار [1].

الثانية والعشرون: غزوة الحديبية:

وكانت في ذي القعدة من السنة السادسة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج في ألفٍ وأربعمائة يريد زيارة البيت الحرام، وأداء العمرة، وساق معه الهدي سبعين بدنة.

ولما سمعت قريش بتوجُّهه للعمرة، خرجوا لمنعه من دخول مكة، وعسكر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحديبية، وأرسل صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل مكة، يخبرهم بمهمته وقصده. وأشيع أنَّ عثمان قد قُتل.

ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة إلى البيعة تحت الشجرة، فكانت بيعة الرضوان، حيث بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الموت، أو على أن لا يَفِرّوا.

وبعد مفاوضاتٍ بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش، تمَّ الاتفاق على الصلح، ووقع معه سهيل بن عمرو صلح الحديبية [2].

الثالثة والعشرون: غزوة خيبر:

بعدما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية، أقام في المدينة ذا الحجة وبعض المحرم.

وفي المحرم هن السنة السابعة توجَّه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، وهي مدينة لها عدة حصون، كان يقيم فيها اليهود.

وكان عامر بن الأكوع رضي الله عنه شاعراً رَجّازاً، فصار يرتجز أثناء سير المسلمين إلى خيبر. ولما سمعه الرسول صلى الله عليه وسلم قال له: "غفر الله لك".

---

[1] سيرة ابن هشام: ٣/ ١٨٢.
[2] سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩٦.

وما استغفر الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد إلاّ رزقه الله الشهادة ولذلك لما سمعه عمر يستغفر لعامر قال: يا رسول الله: لولا متعتنا بعامر بن الأكوع!

ولما وصل المسلمون خيبر، خرج ملك اليهود مَرْحب يطلب المبارزة، فخرج له عامر بن الأكوع فضرب كل منهما الآخر، ووقع سيفُ مَرْحَبٍ في تُرس عامر، وأراد عامر أن يتقي الضربة، فرجع سيفه عليه فقطع! أكحله، وكان فيه وفاته!

قال ابن أخيه سلمة بن عمرو بن الأكوع رضي الله عنه: سمعت نفراً من الصحابة يقولون: بطل عمل عامر، حيث قتل نفسه!

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي. فقلت: يا رسول الله: هل بطلَ عملُ عامر؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"من قال ذلك؟"

قلت: ناسٌ من أصحابك!

قال صلى الله عليه وسلم: "كَذَبَ مَن قال ذلك، بل له أجرُهُ مرتين!"

وخرج ملك اليهود مَرحَبٌ يطلب المبارزة، ويقول: هل من مُبارز؟

فقال صلى الله عليه وسلم: "من لهذا؟"

فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله. أنا والله الموتور الثائر، لقد قتل اليهود أخي محمود بالأمس.

فقال صلى الله عليه وسلم:" قم إليه! اللهم أعنهُ عليه ".

فلما التقى محمد بن مسلمة مع ملك اليهود مَرحب دخلت بينهما شجرة فصار كل واحد! يلوذ من صاحبه بها، وكلّما لاذ بها قطع بسيفه بَعضاً من أفنانها وأغصانها، حتى قطعا أغصانها. ثم حمل مَرْحَبٌ على محمد بن مسلمة فضربَهُ

بالسيف، فاتقى ابنُ مسلمة الضربة بالدَّرقة، ووقع السيفُ بهـــا، ولم يتمكن مَرحَب من إخراجه منها، وضربه ابـــنُ مسلمة فصرعه.

وضرب محمد بن مسلمة مَرْحَباً على رجليْه فقطعَهما، وتركه، فطلب منه مَرحَب أن يجهز عليه.

فقال له ابن مسلمة: لا لن أُجْهِزَ عليك. ذق الموت كما ذاقه أخي محمود بن مسلمة على أيديكم!

ومَرَّ به بعد ذلك عليٌّ بن أبي طالب وهو صريع، فأجهز عليه وأزهق روحه.

فالذي قتل ملك اليهود مرحباً هو محمد بن مسلمة رضي الله عنه، والذي أجهز عليه هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه!

وبعدما قتل مَرحب خرج أخوه ياسرٌ يطلب المبارزة، فخرج له الزبير بن العوام رضي الله عنه.

فقالت صفية بنت عبد المطلب - أمُّ الزبير - رضي الله عنها: الآن يقتلُ ابني.

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بل ابنك يقتلُهُ إنْ شاءَ الله".

فالتقيا وتبارزا، وقتل الزبير ياسراً.

٢٦٣ - وقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح قريباً من خيبر بغلس. ثم قال:"اللهُ أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساء صباحُ المنذرين" [١].

وفتح الرسول صلى الله عليه وسلم حصون خيبر، فقتل المقاتلين، وسبى الذرية، وأخذ الغنائم [٢].

---

[١] رواه البخاري في المغازي: ٥/ ٧٣.
[٢] سيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٥-٢١٦.

الرابعة والعشرون: عمرةُ القضاء:

ولم يذكرها بعضهم مع غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم.

فلما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى المدينة، أقام فيها ستة أشهر، وهو يبعث سراياه.

ثم خرج صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة من السنة السابعة، لأداء عمرة القضاء، كما أتفق مع قريش في صلح الحديبية.

وسميت عمرة القضاء، لأنها بدل العمرة التي صَدوه عنها في العام الماضي.

وأدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه العمرة، وأقام في مكة ثلاث ليال حسب الإتفاق مع قــريش. وفي صباح اليوم الرابع نادى مناديه بالرحيل، فرحلوا عائدين إلى المدينة [١].

الخامسة والعشرون: غزوة فتح مكة:

وكانت في رمضان من السنة الثامنة، لأن قريشاً نقضت صلحَ الحديبية مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

وسار الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعه اثنا عشر ألفاً من أصحابه، ودخلوا مكة، ونصرهم الله، وأصــبحت مكة دار إسلام [٢].

السادسة والعشرون: غزوة حنين:

وهي غزوة هوازن، وكانت بعد فتح مكة مباشرة، في شوال من السنة الثامنة، حيث سمعت هوازن بخبر فتح مكة.

---

[١] المرجع السابق: ٤/ ٣.
[٢] المرجع السابق: ٤/ ٥.

جمع زعيم هوازن مالك بن عوف النَّصْري الجموع من ثقيف وهوازن ونضر وجثم وسعد بن بكر، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم لقتالهم.

ولما كان المسلمون في وادي حنين فاجأهم هوازن بالكمائن، ففرَّ المسلمون ولم يثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ عددٌ قليلٌ من أصحابه.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمَه العباس أن ينادي: يا معشر الانصار، يا أصحاب الشجرة. [شجرة الرضوان].

فعاد أصحاب الشجرة الصادقون، وحاربوا هوازن، وما هي إلآ فترة قصيرةٌ حتى هزموا هوازن، وأخذوا الأسرى، وكتَفوهم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وانتهت المعركة بنصر الله للمؤمنين وهزيمة هوازن وثقيف.

وأخذ المسلمون الكثير من الغنائم. فكانت من الإبل أربعةَ وعشرين ألفاً، ومن الغنم أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية [١].

السابعة والعشرون: غزوة الطائف:

وكانت في شوال من السنة الخامسة.

فبعدما انهزمت ثقيف يوم حنين توجهوا إلى الطائف ودخلوها وأغلقوا أبوابها.

وتوجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وضرب معسكره قريباً منها، وحاصرها حصاراً شديداً.

---

[١] سيرة ابن هشام: ٤/٦٠-٦٢.

ورمت ثقيف المسلمين بالنبل رمياً شديداً، حتى كأنه رجلُ جراد. وأصيب أناس من المسلمين بالجراح، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً.

وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً عديدة، اختلف فيها المؤرخون، قيل: كانت خمسة عشر يومـــاً. وقيل: كانت ثمانية عشر يوماً. وقيل كانت بضعاً وعشرين ليلة. وقيل: كانت أربعين يوماً.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعونهـــا. فسألته ثقيف أن يتركها لله، فتركها صلى الله عليه وسلم لله والرحم.

ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثقيف: "أيّما عبدٍ نزل إلينا من الحصن فهو حُـــرّ" فـــترل إلى المسلمين بضعة عشر رجلاً منهم أبو بكرة - نفَيعُ بنُ الحارث - فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما استعصى فتح الطائف استشار الرسول صلى الله عليه وسلم نوفل بن معاوية الديلي رضي الله عنه، وقال له:" ما ترى؟" فقال نوفل: ثقيف ثعلبٌ في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرَّك!

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأذَّنَ في الناس بالرحيل! [١]

الثامنة والعشرون: غزوة تبوك:

كانت غزوة تبوك في رجب من السنة التاسعة، وهى آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد توجَّه الرسول صلى الله عليه وسلم لغزوِ الروم، لأنه بلغه أنَّ الروم يعدّون العدَّة لغزو المدينة.

وكان خروجهم إلى تبوك في زمن عسرة من الناس، وجدب في البلاد. وحَضَّ الأغنياء وأصحاب اليسار علـــى تجهيز المسلمين والإنفاق عليهم، ففعلوا، وكان من أعظمهم نفقةَ عثمان بن عفان رضي الله عنه.

---

[١] طبقات ابن سعد: ٢/١٥٨-١٥٩.

وتخلفَ المنافقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففضحهم الله في سورة التوبة.

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه ثلاثون ألفاً من المجاهدين. وجاء البَكاءون للرسول صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يحملهم، لأنهم كانوا فقراء لا يجدون ما يخرجون عليه للجهاد، وكانوا راغبين في الجهاد حريصين عليه، فأخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع، حزناً لأنهم لم يجدوا ما ينفقون.

وإن قيصرُ الروم هرقل في مدينة حمص بسورية، وقد جمع جيشاً كبيراً من الروم وأعوانهم من القبائل العربية كغسان ولخم وجذام لغزو المدينة.

فلما سمع الروم بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تبوك توقَفوا عن الغزو.

وأقام الرسول صلى الله عليه وسلم في تبوك بضع عشرة ليلة، ولم ينشب فيها قتال وبعث عدداً من السرايا، وجاءه وفودٌ من تلك المناطق ثم عاد إلى المدينة [1].

هذه هِ الغزوات التي غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، والتي قاد فيها الصحابة المجاهدين. ومنهالا ما كان فيه قتالٌ للكفار، ومنها مالم يكن فيه قتال.

ومجموع هذه الغزوات هو ثمان وعشرون غزوة، خلال مدة إقامته في المدينة، التي استمرت عشر سنوات. أي أنه كان لكل سنةٍ منها ثلاث غزواتٍ تقريباً، وهذه نسبةُ عالية!

فـــصل

في السرايا التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم

[1] سيرة ابن هشام: ٤: ١٢٠-١٢٦.

اختلف العلماء في عدد سرايا وبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم. واتفقوا على أن أعظم سراياه غزوة مؤتة.

وفيما يلي أهمُّ سراياه وبعوثه صلى الله عليه وسلم.

١ - غزوة مؤتة:

كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة، حيث بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في ثلاثة آلافٍ من المسلمين إلى أرض البلقاء من أطراف الشام.

وقال لهم: إن اُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس.

سار المسلمون إلى الشام حتى نزلوا مدينة "معان" من أرض الشام، وهناك علموا أنَّ هرقل قد نزل في مآب من أرض البلقاء، ومعه مائة ألفٍ من الروم، ومائةُ ألفٍ أخرى من العرب المتعاونين معهم!

وفكر المسلمون في الأمر، واقترح بعضهم أن يكتبوا للنبي صلى الله عليه وسلم، فإما أن يمدَّهم بالرجال ، وإمّا أن يامرهم بأي أمر.

فشجع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه المسلمين، وقال لهم: يا قوم: إن التي تكرهون لهي التي خرجتم تطلبون، الشهادة. وإننا لا نقاتل القوم بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرة، وما نقاتلهم إلاّ بهذا الدين الذي اكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي أحدى الحسنيين: إمّا نصر، وإما شهادة!!

فتشجع المسلمون لخوض المعركة، وقالوا: صدق ابن رواحة.

والتقى المسلمون والروم في مؤتة، واستعدَّ المسلمون للمعركة، ووقف ثلاثة آلاف مسلم أمام مائتي ألف من الأعداء.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: وكان قد شهد معركة مؤتة - لما دنا منّا المشركون، رأينا ما لا قبل لأحدٍ به، ومعهم ما معهم من السلاح والمتاع، فبرق بصري.

فقال لي ثابتُ. بن أقرم رضي الله عنه: يا أبا هريرة: كأنك ترى جموعاً كثيرة؟

قلت: نعم.

قال: إنك لم تشهد معنا بدراً، إنا لم نُنصر بالكثرة!!

ونشبت المعركة عنيفة بين المسلمين والمشركين، وقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه براية رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى قتل. فتناول الراية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقاتل، ولما حمي الوطيس واشتد القتال عقر جعفر فرساً له شقراء، ثم تقدم وقاتل راجلاً حتى قُتل. وكان جعفر أول من عَقَرَ فرسَه في الإسلام.

وكك جعفر فد حملَ اللواء بيمينه فقُطعت، ثم حمل "اللواء بشماله فقطعت ، ثم احتضنه بعضُديه حتى قُتِل.

فحمل اللواء عبد الله بن رواحة، وتقدَّم وهو على فرسه، ولا حظَ من نفسه ترذُداً، فصار يستنزلها ويشـــجعها، وأنشد قائلاَ:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّه

لتَنزلنَّ أولتُكرَهِنَّه

إن أجلبَ النّاسُ وشدّوا الرَّنَّة

مالي أراكِ تكرهين الجنة

قد طال ماكنتِ مُطمئنة

هل أنت إلاّ نطفة في شنَّة

يا نفس إن لاتُقتلي تَموتي　　　هذاحمامُ الموت قد صَليتِ

وماتَمَنيتِ فقدأُعطيتِ　　　إن تفعلي فِعْلَهُما هُديتِ

وإنْ تأخَرْتِ فَقَد شَقيتِ

ثم دخل ابن رواحة المعركة. فأتاه ابن عمّ له بعرقِ لحم، وقال له: شُدَّ بهذا صُلْبك، فإنك قد لقيت يومك هــذا! فأخذه، فانتهش منه نهشة، ثم قال لنفسه: أنت ما زلت في الدنيا! ثم رماه. وتقدَّم وقاتل، حتى قُتل!

وبذلك استشهد القادة الثلاثة الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: زيد بن حارثــة، وجعفــر بــن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم.

فأخذ الراية ثابت بن أقرم الأنصاريُ رضي الله عنه، وقال: أيها المسلمون : اصطلحوا على رجلِ منكم!

قالوا: أنت لها!

قال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على غيري.

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد رضي الله عنه، فدافع القوم وحاشى بهم، ثم انحاز خالا بالقوم وانحيز عنــه، وانسحب بالمسلمين من الميدان انسحاباً مقصوداً، وانصرف الروم [١].

٢٦٤ - روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى زيداً وجعفــراً وابن رواحة قبل أن يأتيه خبر، فقال:" أخذَ الراية زيد فأُصيب، ثم أخَذها جعفر فأصيب، ثم أخذها إبــنُ رواحــة فأصيب.. ثم أخذَ الراية سيف من سيوفِ الله، حتى فتح الله عليهم" [١].

---

[١] سيرة ابن هشام: ٤/ ١٤٠٩.

وقال ابن إسحاق: لما إستشهد الشهداء الثلاثة أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اشهادهم فقال:" أخذَ الرايةَ زيدُ بن حارثة، فقتاتلَ بها حتى قتُل شهيداً، ثم أخَذها جعفر، فقاتَلَ بها حتى قتل شهـــيداً.

ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تغيَّرَتْ وجوهُ الأنصار، وظنوا أنه كان في عبد الله بن رواحة بعضُ ما يكرهون. ثم قال صلى الله عليه وسلم:" ثم أخذها عبد الله بن رواحت فقاتلَ بها حتى قتل شهيداً" ثم قال : ولقد رفعوا إلَيّ من الجنة، فرأيت في سريرِ عبدِ الله بن رواحة ازوِراراً عن سريَري صاحبيَه!

فقلت: عَمّ هذا؟"

" فقيل لي: مضيا، وترددَ عبدُ الله بن رواحة بعضَ التردد، ثم مضى" [٢].

٢٦٥ - وروى البخاريُّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفـــر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى. ووجدنا بما أقبل من جسده بضعاً وتسعين، بين ضربةٍ ورميةٍ وطعنة [٣].

وقد ثبت أن الله أعطى جعفراً جناحين يطير بهـــما في الجنة، عوَضاً عن يديه اللتين ذهبتا في سبيله.

وكان عبد الله بن عمر إذا حَيا ابن جعفر رضي الله عنه يقولُ له: السلامُ عليك يا ابن ذي الجناحين..

وقد اختلف العلماء في غزوة مؤتة، هل كانت نصراً أم هزيمة، هل انتصر المسلمون فيها على الروم أم انهـــزموا أمامَهم.

١ - فذهب بعضهم إلى أنها كانت هزيمة: انهزم فيها المسلمون أمام الروم، لأنهم كانوا ثلاثة آلافِ أمام أكثر من مائتي ألف.

---

[١] رواه البخاري في المغازي:٥/٨٧ .
[٢] سيرة ابن هشام: ٤/ ١٤-١٥.
[٣] رواه البخاري في المغازي:٥/ ٨٧.

واعتمدوا على حديث لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية، فلما لقينا العدوِّ انهزمنا، فقدمنا المدينة في نفرٍ ليلاً، فاختفَّيْنا، ثم قلنا: لو خرَجْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتذَرنا إليه. فخرجنا إليه، فلما لقيناه قلنا: نحنُ الفَرارون يا رسول الله. قال: "لا بل أنتم العكارون.. أي الكرّارون! "[1].

ولكن الحديث ضعيف.

٢ - وذكر آخرون: أنها لم تكن نصراً ولا هزيمة. ومن هؤلاء ابن إسحاق حيث قال: لما أخذ الراية خالد بن الوليد رضي الله عنه انحاز المسلمون عن الروم، وانحاز الروم عن المسلمين[2].

٣ - وذهب المحققون من العلماء إلى أن معركة مؤتة كانت نصراً، نصرَ اللهُ بها المسلمين على الروم.

وقال بهذا الواقدي والبيهقي وابن كثير وغيرهم. وهذا هو الراجح!

قال الواقدي: لما استلم خالد بن الوليد اللواء غيَّرَ في الجيش، فجعل ساقة الجيش

مُقَدمَة، ومُقَدَمَةَ الجيش ساقة، وميمَنَة الجيش ميسرة، وميسرة الجيش ميمنة.

وفوجىء الروم بهذا التغيير، وقالوا: جاء المسلمين المدد. فَرُعِبوا منهم وانكشفوا وانهزموا. فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة[3].

والدليل على أن معركة مؤتة كانت نصراً للمسلمين:

- حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي رواه البخاري: "... ثم أخذَ الرايةَ سيفٌ من سيوف الله حتى فتحَ اللهُ عليهم" فاعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم المعركة فتحاً ونصراً من الله.

---

[1] مسند أحمد: ٢/ ١١١. وسنن أبي داود: ٣/ ١٠٦. وسنن الترمذي: ٤/ ٢١٥.
[2] سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٤.
[3] مغازي الواقدي: ٢/ ٧٦٤.

- ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:" فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجـدناه في القتلـى، ووجدنا بما أقبل من جسده بضعاً وتسعين ضربة ..".

ولو انهزموا لما استطاعوا تفقُد القتلى والنظر فيهم، وعد الضرباتِ والطعناتِ التي وُجهَت لهم.

إن هذا الحديث يدلُ على أنه لما انكشف المشركون وانهزموا في مؤتة، رجع المسلمون إلى قتلاهم، ينظرون مـن فقد عنهم، وكان عبد الله بن عمر ممن وقف ينظر إلى جسد جعفر بن أبي طالب، ويعدُ ما فيه من الضربات!

٢٦٦ - روى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف. وما بقي في يدي إلاّ صفيحةٌ يمانية" [1].

فلو انهزم المسلمون في المعركة لما تمكَن خالد من تكسير تسعة أسياف!

٢٦٧ - ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، فرافقني مَدَدِيٌّ من أهل اليمن [الذي يأتي مَدَداً للجيش في الحرب] ليس معه غيرُ سيفه... ومضـينا فلقينـا جموع الروم، وفيهم رجلٌ على فرسٍ له أشقر، عليه سرج مذَهب وسلاح مُذهب. فجعل الروميُّ يَفْري بالمسـلمين [شديدُ الحربِ عليهم والنكايةِ فيهم] فقعدَ له المَدديُّ خلفَ صخرة، فمر به الرومي، فعرقبَ فرسَه فخرَّ، وعـلاهُ المدديُّ فقتله، وحازَ فرسَه وسلاحَه..

فلما فتحَ اللهُ عز وجل للمسلمين، بعث إليه خالدُ بن الوليد، فأخَذَ السلب..

قال عوف: فأتيتُ خالداً، فقلتُ له: أَما علمتَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلَب للقاتل قـال : بلى. ولكني استكثَرتُه..

قلت: لتردَنَه عليه، أو لأعرفنكهـا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم! فأبى خالدٌ أن يردَه عليه.

---

[1] رواه البخاري في المغازي: ٥/٨٧.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقصصتُ عليه قصة المدديِّ، ومافعلَ خالد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا خالد: ما حَمَلَك على ما صَنعت؟"

قال: لقد استكثرتُه يا رسول الله!

فقال صلى الله عليه وسلم:)يا خالد: رُدَّ عليه ما أخَذتَ منه" [١].

وهذا يدلُّ علىْ أن مؤتة كانت نصراً للمسلمين، لأنهم جمعوا الأسلابَ والغنائم، ولأن عوف بن مالك يصرح بأن الله نصرَ المسلمين فيها.

أما باقي سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي:

٢ - سرية عبيدة بن الحارث رضي الله عنه في ستّين من المهاجرين إلى رابغ.

٣ - سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قبل غزوة الأبواء.

٤ - سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه بعد بدر الأولى.

٥ - سرية عمرو بن عدي رضي الله عنه.

٦ - سرية سالم بن عمير رضي الله عنه.

٧َ سرية كعب بن الأشرف.

٨ - سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى القردة قبل غزوة أحد.

---

[١] رواه مسلم في الجهاد:٣/١٣٧٤.

٩ - سرية أبي سلمة بن عبد الأسد بعد حمراء الأسد.

١٠ - سرية عبد الله بن أنيس رضي الله عنه.

١١ - سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه بعد الخندق إلى القرظاء من هوازن.

١٢ - سرية عبد الله بن عتيك رضي الله عنه لقتل أبي رافع اليهودي.

١٣ - سرية سعيد بن زيد رضي الله عنه إلى العُرَنيين.

١٤ - سرية عكاشة بن محصن رضي الله عنه إلى الغَمر، ماءٌ لبني أسد.

١٥ - سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى ذي القَصَة قرب المدينة.

١٦ - سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى ذي القَصَّة أيضاً.

١٧ - سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني سليم بالجُموم.

١٨ - سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى العيص قرب المدينة.

١٩ - سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى الطَّرَف قرب المدينة أيضاً.

٢٠ - سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى حِسمى وراء وادي القرى.

٢١ - سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القرى.

٢٢ - سرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل.

٢٣ - سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى مدين.

٢٤ - سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى سعد بن بكر بفَدَك.

٢٥ - سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى أمِّ قِرفَة بوادي القرى.

٢٦ - سرية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى أَشبَرَ بن رزام اليهودي.

٢٧ - سرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه.

٢٨ - سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تُرَبَة قرب مكة.

٢٩ - سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني كِلاب بنجد..

٣٠ - سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه إلى فَدَك.

٣١ - سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى المَيفَعَة.

٣٢ - سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه إلى يَمنَ وجُبار. ٣٣ - سرية ابن أبي العوجاء رضي الله عنه إلى بني سُليم.

٣٤ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكديد.

٣٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثي أيضاً إلى أصحاب بشير بن سعد بفدك.

٣٦ - سرية شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه إلى بني غالب.

٣٧ - سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح وراء وادي القرى.

٣٨ - سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى ذات السلاسل.

٣٩ - سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلي سيف البحر، وهي سرية الخبط. ٤٠ - سرية أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه إلى أرض محارب بنجد.

٤١ - سرية أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه إلى إِضَم قرب المدينة.

٤٢ - سرية أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه إلى الغابة قرب المدينة.

٤٣ - سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى العُزّى بنَخلَة لهدمِها.

٤٤ - سرية أبي عامر الأشعري رضي الله عنه إلى أوْطاس في ديار هوازن.

٤٥ - سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى سُواع، لهدم الصنم بنخلة.

٤٦ - سريةْ سعد بن زيد رضي الله عنه إلى مُناة لهدم الصنم.

٤٧ - سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني جُذيمة من كنانة.

٤٨ - سرية الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه إلى صنم ذي الكَفَّين لهدمه.

٤٩ - سرية عيينة بن حصن الغزاري رضي الله عنه إلى بني تميم.

٥٠ - سرية قطبة بن عامر رضي الله عنه إلى خثعم.

٥١ - سرية الضحاك بن سفيان الكلابي رضي الله عنه إلى بني كلاب.

٥٢ - سرية علقمة بن مُجَزز رضي الله عنه إلى الحبشة.

٥٣ - سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى صنم الفُلُس في طيء لهدمه.

٥٤ - سرية عكاشة بن محصن رضي الله عنه إلى الحبابِ في أرض عُذَرة.

٥٥ - سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أُكيدر دومةَ الجندل.

فهذه خمس وخمسون سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته.

فــــصل

في الإشارة إلى بعض غزوات وفتوحات المسلمين

كان الكلام فيما مضى عن غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قادها بنفسه، وعن سراياه التي بعث بها، وأَمَّر عليها أميراً من أصحابه.

وليس الجهاد خاصاً بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا بأصحابه الكرام، وإنما هو واجبٌ أوجبه الله على المسلمين في كل زمان ومكان.

لا يجوز لأحد أن يتعلَّلَ ويبرر قعوده عن الجهاد بأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم جاهد، لأن الله أيده بالنصر وأمده بالملائكة، وكلَّفه بتبليغ الدعوة وجهاد الكافرين! فالجهاد خاصٌّ به!

كما أنه لا يجوز أن يبرر قعوده عن الجهاد بأنَّ الصحابة جاهدوا لأنهم كانوا مؤيدين بالسر النبوي، والنظر المحمدي! فالجهادُ خاصٌّ بهم!

إن الجهاد هو روح الإسلام، ولقد قام مسلمون صادقون بواجبهم في الجهاد بعد عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وخاضوا معارك شديدة ضد الكفار، وقاتلوا فيها قتال الأبطال، ورزقهم الله فيها النصر والظفر.

ونقدّم فيما يلي نماذج وأمثلة لمعارك فاصلة، ونأخذها من كتاب "تاريخ الإسلام" للمؤرخ الحافظ الحجة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن الذهبي.

وقد بدأ الجهاد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلاف أبي بكر الصديق رضي الله عنه مباشرة.

حيث أرتدَّ كثير من العرب عن الإسلام، فنهض أبو بكر لقتالهم. وأمَّرَ خالد بن الوليد على جيش المسلمين لقتال المرتدين:

فقاتل خالدٌ رضي الله عنه طليحة بن خُويلد الأسدي ومن معه من المرتدين، ونصر الله المسلمين، وهزم المرتدين، وأسلم طليحة بن خويلد.

وتوجَه خالدٌ في السنة الثانية عشرة إلى قتال مسيلمة الكذاب، الذي ادَّعى النبوة في اليمامة، ووقعت معركةٌ عنيفة في اليمامة، استشهد فيها عدد كبيرٌ من الصحابة والمسلمين، وقتل عددٌ كبير من جيش مسيلمة، وانتهت بنصر المسلمين، وهزيمة الكافرين، وقتل مسيلمة الكذاب.

وفي السنة الثالثة عشرة بعث أبو بكر رضي الله عنه الجيوش لفتح بلاد الشام، فأمر عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يتوجه إلى فلسطين، وأمر أبا عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم بالتوجُّه إلى الشام.

ومن المعارك التي وقعت في السنة الثالثة عشرة: معركة أجنادين ضدَّ الروم، بين الرملة وبيت جبرين، في فلسطين.

ومنها معركة مرج الصُفُر ضدَّ الروم، بين دمشق والجولان.

ومنها معركة طبقة فحل ضدَّ الروم بين الأردن وفلسطين.

وتوفي أبو بكر واستخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في السنة الثالثة عشرة.

وفي السنة الرابعة عشرة كان فتح دمشق.

حيث سار أبو عبيدة إلى دمشق، وكان خالد بن الوليد على مقدمة الناس، واجتمعت الروم على رجل يقال له باهان. وكان عمر قد عزل خالداً، واستعمل أبا عبيدة.

والتقى المسلمون والروم حول دمشق، واقتتلوا قتالاً شديداً، وهزم اللهُ الروم، ودخلوا دمشق وأغلقوا أبواب حصونها.

وحاصر المسلمون دمشق أياماً وليالي عديدة، وضربوها بالمنجنيق، وقد أعدَّ صاحبُ دمشق الروماني باهان طعاماً وليمة، لأنه جاءه مولود ، واشتغل الرومان بالطعام والشراب!

وأعدّ خالد بن الوليد حبالاَ كهيئة السّلالم، وتقدم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي، وثبتوا الحبال على السور وارتقى المجاهدون على الحبال، وصعدوا إلى السور، وكبروا الله، وفوجىء الروم بما يجري، وفتح خالد الأبواب وقتل الحراس، ودخل المسلمون من جهة خالد بن الوليد مدينة دمشق عُنوة وقتالاَ، بينما دخلوها من جهة أبي عبيدة صلحاً، والتقت فرقة خالد مع فرقة أبي عبيدة، وهكذا فُتحت دمشق، نصفها عُنوة ونصفها صلحاً.

وفي السنة الخامسة عشرة وقعت معركة اليرموك، وهي وقعة عظيمة مشهورة. كان الروم ثلاثمائة ألف، وكان المسلمون ثلاثين ألفاً، وأميرهم أبو عبيدة بن الجراح. وقد ربط الروم جنودهم بالسلاسل لئلا يفروا، ولما هزم الله الروم كانت السلاسل سبباً في هلاكهم، فلما كان الواحد يفرّ، كان يسحب معه الجنود المربوطين معه في السلسلة، وكان خلف سهل اليرموك وادٍ سحيق، فتساقط عشرات الألوف من جنود الروم في ذلك الوادي، ولقوا حتفهم فيه.

وكان أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه واعظ المسلمين في اليرموك، وكان تحت راية ابنه يزيد، وكان يقول: يا معشر المسلمين يومٌ من أيام الله، فابلوا فيه بلاءً حسناً، وكان أبو سفيان يدعوا الله قائلاً: يا نصرَ اللهِ اقترب!

وفي السنة الخامسة عشرة كانت معركة القادسية في العراق، وكان عدد المسلمين ثمانية آلاف، وأميرهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكان عدد الفرس ستين ألفاً، وأميرهم رستم.

ونصر الله المسلمين في القادسية نصراً عظيماً، وهزم الفرس هزيمةَ شديدة، وقتل رستم والآلاف من الفرس معه.

وغنم المسلمون من الفرس غنائم كثيرة، وكانت معركة القادسية مفتاحاً لفتح بلاد فارس.

وفي السنة السادسة عشرة وقعت معركة جلولاء ضدَّ الفرس، بجانب نهر جلولاء الذي يصب في نهر دجلة. وهزم اللهُ الفرس، وقُتل منهم حوالي مائة ألف، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة.

وفي ثلاثة أعوام - من العام الثالث عشر حتى السادس عشر الهجري - استولى المسلمون على كرسيِّ مملكة كسرى، وعلى كرسيِّ مملكة قيصر، وغنموا غنائم لم يُسمع بمثلها من الذهب والجوهر، والحرير والدقيق، والمدائن والقصور. فسبحان الله الفتاح العليم، العلي العظيم.

وفي السنة السادسة عشرة سار عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام، وافتتح بيت المقدس صلحاً.

وفي السنة العشرين فتحت مصر عنوة وقتالاً.

وفي السنة العشرين كان فتح "تُسْتَر" بعد أن حاصرها المسلمون بقيادة ابي موسى الأشعري أكثر من سنة، وكان القائد الفارسي الهرمزان متحصناً فيها.

ولما طال حصار المسلمين للمدينة جاء أحد الفرس إلى أبي موسى الأشعري، فقال له: إن أمَّنْتني على أهلي ومالي دللتك على المدخل السري للمدينة، فأمَّنه!

قال: أرسل معي إنساناً سابحاً ذا عقلٍ لأدُلَّه. فأرسلَ معه مَجزَأةَ بن ثورِ السَّدوسي.

أُدخلَ مَجْزأةُ بن ثور من عين ماء خفيةٍ تحت السور، وكان ينبطح على بطنه أحياناً ويحبو، وهو يسبح على وجه الماء، حتى دخل المدينة وعرف طرقها، وأراه الفارسيُّ الهرمزان ملك تستر، فهمَّ بقتله، ولكنه عدل عن ذلك حتى لا يفتضح أمره.

عاد مَجْزَأةُ إلى أبي موسى، وأخذ معه خمسةً وثلاثين مجاهداً. ودخلوا مع عين الماء تحت السور، وسبحوا على وجه الماء كأنهم البطّ، ودخلوا المدينة، واقتتلوا مع الفرس، وقُتلَ مَجزأةُ بن ثور ولقي الله شهيداً، ولم يتمكن المسلمون من صلاة الفجر بسبب نشوبِ القتال فقضوا الفجر عند منتصف النهار!

ونزل الهرمزان على حكم عمر بن الخطاب، وأسلم وذهب إلى المدينة.

وفي السنة الحادية والعشرين فتح عمرو بن العاص الإسكندرية، حيث هزم الروم والقبط قبلها، وتوجه إلى الاسكندرية وأفتتحها عنوةً من ملكها المقوقس، وأقام بها حاميةَ من المسلمين، وعاد إلى الفسطاط، فوجه قسطنيطن بن هرقل جيشاً بحرياً من الروم، واحتل الإسكندرية، وقتل من فيها من المسلمين، وزحف إليها عمرو بن العاص في خمسة عشر ألفاً، وأعاد فتحها مرةَ ثانية.

وفي السنة الحادية والعشرين وقعت معركة نهاوند ضد الفرس، وكانت معركةَ عنيفة شديدة، ربط الفرس أنفسهم بالسلاسل لئلا يفروا. واقتتل المسلمون مع الفرس اقتتالاً شديداً، وجرت الدماءُ على أرض المعركة بغزارة، وزلقت فرس النعمان بن مقرن رضي الله عنه قائد المسلمين في المعركة، ورمي بسهمٍ فلقي الله شهيداً. واستلم القيادة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وكتب الله للمسلمين النصر، وهزم الله الفرس هزيمة شديدة، قُتل منهم أكثر من مائة ألف.

وفي السنة السابعة والعشرين غزا معاوية بن أبي سفيان جزيرة قبرص، ومعه عبادة بن الصامت، ودخلها صلحاً.

وفي السنة السابعة والعشرين غزا عبد الله بن سعد بن ابي السرح أفريقية، وفتحها، وحارب الكفار فيها، وقتل عبد الله بن الزبير ملكهم جرجير، وهزم الله الكفار، ونصر المسلمين، وغنموا غنائم كثيرة.

وفي السنة السابعة والعشرين افتتح عبد الله بن عامر مدينة اصطخر في الشمال الشرقي عنوة، وقتل من قتل من الكفار فيها، ووقعت معركة عنيفة مع الفرس، انتهت بهزيمة الفرس وانتصار المسلمين. وفي السنة السابعة والثلاثين افتتح عبد الله بن خازم السلمي بادغيس وهَراة ومَروُ الروذ

في تركستان، وهزمَا الكفارَ فيها. وفي السنة السابعة والثلاثين غزا الحرث بن مرة الفِهري أرض الهند، وجــاوز مكران وجبال القيقان في منطقة بلوخستان.

وفي السنة الرابعة والأربعين غزا المهلبُّ بن أبي صفرة الهند.

وفي السنة الثالثة والستين غزا عقبة بن نافع الفهري أفريقية، وقاتل ملك البربر كسيلة، واستشهد عقبة مع بعض أصحابه، وثأر له خليفته زهير بن قيس البلوي، وقتل كسيلة، وانتصر على البربر.

وفي السنة الرابعة والثمانين افتتح موسى بن نصير بلاد الأندلس.

وفي السنة السابعة والثمانين غزا قتيبة بن مسلم بخارى وافتتحها.

وفي السنة الثامنة والثمانين غزا مسلمةُ بن عبد الملك بلاد الروم، وانتصر في عدة معارك فيها.

وغزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك، وهزم الترك والصّغْد.

وفي السنة التسعين افتتح قتيبة بن مسلم بلاد الطالقان.

وفي السنة الثالثة والتسعين سار قتيبة بن مسلم إلى سمرقند، وخاض معارك عنيفة مع الترك والصُّــغْد، وهــزمهم وفتح سَمَرقَند وما حولها.

وفي السنة الخامسة والتسعين أتمَّ موسى بن نصير فتوحاته في الأندلس، وأخذَ منها غنائم عديدةَ كثيرة وفيرة.

وفي السنة الثامنة والتسعين غزا يزيد بن المهلب بن أبي صفرة بلاد طبرستان، وهزم أهلها، وغنم منــها غنــائم كثيرة.

وفي السنة الثامنة والتسعين جهَزَ سليمان بن عبد الملك جيشاً كثيفاً من المسلمين لفتح القسطنطينية، وكانوا تحت إمرةِ مَسلَمَةَ بن عبد الملك، وحاصر المسلمون القسطنطينية ثلاثين شهراً، وأصابهم في هذا الكثيرُ من الجهد والتعب

واجوع والمشقة. ولم يتمكنوا من فتحها. ولما وليَ عمرُ بنُ عبد العزيز الخلافة دَعا الَجيش إلى العودة عن أسوار القسطنطينة.

واستمرَّ الجهادُ والفتوحات في زمن العباسيين على مختلف الجبهات: على الجبهة الشرقية نحو الهند والصين، الجبهة الشمالية نحو الروم، والجبهة الغربية نحو الأندلس في أوروبا.

ولما غزا الصليبيون بلاد الشام حاربهم المسلمون في معارك عديدة، وكان من قادة الجهاد السلطان نور الدين زنكي، الذي حرَّرَ الكثير من البلاد من الصليبيين، والسلطان المجاهد صلاح الدين الأيوبي الذي حارب الصليبيين في عدة معارك، منها معركة حطين المشهورة، التي نتج عنها تحرير بيت المقدس.

ولما غزا التتارُ بلاد المسلمين. ووصلوا إلى بلاد الشام حاربهم المسلمون وانتصروا عليهم في عدة معارك، أشهرها معركة عين جالوت.

وبابُ الجهاد مفتوح، ورحى الإسلام دائرة، وقتالُ الكفار لا يتوقف.

الباب الثالث والثلاثون

في مدح القوة والشجاعة وذم الجبن والعجز

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُ المؤمن القوي:

٢٦٨ - روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" المؤمنُ القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعُك، واستعِنْ بالله ولا تعجز" [١].

٢٦٩ - روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:" اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر" [٢].

وفي رواية أخرى للبخاري: "اللهمّ إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلعَ الدَّين وغلبةِ الرجال".

وضلع الدَّين هو شدته وثقلُ حمله.

وما أحسن جمع النبي صلى الله عليه وسلم في تعوُّذه بين الهمِّ والحزن: لأن الهمْ عبارةٌ عن خوف ما يتوقعُ من الحالات، والحزن في الغالب عبارةٌ عن الأسف على ما فات.

وجمعه في تعوُّذهِ بين العجز والكسل: لأنَّ العجز ضعف النفس عن شهود قدرهما على ما يراد، والكسل هو ضعف البدن عن أداء ما وجب على العباد.

---

[١] رواه مسلم في القدر: ٤/ ٢٠٥٢.
[٢] رواه مسلم في الذكر والدعاء: ٤/٢٠٧٩. والبخاري في الدعوات: ٧/١٥٩.

وجمعه في تعوُذِه بين الجبن والبخل: لأن البخل عبارةٌ عن عدم الجود بالمال، والجبن عبارةٌ عن عـــدم الســـماحة بالنفس في القتال.

وجمعه في تعوّذه بين ضلع الدين وغلبة الرجال: لأن ضلع الدين هو غلبته على الباطن بشدة الاهتمـــام، وغلبـــة الرجال عبارة عن استيلائهم على الظاهر بقهر الاحتكام !

وليس الجمع بين هذه الأمور عجيباً على من أوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم.

٢٧٠ - وروى البخاري ومسلم عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: كان سعدٌ يأمرنا بخمسٍ، ويذكرُهن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه كان يأمُرُ بهن:" اللهم إني أعوذُ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعـــوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا - يعني فتنة الدجال - وأعوذ بك من عذاب القبر" [١]

٢٧١ - وروى مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلاّ كما كان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم يقول:" اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر" [٢].

فـــصل

في كيفية إزالة الجبن من النفوس

اعلم أن الجبن ضد الشجاعة.

والشجاعة هي ثبات القلب على عزمه، فيما يتوجَه إليه، مما يراد منه، والقلب هو الأصل في اكتساب كل كمال، والفوز بكل مقام عال. ولا يمكن ثبات القلب إلاّ مع سلامة العقل والمزاج، لاعتدال الطبع.

---

[١] رواه البخاري في الدعوات: ٧/ ١٥٨. ومسلم في الذكر والدعاء:٤/ ٢٠٨٨.
[٢] رواه مسلم في الذكر والدعاء٢٠٨٨/٤.

فإن ضعف القلب لقصور وتفريط في القوة، كان ذلك الضعف سبباً في الجبن. وإن أفرط القلب في القوة وخرج عن الاعتدال، كان ذلك الإفراط سبباً في التهور!

والجبن والتهور كلاهما مذموم، والمطلوب هو اعتدال القلب بين التفريط والإفراط وذلك الاعتدال هو سبب الشجاعة.

ويجب على الجبان أن يعالج الجبن، وذلك بإزالة علته وسببه.

وعلة الجبن قد تكون جهلاً، ويزول الجهل بالتجربة.

وقد تكون علة الجبن ضعفاً والضعف يزول بارتكاب الفعل الذي يخافُ منه الجبان، مرةً بعد أُخرى، حتى يصير ذلك له عادةَ وطبعاً!!

إننا نجد المبتدىء في المناظرة والإمامة والخطابة والوعظ، والوقوف بين يدي الملوك، قد تجبُنُ نفسُه، ويخورُ طبعه، ويتلجلج لسانه، وما ذلك إلا لضعف قلبه، بسبب مواجهته مالم يتعوده.

فإن تكرر ذلك منه عدة مرات، فارقه الضعف، وصار يقدمُ على الفعل بدون تخوفٍ ولا خشية.

إن الأخلاق الطبيعية قابلة للتغيير والتبديل، وحسبك دليلاً على هذا صبي الحوّا، الذي تعوّد على إمساك الحية العظيمة المخيفة، التي يهرب منها البطل الشجاع. وسبب ذلك هو تعود الصبي على إمساكها، بحيث ألف ذلك وزال نفوره منه،وذهب خوفه، بينما قد يخاف من الضفدع لعدم تعوده ذلك!

والحيوانات المتوحشة كالوحوش والسباع قد ينجح الإنسان في استئناسها وإزالة توحشِها، فتألفه ويألفها، وذلك بعد التدريب والتطبيع.

وقد تقع الألفة بين الحيوانات المتعادية، كالذئب والخروف، والهر والفأر، والكلبِ والهر، وذلك بعد طول الألفة بينها. وإذا كانت الحيوانات قد تتخلى عن طباعها بالتدريب والتعليم، فإن الإنسان أولى بقبول التعليم، والتفاعل مع التعود والممارسة، والتحولِ عن الأخلاق والطباع السيئة، ومنها الجبن والبخل.

واعلم أن قوة النفس، والعزم الجازم على الغلبة والظفر سبب للظفر. وقد سئل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف كنت تصرع الأبطال؟

قال: كنت ألقى الرجل، فأقدرُ أني أقتله، ويقدرُ هو أيضاً أني أقتلُهُ فأكون أنا ونفسه عوناً عليه.

ومن وصايا بعضهم في الحرب: أشعروا قلوبكم في الحرب الجرأة، فإنها سبب للظفر والنصر.

ومن كلام القدماء: من هيب عدوَه فقد جهَز إلى نفسه جيشاً. وإذا أخذنا هذا بعين الاعتبار، وجدنا من قتل لانهزامه، أكثر ممن أُصيب بسبب إقدامه، والإقدام بقوة الاهتمام، والتجرد من تقديرات الأوهام، سببٌ لنيل كلِّ مرام.

قال الشاعر:

مَنْ راقَبَ الناسَ ماتَ همّاً   وفاز باللذةِ الجَسورُ

والهزيمة سفرة من سفرات الموت، وهي مطمعةٌ للعدو، ومخذلةٌ للمنهزم، ولا تدفع كل رهبةٍ إلاّ بالشجاعة.

حتى لو أراد الإنسان أن يتصدق ببعض ماله، وكان إيمانه ضعيفاً ، فإنه يخور طبعه، ويضعف قلبه، ويعده الشيطان الفقر، وتدعوه نفسه إلى البخل بتوفُع احتياجه إليه، كما قال تعالى:(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء) [البقرة:٢٦٨]

إن من تصدّق بالصدقة فأخفاها كان شديداً، وليس المراد شدة بدنه، وإنما المراد قوة قلبه، المتمثلة في امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

والإنسان لا يتمكن من نيل مكرمة، ولا دفع كريهة إلاّ بقوة القلب التي تقود إلى الشجاعة.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في كتابه "سِراجُ الملوك": بقوة القلب يتحقق امتثال الأوامر والانتهاء عن النواهي، وبقوة القلب يتمُ اكتساب الفضائل، وبقوة القلب يتمُ الانتهاء عن اتباع الهوى، والتخلّي عن الرذائل.

وبقوة القلب يصبر الجليس على أذى جليسه وجفاء صاحبه، وبقوة القلب تكتم الأسرار، ويتمُ دفع العار، وبقوة القلب تقتحم الأمور الصعاب، وبقوة القلب يتمُ تحمل أثقال المكاره، وبقوة القلب يتمُ الصبر على أخلاق الرجال، وبقوة القلب تنفذُ كل عزيمة أوجبها الحزم والعقل، وبقوة القلب يضحك الرجال في وجوه الرجال، وقلوبهم مشحونة بالضغائن والأحقاد.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشِّرُ ونضحك في وجوه قوم،وإن قلوبنا لتلعنهم وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنا لنصافح أكفاً نرى قطعها.

وقال الطرطوشي: اعلم أن الشجاعة على ثلاثة أوجه:

الأول: رجلٌ يقف بين الصّفّين يتحدى وينادي ويطلب المبارزة، ويقول: هل من مبارز؟

الثاني: رجل يكون رابط الجأش، ساكن القلب، حاضر اللّب، عند نشوب القتال واختلاط الجيشين، وخوف الآخرين، فهو لم تخامره الدهشة، ولم تخالطه الحيرة، ويتصرف تصرُّف المالك لأمره، القائم على نفسه.

الثالث: رجلٌ إذا انهزم أصحابه كان وسطهم، يضرب في وجوه القوم، ويحول بينهمْ ويين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويُرجي ضعيفهم، ويمدُهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم.. فمن وقع منهم أقامه، ومن وقف حمله، ومن سقط عن فرسه كشف عنه. حتى ييأس العدوُّ منه.

وهذا الثالث أحمدُهم شجاعة، وأفضلُ الشجعان.

وقديماً قيل: المقاتل خلف الفارين، كالمستغفر وراء الغافلين.

وقيل: من كرم الكريم الذّبّ عن الحريم.

وقيل: لكل أحد يومان لا بُدَّ منهما: أحدهما لا يعجل عليه. والآخر لا يغفل عنه، فما للجبان وللفرار!

واعلم أن غاية الشجاعة عند الشجاع هي أن يهبه الله ملكة خاصة، يقدر بها على قهر أعدى أعدائه، وهو نفسه التي بين جنبيه.

فمن ملك نفسه، وصرفها حيث أوجب الشرع، من إقدامٍ وإحجام، واجتناب وارتكاب، وإقبال وإدبار، فهذا هو الشجاع.

وليس الشجاع من كان مصرّاً على ضعفه وحاله، مرتكباً لهواه وضلاله، لجوجاً فيما أراد ورام، صبوراً على التعب والنصب والآلام، فإن هذه من أخلاق الجاهلية الأولى. وهذا ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢٧٢ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ليس الشديد بالصَّرْعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" [١].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كرم المرء تقواه، ودينه حسبه، ومروءته خُلُقُه، والجرأة والجبن غرائز، يضعها الله حيث يشاء، فالجبان يفرُّ عن أمِّه وأبيه، والجريء يقاتل عمن لا يُبالي أن لا يؤوب إلى رحله، والقتل حتفٌ من الحتوف، والشهيد من احتسب نفسه.

وقال الشاعر حول هذا المعنى:

يَفِرُّ جَبانُ القَومِ عَنْ أُم نَفْسِهِ وَيَحمي شُجاعُ القَومِ مَنْ لايُناسِبُ واعلم أن الإقدام لا يقدم أجلاً، وأنّ الجبن لا يُطيل عمراً، ولا يبلغ أملاً، وهو سبب لفوات ما يرام، وإعانة للأعداء والأخصام، ومزلة للأقدام في مداحض الحمام.

ولهذا قال العرب: الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة، وهو شرُّ خصال الرجل.

٢٧٣ - روى أبو داود وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "شَرُّ ما في الرجل: شُحٌّ هالع، وَجبن خالع " [٢].

---

[١] رواه البخاري في الأدب: ٧/١٩. ومسلم في البر والصلة: ٤/٢٠١٤.
[٢] رواه أبو داود في الجهاد: ٣/ ٢٦. وموارد الظمآن ص:٢٠٧، والحديث صحيح.

ومعنى: جبن خالِع: جبن يخلع قلب الجبان، لشدة تمكُنه منه، واستيلائه عليه وتحكمه فيه.

والجبن يرجع في الحقيقة إلى شكٍّ في القدر، وسوء ظن بالله.

قال أحد الحكماء في وصيته: عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهل حسن الظن بالله!

وهذا لا شك فيه، فمن أيقن أنَّ الأجل لا يزيد ولا ينقص، لم يجبن ولم يخف ولم يفر من الميدان.

قال تعالى:(فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) [النحل: ٦١].

وهذا ما أوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم:

٢٧٤ - روى الترمذيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبيِّ صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: "يا غلام: إني أعلمُك كلمات: احفظ اللهَ يحفظك، احفظ اللهَ تجدهُ تجاهَك، إذا سألتَ فأسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنِ بالله، واعلم أن الأمةَ لو اجتمعت على أن ينفعوكَ بشيء، لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه اللهُ لك، وإن اجتمعوا على أن يضروكَ بشيء لم يضروكَ الاّ بشيء قد كتبه اللهُ عليك، رفعت الأقلام، وجَفَّت الصحف " [1].

فصل

في شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان أشجع الناس وأقواهم قلباً، وأثبتهم جَناناً سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد حضر صلى الله عليه وسلم المواقف الصعبة المشهورة، وفرّ الأبطال عنه غير مرة، وبقي هو مكانه ثابتاً لم يتراجع، ومُقبلاً لا يدبرُ ولا يتزحزح. لم يفرّ قَط، وحاشاه من ذلك ثم حاشاه.صلى الله عليه وسلم.

[1] رواه الترمذي في صفة القيامة: ٤/ ٦٦٧، والحديث صحيح.

٢٧٥ - روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس! ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فأنطلق ناسٌ قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ، وفي عنقه السيف، وهو يقول: " لم ترُاعوا.. لم تُراعوا" [١].

وفي لفظ آخر عند البخاري: قال أنس رضي الله عنه: فَزِعَ الناسُ، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً لأبي طلحة قطفاً [وهو ما كان متقارب الخطو في سرعة] ثم خرج وركض وحده، فركب الناس يركضون خلفه.

فقال: "لم تُراعوا. وقال عن الفَرَس: إنه لبَحَر".

٢٧٦ - وروى مسلم عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا إذا اشتدّ البأس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه!

ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذُ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً"[٢].

٢٧٧ - روى البخاري ومسلم عن أبي إسحاق السبيعي قال: سأل رجل البراء بن عازب رضي الله عنه: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال البراء: لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر. وكانت هوازن يومئذ رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكفوا، فأقبلنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام.

ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول: "أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابنُ عبد المطلب!" [٣].

٢٧٨ - وروى مسلم عن العباس رضي الله عنه أنه قال عن شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين: فلما التقى المسلمون والكفار، ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركضُ بغلته نحو

---

[١] رواه البخاري في الجهاد: ٣/٢٢٨.ومسلم في الفضائل: ٤/١٨٠٣.
[٢] رواه مسلم في الجهاد: ٣/ ١٤٠١.
[٣] رواه البخاري في المغازي: ٥/ ٩٩. ومسلم في الجهاد: ٣/١٤١.

الكفار، وأنا اَخذٌ بلجامها أكفُها، إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركابه، ثم قال: يا عباس: نـــادِ أصحاب السُّمُرَة "[1].

وثبت صلى الله عليه وسلم يوم أحد. وركب أبيٌّ بن خلف فرسه، وتوجه للنبي صلى الله عليه وســـلم ليقتلــه، واعترضه رجال من المسلمين، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلوا عنه.

وتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة، وطعن أبيَّ بن خلفِ في عنقه طعنةً أسقطه بها عن ظهر فرسه.

فرجع أبيُّ بن خلف إلى قريش، هو خائف مذعور، وهو يقول: َقتلَني محمد. فقال، له قومه: لا بأس بك، ولا نرى فيك شيئاً.

قال: لقد قال لي: أنا أقتلُك! وهو صادق! والله لو بَصَق عَلَي لقَتَلَني !

ومات أبيُّ بن خَلَفٍ في الطريق أثناء عودةِ قريش من أحدِ إلى مكة.

وشجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أشهر من أن تُذْكر. ومن أراد الوقوف على تفاصيل شجاعته فلينظـــر في سيرته ومغازيه.

وحسبك من شجاعته صلى الله عليه وسلم ثبات قلبه، وسكون جأشه، وطلاقة لسانه، ليلة الإسراء، في ذلـــك الموقف الجليل بين يدي الرب العظيم.

فـــصل

في أشهر الشجعان من هذه الأمة

---

[1] رواه مسلم في الجهاد: ٣/١٣٩٨.

الشجعان في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لا يحصون عدة، ولا يحاط بهم كثرة. ومن أشجعهم الصحابة الكرام رضوان الله عليهمِ، الذين مدحهم الله في القرآن بقوله تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) [الفتح: ٢٩].

ومن أشهر الشجعان في هذه الأمة:

١ - أبو بكر الصديق رضي الله عنه: خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفضل الخلقِ بعده.

وقد شهد له علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه من أشجع الناس:

قال علي بن أبي طالب يوماً وهو أمير للمؤمنين: من أشجع الناس؟

قالوا: أنت يا أمير المؤمنين.

قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه! ولكن أشجع الناس أبو بكر.

لما كان يوم بدر، جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً. وقلنا: من يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم، لئلا يصل إليه أحد من المشركين؟

فوالله ما دنا منه أحد إلاّ أبو بكر، شاهرَ السيف على رأسِ رسول الله صلى الله عليه وسلم حراسة له.

واجتمع المشركون في مكة على رسول الله !، هذا يجرُه، وهذا يتلتلِه، وهم يقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟

فو الله ما دَنا منّا أحد إليه إلا أبو بكر، حيث أقبل يضرب هذا، ويجأ هذا، ويتلتلُ هذا، وهو يقول: ويلكم: أتقتلون رجلاَ أن يقول ربي الله؟!

ثم قال علي: نشدتكم بالله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟

فسكت القوم.

فقال: ألا تجيبون؟ والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمنِ آل فرعون! مؤمنُ آل فرعون رجل كتم إيمانه، وأبو بكر رجلٌ أعلن إيمانه!!

إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو أشجعُ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان أثبت المسلمين قلباَ، وأقواهم جناناً.

وحسبك من ذلك ثبات قلبه يوم بدر، وهو يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله: كفاك مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك! وثبات قلبه يوم أحد. ويوم الخندق. ويوم الحديبية. ويوم حنين.

ولو لم يكن من شجاعته إلاّ ثبات قلبه وتثبيته المسلمين عند الخطب الأعظم والأمر الأفخم، وهو موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث زاغت قلوبُ كثيرٍ من الناس، وزلزلوا بموته زلزالاً شديداً، وأقعد آخرون، وشك آخرون؛ لكفانا ذلك دليلاَ على عظيم شجاعته، وقوة قلبه، إذ كان قلبه - في تلك النازلة العظمى التي اهتزت لها الدنيا بأجمعها - لو وزن بقلوب الأمة لرجحها.

وكان عزمه على قتال المرتدين بعد استخلافه لو فُرّقَ على قلوب الجبناء من أهل الأرض لشجعهم، فقاتل المرتدين، وأعادهم إلى الدين. فتلك لعمر الله هي الشجاعة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمة التي تنازلت لها أعالي الهمم.

٢ - سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ومن شجاعة عمر رضي الله عنه أن الشيطان كان يبتعد عن طريقه!

٢٧٩ - روى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر:" يا ابن الخطاب: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلاّ سلك فجاً غير فجِّك "[1].

---

[1] رواه البخاري في مناقب الصحابة: ٤/ ٩٩ ١. ومسلم في فضائل الصحابة: ٤/ ١٨٦٤.

ولما أسلم عمر أعزَ الله به الإسلام والمسلمين:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة وصلَينا معه.

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: ما زلنا أعزةَ منذ أسلم عمر..

والأمثلة على شجاعة عمر رضي الله عنه كثيرة.

٣ - سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

هو الليث المِحصار، والغيثُ المدرار، ومفرقُ كتائبِ المشركين، والآتي من أنواع الشجاعة بما أوجبَ تحيرَ المعجَبين.

ولم يتخلَف علي عن مشهدِ من المشاهد مع رسول الله صلى الله عيه وسلم، إلاّ يوم تبوك.

٢٨٠ - روى مسلم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف علياً يوم تبوك على المدينة، وقال له: "أنت مني بمنزلةِ هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبيَّ بعدي" [١].

٢٨١ - روى البخاري عن سهل بن سعد، ومسلمٌ عن سلمة بن الاكوع: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: "لأعطين الرايةَ رجلاً يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبه اللهُ ورسوله، ليسَ بفرّار، ويفتح اللهُ على يديه.. ثم دعا بعليّ - وهو أرمد - فتَفَلَ في عينِه فبرأ. وأعطاهُ الراية، ففتحَ اللهُ على يديه، [٢].

قال أبو رافع - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن شجاعة علي يوم خيبر: خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته، فلما دنَا من الحصن، خرج إليه مَنْ فيه من اليهود، فقاتلهم علي، فضربهَ رجلى من يهود، فطرح ترُسه من يده..

---

[١] رواه مسلم في فضائل الصحابة: ٤/ ١٨٧٠.
[٢] رواه البخاري في الجهاد: ٤/ ٥. ومسلم في فضائل الصحابة: ٤/ ١٨٧٢.

فتناول علي باب الحصن، فتَرَسَّ به عن نفسه، ولم يزل يقاتل وهو في يده، حتى فتحَ الله عليه، ثم ألقاه من يده!

ولقد رأيتني في نفرٍ سبعةٍ نحاول أن نقلب ذلك الباب، الذي تترَس به علي!!

وروى مصب الزبيري: أن علياً كان حذراً في الحرب، شديد الروغان من خصمه، وإذا حمل عليه يحفظ جوانبه جميعاً، واذا رجع من حملته عليه يكون أشدّ تحفُظاً منه، ولا يكاد أحد يتمكّن منه!

وكان درعه صدراً لا ظهر لها!!

فقيل له: ألا تخاف أن تُؤتى من قبل ظهرك؟

فقال: إن أمكنت عدوّي من ظهري، فلا أبقى الله عدوي إن هو أبقى عَلَيَّ!!

٤ - طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

هوأحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو من شجعان هذه الأمة وأبطالها، وأعيان فرسانها ورجالها.

ومن الأمثلة على شجاعته الفائقة يوم أحد، حيث حمى النبي صلى الله عليه وسلم، وأُصيب بأكثر من سبعين ضربة.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يومٌ كان كلُه لطلحة. كنت أول من رجع، فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت: كن طلحة بن عبيد الله. فإذا أنا بطلحة وفيه بضع وسبعون بين طعنةٍ ورمية وضربة، وإذا يدُه قد قطعت. فأصلحنا من شأنه.

وكان إذا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينظر إلى المشركين يوم أحد، يقول له طلحة: يا نبي الله: بأبي أنت وأمي، لا تشرُفِ، لئلا يصيبك سهم من سهام القوم، نَحْري دونَ نَحرِكَ يا رسول الله!

وقال قيس بن أبي حازم: رأيت يد طلحة شلاّء، وقى بها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد!!

٥ - الزبير بن العوام رضي الله عنه:

هو الليث الهمام والبطل المقدام، أحد العشرة المبشَرين بالجنة.

وهو أوّل من سل سيفاً في الإسلام.

كان ذلك في أول أيام الإسلام في مكة، وقد أُشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختُطف، فسمع الزبير بذلك، فحمل سيفه، وخرج يبحث عنه، وقابل النبيَّ صلى الله عليه وسلم في أعلى مكة.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مالك يا زبير؟"

قال: أُخبرت أنك أخذت واختطفت. فخرجت لأقاتلهم!

فدعا له رسول الله !.

وكان الزبير شجاعاً مقداماً في المعارك:

٢٨٢ - روى البخاري عن الزبير رضي الله عنه قال: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص، وهو مدججٌ لا يرى منه إلاّ عيناه، وكان يكنى أبا ذات الكرش. فقال: أنا أبو ذات الكرش!

قال الزبير: فحملت عليه بالعنزة، فطعنته في عينه، فمات [1].

٢٨٣ - وروى البخاري عن عروة بن الزبير رضي الله عنه: أن الزبير اشترك في معركة اليرموك. فقال له أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ألا تَشدُّ فنشُدُ معك!

[1] أخرجه البخاري في المغازي: ٥/ ١٤

فحمل الزبير عليهم، فضربوه ضربتين على عاتقه، بينهما ضربة ضُرِبَها يوم بدر!

قال عروة: فكنت أُدخلُ أصابعي، في تلك الضربات، ألْعَبُ بها وأنا صغير" [١].

وقال عروة عن أبيه: كان الزبير طويلاً، إذا ركب تَخُط رجلاه الأرض، وكان كثير الشعر، وربها أخذتُ بشعر كتفيه وأنا غلام !

وقتله المجرم عمرو بن جرموز في وقعة الجمل، وجاء بسيفه إلى علي بن أبي طالب. فلما رأى علي سيفه قال: إن هذا السيف طالما فرجَ الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنكر على ابن جرموز قتله للزبير!

٦ - سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو فارس الإسلام، وأول من رمى بسهم في سبيل الله.

كان سعا أشد الناس بأساً يوم أحد، حتى لقد جمع له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جَمَعَ أبوَيه إلاّ لسعد، فإني سمعتُه يقول لسعد يوم أحُد: "أرْمِ سعدُ فِداكَ أبي وأمي ".

وقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "اللهم سَدِّد رَميته وأجب دعوتَه ". فكان كذلك!

وكان أحد الفرسان الشجعان الذين يحرسون الرسول صلى الله عليه وسلم في مغازيه.

وقد أمَرَهُ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال فارس، فكان بطل معركة القادسية، ودخل المدائن عاصمة الفرس، وفتح معظم بلاد فارس، وهو الذي أنشأ مدينتي البصرة والكوفة. وقال الزهري: لما احتضر سعد

---

[١] أخرجه البخاري في فضائل الصحابة: ٤/ ٢١١.

وحضرته الوفاة ، دعا بجُبةِ صوف خلقة، و قال: كَفِّنوني فيها، فإني لقيت المشركين فيها يوم بدر، وإنما خبأَها لهـذا اليوم!

٧ - أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه:

اسمه عامر بن عبد الله بن الجراح، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو أمين هذه الأمة.

شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويوم أحد نزع الحَلَقَتَيْنِ اللتين دخلَتا في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المِغفَرِ الـذي كـان يلبسـه، فسقطت ثنيّتاه الأماميتان، فحسَّنتا فمه.

قيل: ما رؤي فمٌ قطُّ أحسن من فم أبي عبيدة.

وكان يقال: داهيتا قريش هما: أبو بكر وأبو عبيدة.

ولاّهُ عمرُ رضي الله عنه فتح الشام. وكان قائد المسلمين في معركة اليرموك، وتوفي رضي الله عنـه في طـاعون عمواس في الشام.

٨ - حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه: وهو أسد الله وأسد رسوله. ذو الشجاعة المذكورة، والبسالة المعروفة المشهورة.

بلى في معركة بدر بلاء حسناً، وقتل الكثير من المشركين فيها. ولما وقع أمية بن خلف في الأسر يوم بدر، قـال لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

من الرجل منكم المعتَم بريشةِ نعام في صدره؟ قال: ذاك حمزة بن عبد المطلب. قال أمية: ذاك الذي فعـل بنـا الأفاعيل!

وأبلى في معركة أحد بلاءً حسناً، وقاتل المشركين بشجاعة.

وكانت هندٌ بنت عتبة زوجة أبي سفيان قد اتفقت مع وَحْشِيٍّ العبدِ في مكة أن يقتل حمزة بحربته في أحد، فــإن فعل فهو حر!

شاهد وحشيٌّ حمزة يصول ويجول في أحُد يقاتلُ المشركين، فضربه بحربته، فقتله،

ثم بقرَ بطنه، وقذَمَ كبده لهند بنت عتبة. فلاكتها ثم لفظتها.

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة قتيلاً وقد مثل به حزنَ وبكى، وتأثَرَ بذلك تأثُراَ كبيراً.

٩ - جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

وكان أكبر من أخيه عليّ بعشر سنوات، وقد استشهد يوم مؤتة.

واستلم الراية يوم مؤتة بعد استشهاد زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقاتل الروم، وقد أخذ الراية بيمينه فقطعت، ثم أخذها بشماله فقطعت، فاحتضن الراية، وقتل وهو مقبلٌ غيرُ مدبر.

ووجدوا فيما أقبل من جسده بضعاً وتسعين بين ضربة ورمية وطعنة.

١٠ - معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه:

كان بطلاَ شجاعاً جلداً.

وهو الذي قتل أبا جهل يوم بدر. قال: جعلت أبا جهل يوم بدر من شأني، فلما أمكنني حملتُ عليه، فضــربته، فقطعت قدمه بنصف ساقه. فضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فقطع يدي، وبقيت معلقةً بجلدة بجنبي، وأجهضَتْني عن القتال، وقاتلتُ عافَة يومي، وإنّي لأسحَبُها خلفي! فلما آذتني وضعتُ قدمي عليها، ثم تمطَّأت عليها حتى طرحتُها!!

١١ - البراء بن مالك رضي الله عنه:

هو أخو أنس بن مالك رضي الله عنه.

وهو أحدُ الأبطال الأفراد، الذين يضرب بهم المثل في الفروسية والشدَّة.

وقد قتل مائة من الكفار بسيفه مبارزةً وحده، سوى من اشترك مع غيره في قتلهم.

وفي معركة اليمامة حاصر المسلمون جيش مسيلمة داخل الحديقة، ولها سورٌ منيع، ولم يتمكن المسلمون من اقتحام السور.

فطلب البراء بن مالك من المسلمين أن يرفعوه برماحهم، وأن يلقوه عليهم، فألقوه عليهم! واشتبك مع المدافعين خلف السور، وفتح للمسلمين الباب، فدخل عليه المسلمون وقد قتل مجموعة منهم، ووجدوا فيه بضعاً وثمانين جرحاً ما بين رميةٍ وطعنة. فعالجوه حتى برىء.

واشترك البراء في فتوحات بلاد فارس.

وفي معركة تستر العنيفة الشديدة، أبلى فيها البراء بلاءً عظيماً، وكان البراء مجاب الدعوة. فطلب المسلمون منه أن يدعو الله لهم بالنصر.

فدعا الله قائلاً: اللهم اكتب للمسلمين النصر، وارزقني الشهادة في سبيلك.

فنصر الله المسلمين. ولقي البراء وجه الله شهيداً.

١٢ - سماكُ بن خَرَشَة رضي الله عنه:

هو أبو دجانة، الشجاع المشهور.

وله موقفٌ عظيمٌ يوم أحد.

فقد أمسك النبيُّ صلى الله عليه وسلم السيف يوم أحد، وقال : من يأخذ هذا السيف بحقّه؟

فقام إليه رجالٌ ليأخذوه، فأمسكه عنهم.

فقال أبو دجانة: وما حقُه يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وسلم: أن يُضربَ به في وجهِ العدوِّ حتى ينحني!

قال: أنا آخذه يا رسول الله.

فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه، وكان رجلاً شجاعاً، يختال عند الحرب.

قالى الزبير بن العوام رضي الله عنه: وجدت في نفسي شيئاً، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم منعني السيف، وأعطاه أبا دجانة.

فقلت: والله لأنظرن ما يصنع أبو دجانة؟

فاتبعتُه. فأخذ عصابةً له حمراء، فعصب بها رأسه.

ولما رآه الأنصار قالوا: أخرج أبو دجانة عصابة الموت!

وهجم على المشركين، وصار لا يلقى أحداً إلاّ قتله!

وفي معركة اليمامة ضدَّ مسيلمة الكذاب، رمى أبو دجانة بنفسه إلى داخل الحديقة، فانكسرت رجله، فقاتل وهو مكسور الرجل، حتى لقي وجه الله شهيداً.

١٣ - أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه:

هو زيد بن سهل الأنصاري رضي الله عنه.

وكان يجثو على ركبتيه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينثر كنانته، ويقول: وجهي لوجهك الوقـاء، ونفسي لنفسك الفداء!

وقد قتل يوم حنين عشرين مشركاً وأخذ أسلابهم!

١٤ - خالد بن الوليد رضي الله عنه:

هو سيف الله المسلول، ورأس الشجعان الأبطال في الجاهلية والإسلام. باشر حروبـاً كـثيرة، وشـهد وقـائع مشهورة.

منذ أن أسلم والرسول صلى الله عليه وسلم يوئيه أعنّة الخيل.

وأمَّرَهُ أبو بكر الصديق رضي الله عنه على قتال المرتدين. وله الآثار المشهورة في قتال الفرس والروم.

قال قيس بن أبي حازم: قيل لخالد: أحذر الأعاجم لا يسمّونك بالسّمّ.

فأتي بسُمّ، فقيل: ما هذا؟

قالوا: هذا سُم.

قال: بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء. وشربه! فلم يضرَّه!!

ولما حضرته الوفاة قال: لقد شهدت أكثر من مائة زحف، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير! فلا نامت أعين الجبناء.

ومات على فراشه، وهو ابن ستين سنة، وما في جسمه موضع إلا وفيه ضربة أو طعنةٌ أو رمية. وعليه آثار الشهداء!

١٥ - سلمةُ بن الاكوع رضي الله عنه:

وهو أحد رماة المسلمين وشجعانهم.

ومرَّ معنا طرف من شجاعته، عندما لحق بالمشركين الذين أغاروا على سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلَّصَ منهم السرح والإبل والخيل، وذلك في غزوة ذي قَرَد.

وقد أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال: "خيرُ رجالنا اليوم سلمةُ بن الاكوع ".

١٦ - هشام بن العاص رضي الله عنه:

هو أخو عمرو بن العاص. وكان فارساً شجاعاً مذكوراً.

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: شهدت أنا وأخي هشامٌ اليرموك. فباتَ وبت يدعو الله أن يرزقنا الشهادة، فلما أصبحنا، رزقها وحُرمتها.

وقيل: إنَّ هشام بن العاص كان يحمل على الروم يوم اليرموك، فيقْتلُ النفر منهم في حملته، إلى أن قُتِل، ووطئته الخيل، فجمع أخوه عمروٌ لحمَه فواراه.

ولما بلغ عمر بن الخطاب مقتله قال: رحمه الله، فنعم العون كان للإسلام!

١٧ - عكاشة بن محصن رضي الله عنه:

كان من شجعان الصحابة. وفي غزوة الغابة أدرك عمرو بن أبار وأباه، وهما على بعيرٍ واحد، فانتظمهما بـــالرمح فقتلهما جميعاً. واستنقذ بعض اللّقاح التي أخذاها.

١٨ - خَوّاتُ بن جبير الأنصاري رضي الله عنه:

شهد معركة أحُد وأبلى فيها بلاءً حسناً، وكان أخوه عبد الله بن جبير أمير الرماة على الجبل، ولقي الله شهيداً.

قال خَوّاتُ بن جبير: فعلتُ ثلاثة لم يفعلهن أحد قط: ضحكْتُ في موضعٍ لم يَضحك فيه أحدٌ قـــط، وبخلْـــتُ في موضع لم يَبخلْ فيه أحدٌ قط، ونمتُ في موضعٍ لم ينَمْ فيه أحدٌ قط:

انتهيتُ يوم أحُد إلى أخي وهو مقتول، وقد شُق بطنه، وخرجت حشوته. فاستعنت بصاحب لي عليه، فحملنـــاه وخيلُ المشركين حوالينا، وأدخلت حشوته في جوفه، وشددت بطنه بعمامتي، وحملته بيني وبين الرجـــل، فســـمعت صوت حشوته رجَّت في بطنه، ففزعَ صاحبي، فطرحتُه، وضحكت!

ثم مشينا، فحفرتُ له بسيةِ قوسي، وكان عليها الوتر، وبخلتُ به أن ينقطع فحفرت له فدفنته، ومضيت. وذلك بخلي!

ولما مضيتُ إذا أنا بفارس، قد سدَّدَ الرمح نحوي يريد أن يقتلني، فوقع عليَّ النعاس، فنمت في موضعِ ما نام فيـــه أحدٌ قط !

١٩ - عمرو بن معد يكرب رضي اللّه عنه:

هو الليث الصنديد والبطل الشديد. كان فارساً ضخماً عظيماً.

وآثاره في حرب الفرس معروفة.

وقد حمل يوم القادسية على قادة الفرس، وقتل منهم كثرِين.

وشهد صفين مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو ابن مائةٍ وخمسين سنة.

٢٠ - عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه:

كان من رؤوس الشجعان في الجاهلية، ثم أسلم وحسن إسلامه.

نزل اليرموك وقاتل فيها قتالاً شديداً. وقال له المسلمون: ارفق بنفسك!

فقال عكرمة: قد كنت أجاهد بنفسي عن اللاّت والعُزى، فلا أرفق بنفسي ولا أستبقيها! أفلا أبذل نفسي لله ورسوله؟

ثم قال مخاطباً الروم: قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل موطن، أفأفرُّ منكم اليوم؟ والله إن هذا لن يكون!

ثم قال: من يبايعني على الموت؟

فبايعه على الموت الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من شجعان المسلمين!

ولقي عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه وجه الله شهيداً. ووجدوا في جسمه بضعاً وسبعين، ما بين ضربةٍ ورمية وطعنة!

٢١ - طليحة بن خويلد الأسدي رضي الله عنه:

هو البطل العظيم والشجاع المشهور. وكان يُعَدُّ بألفِ فارسٍ لشجاعته وقوته.

وقد شهد القادسية، وأبلى فيها بلاءً عظيماً.

وقد وجه عمرُ بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رجلين هما: عمرو بن معد يكرب، وطليحةُ بن خويلد. وقال له: قد وجهتُ إليك، وأمددتك بألفي رجل: عمرو بن معد يكرب، وطليحة بن خويلد! فشاورهما في الحرب ولا تولِّهما..

وكان لطليحة بن خويلد موقفٌ مشهودٌ عظيم قبيل معركة القادسية:

خرج طليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب، وقيس بن المكشوح، ليستطلعوا معسكر الفرس.

أما قيسٌ وعمروٌ فقد أتى كلٌّ منهما ببعض الفرس ليأخذ المسلمون منهم المعلومات عن الفرس.

وأما طليحة فقد مضى حتى دخل معسكر رستم، وكمن فيه حتى أقبل الليل، فسار حتى أتى خيمة قائد المعسكر وسط خيام الجيش العديدة، فإذا فرسٌ أصيلة قيمةٌ مربوطةٌ أمام خيمةِ القائد، فقطع حبل الفرس، وضمَّه إلى مقود فرسه، وخرج يعدو باتجاه المسلمين.

وأحسَّ الفرسُ بالأمر فلحقوا به.

لحق به فارس منهم فطعنه طليحة وقتله، واستاق فرسه. فلحق به فارسٌ آخر فقتله واستاق فرسه. فلحق به فارسٌ ثالث، فكرَّ عليه وهزمه ودعاه إلى الأسار فاستأسر، فأخذه طليحة أسيراً، وجاءَ به إلى سعد بن أبي وقاص.

اجتمع قادة المسلمين ليسمعوا كلام القائد الفارسيِّ الأسير. وقال له سعد: تكلم.

فقال القائد الفارسي: لقد باشرت الحروب وغشيتها، وسمعت بالأبطال ولقيتها، وما رأيت، ولا سمعت بمثل هذا الرجل قط!

لقد اجتاز معسكرين لا يجترىء عليهما الأبطال، إلى عسكرٍ فيه سبعون ألفاً، ولم يرض أن يخرج حتى أخذ فرس قائد الجند..

ولحقنا به وطلبناه، فأدركه الفارس الأول، وهو فارس الناس، ويعدلُ عندنا بألف فارس، فقتله. وأدركه الفارس الثاني، وهو نظير الأول في الشجاعة فقتله!!

ثم أدركتُه، ولا أظن أن في جيش الفرس من يعدلني ويساويني في الشجاعة، فرأيت الموت على يديه، وآثرت أن أستأسر!

وأخبر القائد الفارسيُّ أنَّ عدد الجيش الفارسي مائةٌ وعشرون ألفاً، ومعهم مثل هذا العدد من الأعوان والخدم.

وأسلم القائد الفارسي، وأبلى مع المسلمين بلاءَ حسناً.

٢٢ - عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:

هو الشجاع ابن الشجاع، والبطل ابن البطل، كان رأساً في الشجاعة، ورأساً في العبادة، اشترك في الفتوحات الإسلامية في مصر وأفريقية، وهو الذي قتل جرجير ملك أفريقية. وبعد وفاة يزيد بن معاوية في دمشق طلب ابن الزبير الخلافة، وكان في مكة، وخضعت له معظم البلاد الإسلامية، ولكنَّ مروان بن الحكم بويع خليفةً في دمشق من قبل بني أمية، وصار ملكُه يتوسَّع. وفي عهد ابنه عبد الملك بن مروان جهَّز جيشاً لحرب ابن الزبير، بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي.

وحاصر الحجاج ابن الزبير في مكة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وتغلَّب على بن الزبير وقتله.

قال عمرو بن دينار المكي: كان يصلّي ابن الزبير بجانب الكعبة، وكان جيشُ الحجاج يضربُ الكعبة بالمنجنيق، وكانت الحجارة تصيب طرفَ ثوبه، فلا يتأثرُ ولا يلتفت. وقال عثمان ابن أبي طلحة: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاث: في شجاعة، وفي عبادة، وفي بلاغة.

٢٣ - عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه:

هذا ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد ثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم حُنين. واستشُهد في معركة أجنادين في فلسطين. وكان عمرُه في معركة أجنادين ثلاثين سنة.

برز قائد من قادة الروم في معركة أجنادين يطلب المبارزة، فبرز له عبد الله بن الزبير ابن عبد المطلب، وبارزه وقتله. ثم خرج قائدا آخر يبارز ابن الزبير، فقتله، ثم خرج قائد ثالث، فقتله، ثم اخترق صفوف الروم، ولقي الله شهيداً. وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وهزيمة الروم. ووجد المسلمون عبد الله بن الزبير رضي الله عنه مقتولاً وسط عشرةٍ من الروم، قتلهم قبل أن يُقتل، وسيفُه في يده، وفي وجهه حوالي ثلاثين ضربة.

٢٤ - عبد الله بن حنظلة رضي الله عنه:

أبوه هو حنظلة الغسيل، ولُقب بذلك لأنه غسلته الملائكة بعد استشهاده، وكان قد سمع النداء بالخروج إلى أحُد وهو جُنب، فخرج قبلَ أن يغتسل، وقاتل المشركين حتى لقيَ الله شهيداً، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الملائكة غسلَتة.

وكان ابنه عبد الله هذا من شجعان المسلمين وأبطالهم وعبادهم.

واستشهد في وقعة الحَرَّة التي كانت بين أهل المدينة، وبين جيش يزيد بن معاوية.

٢٥ - الضحاك بن سفيان بن عوف رضي الله عنه:

كان من الأبطال الشجعان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان يقوم على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم متوشحاً سيفه يحرسه. وكان يُعدُّ بمائة فارس.

ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة أمَرَهُ على بني سليم.

٢٦ - ضرار بن الأزور رضي الله عنه:

شهد ضرارُ بن الأزور رضي الله عنه معركة اليمامة، وأبلى فيها بلاءً عظيماً. وقيل إنه استشهد في اليمامة.

وقيل: بل حضر فتوح الشام، وشهد فتح دمشق، وشارك في معركة اليرموك، وله فيها أخبار عجيبة.

٢٧ - ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري رضي الله عنه:

كان من مسلمة الفتح، حيث أسلم يوم فتح مكة.

وحارب ضدّ المسلمين في غزوة أحُد، وقتل عدداً منهم.

قال ضرارُ بن الخطاب لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما يوماً: نحن كنّا لقريش خيراً منكم. أدخلناهم الجنة، وأدخلتموهم النار!

يعني أنني قتلت المسلمين فأدخلتهم الجنة، وأنتم قتلتم المشركين فأدخلتموهم النار. وقال للأنصار مداعباً لهم: لقد زوّجتُ أحدَ عشر رجلاً منكم يوم أُحُد من الحور العين !!.

٢٨ - جُلَيبيب الأنصاري رضي الله عنه:

جُليبيب من شجعان الأنصار.

وقد شارك في غزوةٍ مع رسول الله، وأبلى فيها بلاءً عظيماً، ولقي الله فيها شهيداً. وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "هل تفقدون من أحد؟"

قالوا: لا.

قال: "لكني أفقدُ جُلَيبيباً، فاطلبوه".

فبحثوا عن جليبيب، فوجدوه قتيلاً إلى جانب سبعةٍ من المشركين!

فقال صلى الله عليه وسلم:" قَتلَ سبعة ثمِ قتلوه؟ هذا مني وأنا منه". وَوَضَعَه على ساعديه، حتى حَفَروا له قـــبراً ودَفَنوه، ولم يُغسِّلوه.

٢٩ - عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه:

كان بطلاَ شجاعاً، ومجاهداً عظيم العقل.

وهو فاتحُ أفريقية، ناشر الإسلام فيها، وغنم المسلمون من أفريقية غنائم عديدة.

وهو قائد المسلمين في معركة ذات الصواري، أول معركة بحرية يخوضها المسلمون ضدّ الروم.

وجعله عثمان بن عفان والياً على مصر، وأقام عليها عدة سنين.

ولما وقعت فتنة عثمان رضي الله عنه، اعتزل عبد الله بن سعد الفتنة، وترك الحكم والولاية، وأقام في مدينة الرملة في فلسطين. حتى توفي فيها.

وقد سأل الله أن يجعل خاتمته في الصلاة. ولما صلى الصبح سلَّم التسليمة الأولى، ولكنه تـــوفي قبـــل أن يُســـلم التسليمة الثانية.

٣٠ - القعقاع بن عمرو التميمي:

كان من شجعان المسلمين وأبطالهم. وله مشاركة كبيرةٌ في فتوحات فارس، وبطولاته في معركة القادسية معروفة.

وقال عنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه: صوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل. وكان له جهود عظيمة في التخلص من فيلة الفرس في معركة القادسية، هو وأخوه عاصم بن عمرو.

واعتزل الفتنة في عهد عثمان وعليّ رضي الله عنهما.

٣١ - حكيم بن جبلة العبدي:

كان متدَيناً شجاعاً مطاعاً.

ولم يدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فليس له صحبة.

وبعثه عثمان بن عفان إلى فتح السند. وأبلى فيها بلاءً عظيماً.

٣٢ - سُويد بن غَفَلَة الجعفي:

كانت ولادة سُوَيد بن غَفَلَة عام الفيل، وأدرك الجاهلية كبيراً، وأسلم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه لا يُعَدُّ في الصحابة، لأنه لم يرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم.

وشهد معركة القادسية، وأبلى فيها بلاءً عظيماً.

وتزوج بكراً وهو ابن مائةٍ وعشرين سنة.

٣٣ - يزيد بن معاوية بن أبي سفيان:

على ما كان فيه، فإنه كان شجاعاً معروفاً.

٣٤ - عبدُ الله البطال:

أبو محمد البطال: أحد أبطال التابعين وكان يضربُ بشجاعته المثل، وله المواقف المشهودة في حرب الروم.

٣٥ - أبو الغادية:

أحدُ شجعان المسلمين زمن معاوية رضي الله عنه.

٣٦ - ابن الجزري:

بطلٌ من أبطال المسلمين في خلافة هارون الرشيد. وله جهودٌ في قتال الروم زمن الرشيد. ٣٧ - موسى بن نصير:

الإمام الكبير، فاتح الأندلس، وهازم الفرنج.

٣٨ - المهلب بن أبي صفرة.

كان بطلاً شجاعاً داهية، ووقائعُه في الحرب والجهاد معروفة.

٣٩ - أبو الوليد ابن فتحون:

كان بطلاً مغواراً من أبطال المسلمين بالأندلس، وهو خال والدةِ أبي بكر الطرطوشي مؤلف كتاب سراج الملوك.

٤٠ - المعتصم ابن الرشيد: أمير المؤمنين:

هو الخليفة العباسي بعد المأمون، وكان شجاعاً قوياً، وحاربَ ا لروم في عدة معارك، ومنها معركة عمورية المعروفة.

وكتب له ملك الروم يهددُه ويتوعده، فلم يَخَفْ من ذلك، وأمَرَ أن يكتبَ لملك الروم على قفا كتابه: الجوابُ ما تراه. لا ما تقرأه. وسيعلم الكفارُ لمن عقبى الدار!! وخرج بجيش كبير، وفعل بالروم الأفاعيل.

٤١ - الهادي أمير المؤمنين:

هو موسى الهادي أخو هارون الرشيد، وأميرُ المؤمنين قبله، وكان بطلاً شجاعاً.

٤٢ - الأمينُ أميرُ المؤمنين:

هو ابن هارون الرشيد، والخليفة بعده.

٤٣ - أحمد بن إسحاق السرْماري البخاري:

هو الإمام الزاهد المجاهد الفارس المشهور، شيخ البخاري، أحد شجعان العالم، المضروب بشجاعته المثل.

قال عنه البخاري: ما بلغنا أنه كان في الجاهلية ولا في الإسلام مثله.

قال إبراهيم بن شماس: كنت أكاتب أحمد بن إسحاق السرماري، فكتب إليَّ: إذا أردت الخروجَ إلى بلاد الغزو في شراء الأسرى، فاكتب إليّ، فكتبت إليه ليأتي معنا. فقدم إلى سمرقند، فخرجنا معاً، ولما علم حاكم سمرقند بنا استقبلنا في عدةٍ من جيشه، وأقمنا عنده إلى أن فرغنا من شراء الأسرى.

ودخل عليه أحدُ رجاله يوماً ونحن عنده، فعظمه وبجله، وسأل عنه أحمد السرماري، فقال: هذا رجل مبارز يُعَدُّ بألفِ رجل.

قال السرماري: أنا أُبارزُه.

وبارزه في الصباح، وقتله، ولحق به خمسون فارساً، فصرعهم واحداً واحداً، وقتلهم بعمودِ حديد كان يضعه في كُمه!

وكان وزن العمود حوالي ستةٍ وثلاثين رطلاً، فلما شاخ جعله أربعةً وعشرين رطلاً. وقال: لقد قتلتُ بسيفي هذا ألف تركي كافر، وإن عشت قتلت به ألفاً آخرين.

وتوفي سنة إحدى وأربعين ومائتين على فراشه. رحمه الله ورضي عنه.

خاتمة الكتاب

في مسائل وأحكام تتعلق بالجهاد

إعلم أن العلم كثير، وصور الوقائع لا تنحصر، ونوادر الأحكام لا ضابط لها، وكلٌّ فنٍّ له موضعٌ يليق به. ولكن البدايات لا يُعذر أحدٌ في جهلها، وأصول المسائل لا بد من معرفتها، ثم للفروع والنوادر إذا وقعت أماكن تنظـــر فيها، ومواطن يُعول في أحكامها عليها.

ويجب على المسلم أن يطلب العلم الضروري، وهو العلم الذي تتوقف صحة كل عمل على معرفته.

وسنقدم طائفةَ من المسائل والأحكام التي لا بد أن يتعلَّمها المجاهدون، وأن يعرفوها ويلاحظوها، ليكون جهادهم صائباً صحيحاً.

فـــصل

فيما لابد للمجاهد من معرفته من الأحكام

(١)

الجهاد بغير إذن الإمام أو نائبه مكروه،ولكنه ليس حراماً. وتُستثنى من الكراهة الحالات التالية:

الأولى: إذا استأذن الواحد أو الجماعة للجهاد فات المقصود، لأن الجهاد حالة قائمة ماســة لا تنتظـــر التـــأخير والاستئذان.

الثانية: إذا عطَل الإمام الجهاد وأقبل هو وجنوده على الدنيا، مما هو مشاهد في هذه الأعصار والأمصـــار. فـــلا كراهة في الجهاد بغير إذن الإمام، لأن الإمام معطل للجهاد، والمجاهدون يقومون بالفرض المعطل.

الثالثة: إذا كان من يريد الجهاد لا يقدر على الاستئذان، لأنه يعلم أنه لو استأذن لم يؤذن له [١].

وقال ابن قدامة: إن عدم الإمام لم يؤخر الجهاد، لأن مصلحة الجهاد تفوت بتأخيره [٢].

ويسن أن يبايع الأمير الجيش أو السرية على أن لا يفروا. كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية.

ويسن أن يبعث الأمير الطلائع، وأن يجمع الأخبار عن العدو، وأن يخرجوا يوم الخميس أول النهار - إن تيسَر ذلك - وأن يعقد الرايات، ويجعل كل فريق تحت راية، ويجعل لكلّ فريقٍ شعاراً، حتى لا يقتل بعضهم بعضاً، وأن يرهب العدو، وأن يستنصر بالضعفاء، وأن يدعو عند التقاء الصفين، وأن يحرض المجاهدين على القتال والصبر والثبات، وأن يؤخر القتال حتى تزول الشمس عند الظهر، وتهب الريح، ويترل النصر، وأن يكبرَ بلا إسرافٍ في رفع الصوت [٣].

وقال القرطبي: في تفسير قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ) [الأنفال: ٤٥].

وحكم هذا الذكر أن يكون خفياً، لأنَّ رفع الصوت في موضع القتال رديء، بل هو مكروه إذا صدر عن شخصٍ واحد. أما إذا كان عن جماعةٍ فهو حسن، لأنه يفت في عضد العدو.

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصوت عند القتال [٤].

(٢)

يجب أن توجه الدعوة إلى الإسلام إلى من لم تبلغهم الدعوة، ولا علم لهم بالإسلام، وأن تكون دعوتهم إلى الإسلام قبل الشروع بقتالهم.

---

[١] مغني المحتاج: ٤/٢٢٠.
[٢] المغني : ١٠ / ٣٧٤.
[٣] مغني المحتاج: ٤/٢٢٠.
[٤] تفسير القرطبي: ٨/ ٢٤.

أما إذا بلغتهم الدعوة من قبل فلا يجب تبليغهم الدعوة مرة ثانية قبل قتالهم فهذا حسن، فلعلّهم يسلمون وينقذون أنفسهم من القتل والنار. وإذا بدأ الأعداء بالهجوم والقتال، فيسقط تبليغ الدعوة لهم، لأن المطلوب هو الردُّ على هجومهم.

وظاهر السنةَ أن تبليغ الدعوة يسقط في حق السرية، وهي المجموعة من المجاهدين موجهة لهدف معين، كما حصل مع السرية الموجهة لقتل ابن أبي الحُقَيْق، وقتل كعب بن الأشرف، وغيرهما [١].

(٣)

تقبل الجزية من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ويقرّون على دينهم بعد دفعهم الجزية.

كما تقبل الجزية ممن لهم شبهة كتاب، وهم المجوس، ويعاملون معاملة اليهود والنصارى.

ولا تقبل الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس، وهم عبدة الأوثان والأصنام من العرب والعجم [٢].

ويجوز تبييت الأعداء، وهو كبسهم ليلاً، ولو كان فيهم نساءً وأطفالٌ ومسلمون، لأن هذاً من ضرورات الجهاد[٣].

وإذا غزا الأعداء بلاد المسلمين، ولم يخرج المسلمون لقتالهم، كان قعودهم عن الجهاد كفرارهم من الزحف وتوليتهم الأدبار. هذا إذا كانوا أكثر من الأعداء، أمّا إذا قلَّ المسلمون فلا يعصون، ولهم أن يتحصَّنوا بانتظار المدد من إخوانهم المسلمين [٤].

وإذا استنفر الإمام في فرض الكفاية رجلاً أو جماعة، صار الجهاد في حقهم فرض عين، لوجوب طاعة الإمام، وتنفيذ أمره [٥].

---

[١] مغني المحتاج: ٤/ ٢٢٣. والمغني: ١٥/ ٣٨٥. وبداية المجتهد: ١/٤٠٣.
[٢] حاشية ابن عابدين: ٤/ ١٩٨. والمغني: ١٠ / ٣٨٧. ومغني المحتاج: ٤/ ٢٤٤.
[٣] كشاف القناع: ٣/ ٤٧.
[٤] مغني المحتاج: ٤/٢١٩.
[٥] المغني: ١٠/ ٣٦٦.

وظلم الأمير لا يبيح ترك الجهاد. ويجوز أن يجاهد المجاهد مع القائد المعروف بشرب الخمر وارتكاب المعاصـــي، لأن فجوره على نفسه، وجهادُ الأعداء مطلوب [١].

(٤)

يحرم قتل المرأة والصبي إن لم يقاتلا. فإن قاتلا فلا شك في جواز قتلهم وقتالهم [٢].

واتفقوا على قتل الشيخ الفاني والضعيف والأعمى والمقعد ومقطوع اليد والرجل، إذا قاتلوا المسلمين، أو كانوا من أهل الرأي والتدبير والمكيدة. وإذا لم يقاتلوا ولم يكونوا من أهل الرأي والمكيدة، فجمهور العلماء علـــى عـــدم قتلهم! [٣].

وجمهور العلماء على عدم قتل الرهبان والمعتزلين في الأديرة والكنائس.

والجمهور على عدم قتل من لم يقاتلوا كالتجار والمحترفين والأجراء [٤].

ويجوز نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم بالحجارة والنار، وإرسال الماء عليهم، ولو كان فيهم مسلمون أسرى، لأن هذا من ضرورات القتال [٥].

(٥)

الزرع والشجر الذي للكفار في دار الحرب ثلاثة أقسام:

---

[١] المرجع السابق: ١٠/ ٣٧١.
[٢] بداية المجتهد: ١/ ٤٠٠.
[٣] المرجع السابق: ١/ ٤٠٠.
[٤] كشاف القناع: ٣/ ٥٠. ومغني المحتاج: ٤/ ٢٢٣.
[٥] مغني المحتاج: ٤ /٢٢٣.

الأول: ما تدعو حاجة المسلمين إلى قطعه، فهذا قطعه جائزٌ بلا خلاف. وذلك كأن يكون قريباً من حصون الكفار، أو يمنع من قتالهم، أو يمنع من توسعة الطريق، أو كان الكفار يقطعون شجر المسلمين فيُقطع شجرهم من باب المعاملة بالمثل!

الثاني: ما يتضرر المسلمون من قطعه، فهذا يحرم قطعه لما فيه من إضرار بالمسلمين. كأن يحتاجوا إليه لطعامهم أو علف دوابهم.

الثالث: ما لا ضرر في قطعه على المسلمين، ولا حاجة للمسلمين به، فهذا يجوز قطعه، إذا كان في قطعه غيظ الكفار والإضرار بهم [١].

(٦)

يمنع الأمير الشخص المخذل من الخروج معِ الجيش، فإن خرج ردَّه الأمير، وإن قاتل لم يستحق شيئاً، وإن قتل كافراً فلا يستحق سَلَبَه. عقوبةً له على تخذيله المسلمين! والمخذِّل: هو الذي يُخَوف الناس. كأن يقول: عدوُنا كثير، وخيولنا ضعيفة، ولا طاقة لنا بهم.

والمرجف قريبٌ من المخذِّل، وهو الذي ينشر الإشاعات والأراجيف. كأن يقول: أقبلت سرية العدو من كذا، أو جاءهم مدد من كذا [٢].

واختلف العلماء في الغزو بجُعْل. وهو الأجرة التي يدفعها القائد لشخصٍ آخر، ليخرج إلى الجهاد مكانه، كأنه يَكون جباناً أو مشغولاً، فيكلف غيره بالجهاد مقابل تلك الأجرة أو الجُعل.

فذهب بعض العلماء إلى جواز ذلك، لأن أمل المدينة كانوا يفعلون ذلك. وذهب آخرون إلى منع ذلك.

قال الشافعي: لا يجوز أن يغزو المجاهد بجُعل من مال رجل. وإن غزا بجُعل فعليه أن يرده لصاحبه. وانما أجزت له أخذ الجُعل [الأجرة] من السلطان!

---

[١] كشاف القناع: ٣/ ٤٩. ومغني المحتاج: ٤/ ٢٢٦.
[٢] المغني: ١٠/ ٣٧٢.

والصحيح أنه لا يجوز للإمام ولا لغيره استئجار مسلم للجهاد، لأنه إذا لم يكن الجهاد متعيّناً على المجاهد الخارج للجهاد، ثم خرج وشهد المعركة، ونشبت المعركة، صار الجهاد فرض عينٍ في حقه. ولا يجوز أخذ الأجرة على فرض العين! [١]

قال النووي: الفيءُ الذي يدفع إلى المتطوعين ليس من باب الأجرة، لأن الجهاد مطلوب منهم [٢].

وذهب الإمام أحمد إلى أنّ من أُعطي شيئاً ليستعين به في الغزو، لا يترك لأهله منه شيئاً، لأنه لا يملكه إلاّ بعد أن يصل إلى الغزو. فعند وصوله الميدان يبعث إلى أهله منه لأنه صار ملكاً له ! [٣]

(٧)

يجوز أن يأخذ المجاهد من الزكاة، وإن كان غنياً، على قدر حاجته نفقةً وكسوة، ذهاباً وإياباً وإقامة، وثمناً لفرس وسلاح وغير ذلك. ويكون هذا المال المعطى ملكاً له. ويعطي أهله من هذا المال أيضاً [٤].

قال القرطبي: " في سبيل الله ": هم الغزاة والمرابطون، يعطون ما ينفقون في غزوهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء.

وقال ابن عبد الحكم: ينفق من الزكاة على الإسلام وآلات الحرب وكفّ العدو عن بلاد المسلمين [٥].

(٨)

لو تترّس الكفار بأسرى المسلمين وأطفالهم ننظر:

إن لم تدع الضرورة إلى رمي الكفار تركناهم صيانةً للمسلمين.

---

[١] مغني المحتاج: ٤/ ٢٢٢. والمغني لابن قدامة: ٦/ ١٤٣.
[٢] الروضة للنووي: ١٠/ ٢٤٠- ٢٤١.
[٣] المغني: ١٠/٣٩٨.
[٤] المجموع للنووي: ٦/٢٣٧-٢٣٨.
[٥] تفسير القرطبي: ٨/١٨٥-١٨٧.

وإن دعت الحاجة لرمي الكفار جاز ذلك، كأن يتترَّسوا بهم في حال نشوب القتال، أو بحيث لو كففنا عنهم ظفروا بنا، أو في حال كثرة شدتهم وأذاهم، أو تعذَّر أخذُ قلعتهم.

وعند رمي الكفار يحترس المسلمون. ويحافظون على المسلمين الأسرى ما أمكن ذلك، ويحرصون على تجنبهم ما أمكن!

وأجاز بعض العلماء رميهم مطلقاً بالمنجنيق والنبل وغيرهما، بشرط توقّي المسلمين الأسرى عندهم ما أمكن! [١]

وإذا ألقى العدوُّ ناراً على سفينة المسلمين، فاشتعلت فيها، فعلوا الأنسب والأصلح لهم: إما البقاء في السفينة والعمل على إطفاء النار، أو إلقاء أنفسهم في الماء [٢].

(٩)

إذا كان عدد الكفار أكثر من ضعف عدد المسلمين جاز الفرار منهم، وإن لم يكونوا كذلك لم يجز الفرار.

واختلف العلماء في جواز الاستعانة بالمشركين في القتال:

- فقال بعضهم: تجوز الاستعانة بهم بشرط تأمين عدم خيانتهم.

- وقال آخرون: لا يستعان بهم إلاّ في الخدمة والأعمال الحقيرة.

- وقال آخرون: لا يجوز الاستعانة بهم مطلقاً [٣].

(١٠)

اختلف العلماء في استحقاق المجاهد سلب الكافر الذي يقتله:

---

[١] مغني المحتاج: ٤/٢٢٤.
[٢] المغني لابن قدامة: ١٠/ ٥٥٤.
[٣] المجموع: ١٨/ ٦٢. والمغني: ١٠/ ٤٥٦.

- فقال بعضهم: يستحق سلب المقتول بشروط:

أن يكون المقتول من المقاتلين. وأن يكون فيه منعةٌ وقدرةٌ على القتال. وأن يقتله أو يثخنه في الجراح ويجعلـــه في حكم المقتول؛ وأن يغامر بنفسه في قتله، بأن يقتله مبارزة، أو ينغمس هو وسط الكفار.

- وقال آخرون: من قتل كافراً فله سلبُه، سواء كان الكافر مقبلاً أو مدبراً، وذهبوا إلى أنَ السُنة على ذلـــك، وأنَّ هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع سلمة بن الأكوع رضي الله عنه. فالسَّلَبُ للقاتل [١].

واشترط بعض العلماء أن يقول الإمام أو القائد: من قتل قتيلاَ فله سلبه، فإن لم يقل لا يأخذ القاتل السلب. ولم يشترط آخرون ذلك. وقالوا: السَّلب للقاتل ولو لم يقل الإمام ذلك [٢].

وذهب بعض العلماء إلى أن السّلب يخرج من الغنيمة قبل تخميسها، ويعطى للقاتل، واشترط بعضهم تخميسه قبل إعطائه للقاتل [٣].

وأباح بعض العلماء سلب القتيل الكافر وتركه عارياً، ومنع بعضهم ذلك لما فيه من كشف العورة [٤].

(١١)

السّلَبُ هو ما على القتيل من ثياب وخُف، وآلات حربٍ كدرع ومغفر، وسلاح ومركوب، وما على المركوب من سرجٍ ولجام ومقود، وما على القتيل من طوق وسوارٍ ومنطق وخاتم وهميان، وما على الفرس من أمتعة، وما فيها من دراهم ومال. وبعض العلماء خالفوا، ولم يعتبروا بعض ما ذكر من السّلب [٥].

ولو تنازل القاتل عن سلب القتيل لم يسقط حقه منه، لأنه متعين له [٦].

---

[١] الروضة للنووي: ٦/٣٧٢-٣٧٣.
[٢] الروضة: ٦/ ٣٧٦. والمغني: ١٠/ ٤٣٦.
[٣] المجموع: ١٨/ ١١٥. والمغني: ١٥/ ٤٢٥-٤٢٦.
[٤] المغني: ١٠/ ٤٣١.
[٥] الروضة: ٦/٣٧٥.
[٦] نهاية المحتاج: ٨/ ٧٦.

وجمهور العلماء على أن القاتل لا يأخذ السَلَب إلاّ إذا أقام على ذلك بينة، وأجاز بعضهم أن يعطى له بدون بينة.

وجمهور العلماء على أنه لا يأخذ السلب إلاّ بإذن الإمام [١].

(١٢)

إذا قال الإمام: من أخذ شيئاً فهو له. اختلف العلماء في جواز ذلك:

- فأجازه بعضهم.

- ومنعه آخرون: لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده كانوا يُقسمون الغنائم بعد جمعها.

ولم يُجيزوا للإمام أن يعطي شيئاً من الغنائم نفلاً إلاّ بعد تخميسه.

وجعل آخرون الإمام مخيراً في ذلك، إن شاء جعله نفلاً للمجاهدين قبل التخميس، وإن شاء جعله في الغنائم وخمَّسه [٢].

(١٣)

أول ما يخرج من الغنيمة مؤنة الحفظ والنقل. ثم يُخَمَسُ الباقي: والتَخميسُ تقسيم الغنيمة إلى خمسة أخماس. أربعة أخماسِ تعطى للمجاهدين. والخمس الخامس يقسَّم على خمسة أسهم:

الأول: لله ورسوله. وينفَقُ في مصالح المسلمين، كالنفقة على الثغور، وعمارة الحصون والقناطر والمساجد، وغير ذلك.

---

[١] شرح النووي على مسلم: ١٢/ ٥٩.
[٢] المغني: ١٠/ ٤٦٢. وتفسير القرطبي: ٨/ ٢-٣.

الثاني: لأقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب، لأغنيائهم وفقرائهم ونسائهم.

الثالث: لليتامى: وهم اليتامى الفقراء.

الرابع: للمساكين.

الخامس: لابن السبيل.

أما الفيءُ فإنه يجعل في بيت المال، لا يعطى المجاهدون شيئاً منه، والفيء هو ما أخذ من الكفار بدون قتال.

وخالف بعض العلماء في تقسيم ما ذكر سابقاً [١].

واتفق العلماء على أن من حضر المعركة بنية الجهاد يُعطى من الغنائم، ولو لم يقاتل، بشرط أن يكون مسلماً حراً بالغا ذكراً.

ويُعطى من الغنائم المريض الذي مرض في الجهاد، كما يُعطى للأعمى والأعرج، إذا كان فيهم منفعةٌ في الجهاد [٢].

والراجح في تقسيم الغنائم أنه يُعطى الفارس ثلاثة أسهم: سهمٌ له، وسهمان لفرسه.

أما الراجل الذي يحارب على رجليه فله سهمٌ واحد.

وخالف بعض العلماء في هذا التقسيم [٣].

واختلف العلماء فيما يُعطى للمجاهد إن كان معه أكثر من فرس، وفي من معه برذون أو فرسٌ هجين، وفي من غزا على بغلٍ أو حمار أو بعير.

---

[١] المجموع:١٥٧/١٨. وتفسير ابن كثير: ٢/ ٤١٢.
[٢] المغني:٤٤٩/١٠.
[٣] المغني: ٤٤٣/١٠.

وإذا كان مع المجاهدين في السفن في البحر خيل، أُسهِمَ لها، كما يُسهَمُ للخيل في البر.

واختلفوا في من غزا على فرسٍ فماتت، فمنهم من يعطيه سهم الفارس، ومنهم من يعطيه سهم الراجل.

ومن استأجر أو استعار فرساً لِمجاهد ويقاتل عليها، أُسْهِمَ له ولتلك الفرس. واختلفوا في من يأخذ سهم الفرس المغصوبة، فمنهما من أعطى سهمه للغاصب، ومنهم من أعطى سهمه لمالكه.

واختلفوا في العبد يغزو على فرس سيده، هل يعطى له أم يعطى للفرس؟

واختلفوا في الرجل يُعطي فرسه لآخر، على أن يأخذ نصف ما يُعطى من الغنائم!

واختلفوا في من مات أثناء المعركة، هل يعطى لورثته شيءٌ من الغنائم أم لا؟ كما اختلفوا في من مات بعد جمع الغنائم وقبل توزيعها!

واختلفوا في المدد الذي يصل للميدان بعد انتهاء المعركة، هل يأخذ من الغنائم أم لا.

واختلفوا في المجموعة تُغير على الأعداء بدون إذن الإمام وتغنم منهم، هل تعطى الغنائم كلُها لهم، أم تَخَمَّسُ الغنائم أخماساً؟ وإذا عُدِمَ الإمام وجاهد مجاهدون وغنموا شيئاً من الكفار، جاز لهم أن يقسموا الغنائم فيما بينهم.

ومن خرج بنية القتال، وقام بحفظ الأمتعة وخدمة القوم يُسْهَمُ له من الغنائم كباقي المجاهدين. وهكذا التجار الذين يتاجرون في المعسكر.

واختلفوا في تقسيم الغنائم في دار الحرب، فأجازها بعضهم، ومنعها آخرون.

(١٤)

الغنائم التي تقسّمُ على المقاتلين، لا يعطى غيرهم منها، فأربعة أخماسها لهم، والخمس الخامس يُخَمَّسُ. وأجاز بعض العلماء أن يأخذ غيرهم منها.

أما ما لا ينقل كالأراضي والدور فإما أن تقسم بين الغانمين، أو أن تبقى بأيدي مالكيها، وتُضرب عليهم الجزيةُ والخراج!.[١]

(١٥)

اختلف العلماء في الأسرى من الرجال الأحرار والراجح أن الإمام مخير فيهم، يفعل فيهم ما فيه المصلحة للمسلمين، فإما أن يقتلهم بضرب أعناقهم، أو أن يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض، أو أن يفديهم بأسرى المسلمين، أو يفديهم بمال، أو يسترقهم [٢].

وهل يجوز للإمام أن يختار ضرب الجزية على الأسرى إن كانوا من أهل الكتاب؟

ذهب الجمهور إلى جواز ذلك [٣].

أما نساء وصبيان الكفار فإنهم يكونون أرقاء بمجرد الأسر [٤].

واختلف العلماء في جواز استرقاق كفار العرب من عبدةِ الأوثان [٥].

وإذا قتل أحد المسلمين الأسير بدون إذن الأمير يُعَزّر [٦].

(١٦)

إذا سُبي الكافرُ مع زوجته لم ينفسخُ نكاحهما عند بعض العلماء، وينفسخ عند علماء آخرين. وإذا سبيت المرأة لوحدها انفسخ نكاحها. وإذا سبي الزوج وحده انفسخ النكاح عند قوم، ولم ينفسخ عند آخرين [٧].

---

[١] المغني: ١٠/٤٦٢. والمجموع:١٨/١٦٢.
[٢] المجموع:١٨/١٠٢. والمغني: ١٠/ ٤٠٠.
[٣] مغني المحتاج:٤/٢٢٨.
[٤] المغني:١٠/٤٠٣.
[٥] المرجع السابق: ١٠/ ٤- ٤٠٢.
[٦] المغني: ١٠/ ٤٠٧. والمجموع:١٨/١٠٥.
[٧] المغني:١٠/٤٧٣-٤٧٤.

(١٧)

إذا أسلم الكافر الحرُّ العاقل قبل الظفر به عصم دمه وماله، وهذا لا خلاف فيه، سواء أسلم في حال الأمــن أو أسلم في حال الخوف، كذلك يعصم أولاده الصغار عن السبي. وهذا عامٌّ في الرجال والنساء [١].

لماذا أسلم الأسير قبل أن يختار الإمام فيه شيئاً، قبل إسلامه وعصم نفسه ودمه، عند جمهور العلماء.

وبإسلامه يكون قد عصم نفسه من الاسترقاق عند الجمهور أيضاً [٢].

(١٨)

اختلف العلماء في من سبي من أطفال الكفار مع أبويه، فقال الجمهور إنه على دينهما. وإذا سبي مع أبيه فقــط فالراجح أنه على دينه عند الجمهور. وكذلك إذا سبي مع أمه يكون على دينها عند الجمهور، وإذا سبي وحده فعند الجمهور أنه باق على دينه[٣].

والراجح عند الجمهور عدم التفرقة في السبي بين الآباء والأبناء والإخوان والأخوات والأعمام والأخوال [٤].

وإذا أُخذت دوابُّ الكفار ومواشيهم فلا يجوز إتلافها أو إحراقها، وتكون مع الغنائم، إلاّ إذا لم يستطع المسلمون إخراجها، وكذلك السلاح [٥].

(١٩)

إذا حضر المعركة الصبيُّ والمرأة يرضخ لهما عند جمهورا لعلماء، والرَّضخُ هو أن يعطى لها نصيبٌ من الغنائم أقل من السهم الذي يعطى للمجاهد.

---

[١] المرجع السابق: ١٠/ ٤٧٥.
[٢] المرجع السابق: ١٠/ ٤٠٢.
[٣] المغني: ١٠/ ٤٧٢، والمجموع: ١٨/ ١٢٠.
[٤] المغني: ١٠/ ٤٦٧. والمجموع: ١٨/١٢٥-١٢٦.
[٥] المغني: ١٠/ ٥٠٧-٥٠٨.

يرضخ للصبي إذا قتل، ويرضخ للمرأة إذا كانت تُداوي الجرحى. وإذا حضر العبيد المعركة وشاركوا في القتال يرضخُ لهم أيضاً [١].

والرضخُ من أصل الغنيمة عند بعض العلماء، ومن أربعة أخماسها عند آخرين، ومن خمس الخمس عنـــد فريـــقٍ ثالث[٢].

ولا تبلغ قيمة الرضخ سهم المجاهد الراجل عند الجمهور [٣].

وإذا قاتل صاحب السهم أكثر من غيره يرضخ له الإمام، ويُعطيه أكثر من سهمه بسبب إقدامـــه واستبســـاله. بدليل ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في

غزوة ذي قَرَد، حيث أعطاه سهمين: سهمَ الفارس وسهم الراجل، مع أنه كان راجلاً [٤].

(٢٠)

النفل هو زيادة يعطيها الإمام للمجاهد الذي يبذل جهدا خاصا في القتال، ويأخذها مـــن الغنـــائم زيـــادة لـــه علىسهمه [٥] .

ويجوز أن يعطى لشخصٍ مبهم، كأن يقول الإمام: من فعل كذا، فله كذا. وبعض العلماء منعوا ذلك! [٦].

واختلف العلماء في محل هذا النفل: هل هو الخمس، أو الأربعة أخماس أو خمس الخُمُس، على أقوال في ذلك![٧]

وإذا بعث الإمام سريةً تسبق الجيش وتدخل دار الحرب، فيجوز للإمام أن يخصَّ رجالها بعطاءٍ خاص نفلاً [١] .

---

[١] المجموع: ١٨/ ١٦٧. والمغني: ١٠/ ٤٥١.
[٢] المجموع:١٨/١٦٧.والمغني: ١٠/ ٤٥٨.
[٣] المجموع: ١٨/ ١٦٩.
[٤] المغني:١٠/٤١٧.
[٥] الروضة للنووي:٦/٣٧٠-٣٧١ .
[٦] المغني: ١٠/ ٤١٢. والمجموع: ١٨/ ١٣٤.
[٧] المجموع:١٨/١٥٣.

(٢١)

الفيءُ هو ما يؤخذ من الكفار بدون قتال، كأن يخاف الكفار من المسلمين فيهربوا ويتركوا شيئاً وراءهم، أو يصالح الكفار المسلمين على شيء يدفع لهم، أو جزيةٍ تُفرض عليهم [٢].

واختلف العلماء في هذا الفيء فذهب بعضهم إلى أنه يُخَمَّسُ كالغنائم، وعند جمهور العلماء أنه لا يخمس، وإنما هو للإمام يصرفه في مصالح المسلمين وينفقه فيما هو الأنفع لهم [٣].

(٢٢)

إذا تمكَن الأسير عند الكفار من الهرب فيجب عليه ذلك. وإن تمكَن في هربه من أخذ سبي ومالٍ أو قتلٍ لبعضهم جاز له ذلك [٤].

وإن أطلق الكفار أسيراً بشروط يشترطوها عليه فيجب عليه الوفاء بها، على قول جمهور العلماء. حتى لا يوقع الضرر بباقي الأسرى المسلمين، وحتى لا يُتهَمَ المسلمون بأنهم لا يوفون بالعهد [٥]

(٢٣)

إذا ضل كفارٌ محاربون الطريق ودخلوا في بلدة للمسلمين، يكونون هم وأموالهم فيئاً لأهل تلك البلدة. وإذا حملت الريح أو حمل البحر شيئاً من أموال الكفارٍ المحاربين إلى بلدة للمسلمين، كان ذلك فيئاً للمسلمين [٦].

وإذا دخل كفار حربيون دار الإسلام بدون أمان، فالراجح عند جمهور العلماء أنه لا أمان لهم، وأنه يجوز قتالهم وقتلهم وأخذ ما معهم لأنه لا أمان لهم [٧].

---

[١] المغني:١٠/٤٠٩ و:٤١٦-٤١٧.
[٢] المجموع: ١٨/ ١٨٤.
[٣] المغني: ١٠/ ٥٤٧-٥٥٠. والمجموع: ١٨/ ١٦٠-١٦٢.
[٤] المغني:١٠/٥٤٨.
[٥] قوانين الأحكام الشرعية: ١٧٣.
[٦] المغني:١٠/٥٦٤- ٥٦٥.
[٧] المغني: ١٠/ ٤٤١. والروضة:١٠/٢٨٠.

وإذا قدم تجار من الكفار الحربيين بلاد المسلمين بأمان، فباعوا واشتروا، فيجب على المسلمين أن يوفوا لهم بأمانهم، ولا يجوز الاعتداء عليهم، لأنهم دخلوا بأمان [1].

(٢٤)

اختلف العلماء في الكفار يأخذون شيئاً من أموال المسلمين، سواء كان بحربٍ أم بغيرها.

وعند كثير من العلماء أنهم لا يملكون تلك الأموال، وأن أخذهم لها لا يُلغي ملكية المسلمين لها، فإذا عادت الأموال للمسلمين تعود لمالكيها [2].

وإذا قسّمَ الإمام الغنيمة على المجاهدين وتعرَّف مسلم على ماله الذي كان الكافر قد أخذه، فعند كثير من العلماء أنه يعود لمالكه، لأنه ماله [3].

(٢٥)

إذا رضي كافرٌ أن يكون ذمياً، وأعطى المسلمين الذمة، ثم أراد أن يلتحق بالكفار المحاربين، فعلى المسلمين أن يمنعوه من ذلك، وأن يحاربوه، لأنه لو التحق بالكفار فسيكون عوناً لهم على حرب المسلمين [4].

(٢٦)

اختلف العلماء في حكم قطع رؤوس المشركين، ونقلها إلى مكان آخر للمسلمين أو المشركين:

فبعض العلماء منعوا ذلك، لأن هذا تمثيل بالكفار، وتقليدٌ للكفار، فهم الذين يفعلون ذلك.

وبعض العلماء أجازوا ذلك، لأن فيه إغاظةً وتخويفاً للكفار، وبعض الصحابة فعلوا ذلك[1].

---

[1] التاج والإكليل لمختصر الخليل: ٣/ ٣٦٢.
[2] حاشية ابن عابدين: ٤/ ١٦٠.
[3] الروضة: ١٠/ ٢٩٣- ٢٩٤.
[4] الكافي في الفقه: ١/ ٤١٧.

(٢٧)

قد يقدّم الكافر الحربيُّ هديةً لأحد المسلمين، فإن فعل ذلك جاز للمسلم أن يأخذ تلك الهدية. لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قبل هدية المقوقس.

واختلف العلماء في هذه الهدية هل هي ملكٌ خاص لمن وجهت له، أم هي ضمن الغنيمة، وتخمَسُ كما تخمَّسُ الغنيمة. والراجح هو أنَ الهدية إذا قدمت أثناء الحرب ونشوب القتال فهي ضمن الغنيمة، وإذا كانت بعد انقضاء القتال فهي ملك لصاحبها![2]

(٢٨)

اختلف العلماء في الأمان يعطيه المسلم للكافر أو الكافرين.

فعند جمهور العلماء أن الأمان صحيح، أي: يجوز للمسلم أن يعطي أماناً للكافر، أو عددٍ محصورٍ من الكفار، وعلى باقي المسلمين أن يلتزموا بذلك الأمان [3].

واختلفوا في أمان العبد المسلم، والراجح أنه إذا كان مأذوناً له في القتال جاز أمانه [4]. واتفقوا على جواز أمان المرأة المسلمة [5].

أما أمان الصبيِّ المميز فقد اختلفوا فيه، والراجح عدم جوازه [6].

(٢٩)

الإشارة بالأمان أمانٌ عند جمهور العلماء.

---

[1] المغني:١٠/٥٦٥-٥٦٦.
[2] المغني: ١٠/٥٦٦. والمجموع: ١٨/ ٣٢٨.
[3] كشاف القناع: ٣/ ١٠٤. وشرح فتح القدير: ٥/ ٤٦٢.
[4] الروضه: ١٠/ ٢٧٩.
[5] المغني: ١٠/ ٤٣٢.
[6] الروضة: ١٠/ ٢٧١.

ويصحُّ وينعقد الأمان بأيّ لفظ صريحٍ أو كناية يدلُّ على ذلك فاللفظ الصريح كأن يقول: أجرتك، أو: أمنتك، أو: أنت آمن.

واللفظ غير الصريح كأن يقول: أنت على ما تحب، أو: كن كيف شئت.

وينعقد الأمان بالكتّابة والرسالة والإشارة المفهمة.

ولا بدَّ أن يبلغ الأمان الكافر المؤمِّن وأن يفهمه، ولو قتله مسلم قبل وصول الأمان إليه، فلا شيء على ذلك المسلم[١].

(٣٠)

إذا لقي المسلم كافراً حربياً وقال له: قف، أو: ألقِ سلاحك. فهذا أمان، لأن الكافر يعتقد هذا أماناً [٢]

وإذا انعقد الأمان صار الكافر المؤمَّنُ معصوم النفس، فلا يُقتل ولا يُسبى.

أما الجاسوس الكافر فلا يجوز تأمينه، لأنَّ دخوله خيانةٌ ولا بدَّ أن يقتل، وإذا قدم أحد الكفار لتجارة وأخذ الأمان من المسلمين، ثم تبين أنه جاسوس وعين للكفار بطل أمانه وجاز قتله [٣].

(٣١)

المسلم إذا كان ضعيفاً في دار الكفر، لا يقدر على إظهار دينه، حرمت عليه الإقامة بدار الكفر، ووجبت عليه الهجرة إلى دار الإسلام.

---

[١] الروضة للنووي: ١٠/٢٧٩- ٢٨٠
[٢] المغني: ١٠/٥٥٨.
[٣] نيل الأوطار: ٨/ ٨-١٠.

وان لم يقدر على الهجرة فهو معذور إلى أن يقدر عليها. وإن كان المسلم في دار الكفر قوياً قادراً على إظهار دينه، جاز له الإقامة هناك، ولم تجب الهجرة عليه.

وإذا كان يرجو بمقامه في دار الكفر ظهور الإسلام فالأفضل أن يقِّيم هناك، وأن يقوم بالدعوة إلى الإسلام بينهم![1]

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن الإقامة في دار الكفر، ويطلب ممن هو هناك أن يهاجر إلى دار الإسلام.

وجمهور العلماء على أنه لا يجوز للأسير المسلم أن يتزوج في دار الكفر أثناء أسره، لا يتزوج كتابيةً لأنه لو أنجب منها، فسيكون ابنها كافراً مثلها. ولا مسلمةَ لأنه يخشى أن يفتنوه ويفتنو امرأته ويفتنوا ابنه. فليصبر حتى يعود إلى دار الإسلام [2].

(٣٢)

اختلف العلماء في دخول أرض الشرك للتجارة. والجمهور من العلماء على كراهية ذلك. واعتبروا ذلك فسقاً، وأصحابه فساقاً.

ويحرم بيع السلاح إلى الكفار، ويعاقب من فعل ذلك [3].

(٣٣)

اختلف العلماء في إقامة الحدود في دار الحرب. فمنع بعضهم إقامتها هناك من باب سد الذريعة، حتى لا ينضمَّ المحدودُ إلى الكفار. وبعضهم أجاز ذلك، وقالوا: تُقام في دار الحرب كما تقام في دار الإسلام [4].

---

[1] الروضة: ٢٨٢/١٠.
[2] المغني: ١٠/ ٥١١-٥١٢.
[3] آثار الحرب في الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي: ٥١٢-٥١٤.
[4] المغني: ٥٣٧/١٠.

(٣٤)

اتفق العلماء على أنه لا يسافر بالنساء المسلمات إلى أرض العدو، حتى لا يُفتَن في دينهن وعرضهن، إلاّ إذا كن في جيشٍ مسلم عظيم يؤمَنُ عليهن فيه.

كذلك لا تقيمُ النساء المسلمات في الثغور إلاّ إذا كانت تلك الثغور مأمونة [١].

واتفقوا على أنه لا يسافر المسلم بالمصحف إلى أرض العدو إلا في جيش يؤمن عليه.

وبعض العلماء منعوا السفر بالمصحف إلى أرض العدو مطلقاً، حتى لا يقع بأيدي الأعداء [٢].

هذه بعض المسائل والأحكام الفقهية المتعلقة بالجهاد. وتفصيلاتها تؤخذ من كتب الفقه المختلفة.

فـــصل

في نبذ مختصرة من المكايد والآداب والحيل الحربية

لقد وضع الناس كتباً في حيل الحرب ومكايدها وأنواع آلاتها، وفيما يلي نبُد مختصرة من ذلك، لا بدَّ من معرفتها.

(١)

قال بعض الحكماء: جمع الله لنا آداب الحرب في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال: ٤٥ - ٤٦].

[١] المرجع السابق: ١٠/ ٣٧٩- ٣٨٠.
[٢] الشرح الصغير للاردير: ٢/٢٧٩.

ولقد صَدَقَ هذا القائل، فإن الله أمر المقاتلين بخمسة أمور، ما اجتمعت قط في فئةٍ إلاّ نصرت، وإن قل عـــددها وكثر عدد عدوّها. والأمور الخمسة هي: الثبات، وكثرة ذكر الله، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنـــازع الموجـــب للفشل والوهن، والصبر.

ومعلوم أن المجاهدين إذا اجتمعوا كانوا كالحزمة من السهام، لا يستطاع كسرها، فإذا تفرقت ســـهلُ كســـرها سهماً سهماً.

ولا بد أن يكون المجاهدون فطنين في الحرب، لأنها خَدعة.

٢٨٤ - روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة وجابرِ رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الحربُ خَدْعَة" [1].

يقال: خُدْعة: بضم الخاء، وخَدعة: بفتح الخاء.

والفتح أفصحُ كما قال الجوهري وغيره.

ومعنى كون الحرب خَدعة أنها تنتهي بخدعة واحدة.

ورد في المثل: ربّ حيلةٍ أنفعُ من قبيلة.

ومن كلام الحكماء: إذا طلبت عدوَّك بالقوة، فلا تقدمن عليه حتى تعلم ضعفه منك، وإذا طلبته بالمكيدة، فـــلا يعظمنَّ أمره عندك، وإن كان عظيماً.

ويُروى أنه لما بارز عمرو بن عبد ودّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، استعمل عليٌّ معه الحيلة والخدعة، فلمـــا برزَ له عليٌّ قال له: ما برزت لأقاتل اثنين!!

---

[1] رواه البخاري في الجهاد: ٤/٢٤. ومسلم في الجهاد: ٣/١٣٦١.

فالتفت عمرو بن عبد وُدّ، ليرى الشخص الثاني.

فوثب عليه عليٌّ فضربه!

فقال له عمرو: لقد خدعتني!

قال علي: إن الحرب خدعة!!

(٢)

ومن السُّنَّة التورية في الحرب، بحيث لا يطلعُ القريب أو البعيد على مقصد الأمير، ولا يعرف جهته أحد، حتى لا يتسرب الخبر إلى الأعداء.

وهذا هو فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢٨٥ - روى البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوةَ يغزوها، إلاّ ورّى بغيرها [1].

ولم يصرح صلى الله عليه وسلم إلاّ بتوجهه إلى غزوة تبوك، لبُعدها، ولأنها ضدَّ الروم، وليستعدَّ لها المسلمون استعداداً خاصاً.

(٣)

الرسول المرسل إلى الأعداء يكشف حال مُرسِله، لأنه دليلٌ على شجاعته وإقدامه، وترجمان عقله وفهمه، ومرآة صفاته. ورُب رسولٍ أزال هيبةَ مرسلهِ من قلبِ عدوه، لأن عدوه شاهد خورهُ وعجزه وجبنه وسذاجته وسوء تصرفه.

---

[1] رواه البخاري في الجهاد: ٤/٦. ومسلم في التوبة: ٤/ ٢١٢٨.

ورب رسول ألقى الرعب في قلب عدوه، بحسن منظره، وشدة إقدامه، وثبات جأشه، وقوةَ قلبه، وفصاحة لسانه!

وعلى القائد أن يحسن اختيار رسوله، وأن يكون نافذ البصر، قويَّ الفراسة، وأن لا يرسل الرسول إلى العدو مراراً عديدة، لئلا يحصل بين الرسول والمرسل إليه مؤانسة أو إِحسان، وقد يتولَّدُ من ذلك صداقة، تحول ذلك الرسول إلى بطانةٍ للعدو، وكم من دولة!

كان سبب زوالها خيانة رسولها، واستمالة الأعداء له.

(٤)

الأولى هو تشكيل السرايا للجهاد.

٢٨٦ - روى أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خيرُ الأصحاب أربعة، وخيرُ السرايا أربعُمائة، وخيرُ الجيوش أربعةُ آلاف، ولن تُغلبَ اثنا عشرألفاً من قلة" [١].

ويجب أن يكون أمير السرية عالماً بالحروب، ومكايدها. وأن يكون مع عدوه أسمع من فرس، وأبصر من عُقاب، وأحذر من عقعق، وأوثب من فهد، وأشدّ إقداماً من أسد، يرحل بالسرية كجسد واحد، وينزل بالسرية كبنيان مرصوص .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلوا منزلاً، انضمَ بعضهم إلى بعض، حتى لو بُسط عليهم ثوب لجمعهم!

(٥)

على أمير الجيش أن يكثر في مجلسه من قراءة الأحاديث النبوية، الواردة في فضائل الجهاد وأنواعه، وقراءة كتب الغزوات، وفتوحات المسلمين، وحيل المقاتلين، ومنازلات الأبطال، ومعارك الشجعان، وما نقلَ عنهم من الصبر الشديد، والانغماس في العدو الكثير.

[١] رواه أبو داود في الجهاد: ٣/ ٨٢. والترمذي في الجهاد: ٤/ ١٢٥. وأحمد: ١/ ٢٩٤. والحاكم: ١/ ٤٤٣، والحديث صحيح.

وذلك ليقوي قلوب ذوي الإيمان، ويزيل الضعف من قلب الجبان، ويزيد في جرأة ذوي الشجاعة والإقدام، لأن الطباع مجبولةٌ على التحدي، والتشبه بذوي الأفعال المحمودة عند الآخرين.

فإذا أُضيفَ إلى ذلك مدحُ الشرع لأفعال وصفات المجاهدين، وترغيبه فيها، ووعده بالجزاء الحسن عليها، ومحبة الأمير لها، وتمييزه لمن فعلها، صار هذا مرغوباً مطلوباً عند المجاهدين.

(٦)

الأصل في تدبير الحروب انتخاب القادة، واختيار أصحاب الألوية.

ويجب أن يكون قائد. الجيش والأمير وحامل اللواء ونحوهم، من أولي الجرأة والشجاعة والنجدة والـدين، وأن يكون ثابت الجنان، صارم القلب. شديد البأس قد جرّبَ الحروب، ومارس الرجال، وقـارع الأبطـال، وشـهد الوقائع، وخاض المعامع. وإذا كان كذلك أثر في جيشه قوة قلب، وشدة بأس، وثبات جأش، وثقةَ بالنصر.

لأن منزلته في جنوده منزلة القلب من الجسد، متى فسد فسدوا، ومتى ثبت ثبتوا!

قال أحد حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب، خير من ثعلبٍ يقود ألف أسد.

وقال السِّرماري - البطل المجاهد المشهور: ينبغي أن يكون في قائد المجاهدين عشرُ خصال:

١ - أن يكون في قوة قلب الأسد. فلا يجبن.

٢ - وفي كبر نفسية النمر، فلا يتواضع أمام الأعداء.

٣ - وفي شجاعة الدب، يقتل بجوارحه كلها.

٤ - وفي حملة الخنزير، لا يولّي دُبرَه.

٥ - وفي إغارة الذئب، إذا أيس من وجهٍ أغار من وجهٍ آخر.

٦ - وفي حمل السلاح كالنملة، تحمل كثر من وزنها.

٧ - وفي الثبات كالصخر.

٨ - وفي الصبر كالحمار.

٩ - وفي الوقَاحة كالكلب، لو دخل صيده النار لدخل خلفه.

١٠ - وفي التماس الفرصة كالديك.

(٧)

ينبغي لقائد الجيش قبل القتال أن يبث الجواسيس والعيون الثقات في معسكر عدوه، ليتعركوا أخبارهم، وما عندهم من العدد والآلات، ويحرزوا أعدادهم، ويبحثوا عن أسماء رؤسائهم وشجعائهم، ويسألوا عن أحوالهم، ويقفوا على مؤامراتهم ومكائدهم.

ويحاول أن يدسَّ إلى قادة جيش العدو من يعدُهم ويمنيهم، ويُغريهم بالتخلي عن جماعتهم، ويحاول أن ينشيء على ألسنة بعض القادة كتباً مزورة، يُظهرها بين جنوده لتقوى بها قلوبهم، ويظهرها بين الأعداء ليفرق صفهم، ويحدث الشقاق والتنازع بينهم.

وهذا جائز في الحروب مع الأعداء، لأنَّ الحرب خدعة.

(٨)

على الأمير أن ينفق الكثير على جمع المعلومات عن العدو، وإرسال العيون والجواسيس لذلك، وأن لا يبخل بما يصرفه على هذا الباب، لأنه إن انتصر على العدو فلا يضرُّه ما أنفق، وإن انتصر عليه العدوُّ فلا ينفعُه ما أبقى. وإنفاق الأموال في الحيل والمكايد أولى من إنفاق الأرواح في الحروب والشدائد.

ومن أنواع التأييد الإلهي أن يلهم الله المكيدة من يقدر عليها، ومن الحسرة أن يُبصرها من لا يصل إليها.

(٩)

من أهم ما يعتني به في الحروب إعداد الكمائن، وللكمين أثر كبير في بثّ الرعب في قلوب الأعداء، فعندما يظهرُ الكمين يفاجأ العدوُّ بذلك، وإذا ضربَ الكمين العدو من الخلف أضعف معنويات أفراده.

إنه لا يدوم إقبال مقاتل على خصمه إلاّ إذا كان آمناً من ورائه، ومتى جوّز أن يؤتى من خلفه تشتتت همته بين الدفع والقتال، وضعف جأشُه عن مواجهة الرجال، والتفت قلبه حذراً مما قد يقع! فكيف إذا سمع جلبةَ خلفه، أو صوتاً من ورائه، ولو كان من رجلٍ واحد؟

(١٠)

عند اصطفاف الفريقين للقتال، فعلى قائد الجيش أن يحرص على أن تكون الشمس في عين العدو، وأن تكون الريح في وجهه، لتضعف قدرته على القتال، وأن يختار قائد الجيش الموقع المناسب لجنوده، ليكون قتالهم على أحسن صورة.

وعلى قائد الجيش أن يحسن توزيع جنوده، وأن يوقف كل مجموعة في مكانها المناسب. وعليه أن يضع الأبطال الشجعان في القلب، وأن يضع الآخرين في الجناحين، فإن قلب الجيش هو الأهمُ في المعركة، وإذا انهزم الجناحان وثبت القلب، حول الهزيمة نصراً.

وعلى قائد الجيش أن يعرف وضع جيش عدوه، ومواقع شجعان الجيش، ليضع أمامه القادة الشجعان من جيشه، وعليه أن يخفي موقعه في الجيش عن عدوه، لئلا يوجه العدو جهده للقضاء عليه!

(١١)

إذا أراد الأمير احتلال مدينة للأعداء، فلا بد أن يبدأ بأخذ ما حولها من القرى والبلاد، ليسهل الوصول لها بعد ذلك.

ويذكر أن ملك الروم لما أراد أخذ صقلية أجرى اختباراً لقادة الجيش. فوضع أمامهم بساطاً كبيراً، ووضع في وسطه ديناراً، وقال لهم : من تمكّن منكم من الوصول إلى الدينار دون أن يطأ على البساط فهو الجدير بالقيادة. فلم يتمكَّنوا، فطوى الملكُ طرف البساط، وعند ذلك تناولوا الدينار بسهولة.

عند ذلك قال لهم: إذا أردتم مدينة صقلية، فخذوا ما حولها من الحصون والقلاع، ليسهل لكم الوصول إليها.

(١٢)

أوصت أمُّ الذيال العبسية ابنها - وكان من أشداء العرب - فقالت: يا بني: لا تُنشب الحرب - وإن وثقت بشدتك حتى تعرف وجه المهرب منها، فإن النفس أقوى شيء إذا وجدت سبيل الحيلة، وهي أضعف شيء إذا يئست من الحيلة. وأحمد الشدة ما كانت الحيلةُ مُدبرَةً لها، واجلس مع من تحارب جلسة الذئب، وطِر منه طيرانَ الغراب، فإن الحذر زمام الشجاعة، والتهور عدوُّ الشدة.

وقال بعضهم: من استضعف عدوَّه اغترَّ، ومن اغترَّ ظفر به عدوه، أشعروا قلوبكم في الحرب الجرأة، فإنها سبب الظفر، واذكروا الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب، ورُبَّ مكيدة أبلغ من نجدة، وربَّ كلمةٍ هزمت جيشاً، الصبر سبب النصر، اجعل قتال عدوِّك آخر حيلك. النصر مع التدبير، لا ظفر مع بغي، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تميلوا عند القدرة، ولا تُسرفوا عند الظهور، ولا تَغلوا عند الغنائم، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا الحقير.

(١٣)

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تمني لقاء العدو، وأمر المسلمين بالصبر:

٢٨٧ - روى البخاريُ ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لا تتمنوّا لقاءَ العدو، وسَلُوا اللهَ العافية، فإذا لقيتُموهم فاصبروا" [١].

---

[١] رواه البخاري في الجهاد: ٤/ ٢٣. ومسلم في الجهاد: ٣/ ١٣٦٢.

(١٤)

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التمثيل بالأعداء، ونهى عن حرقهم بالنار، ونهى عن الغدر ونقض العهد.

وأخبر أنَّ نقض العهد من صفات المنافقين:

٢٨٨ - روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أربعٌ من كُن فيه كان منافقاً خالِصاً، ومَن كانت فيه واحدةٌ منهن كانتْ فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها: إذا ائتمن خان، وإذا حَدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر" .[١]

٢٨٩ - وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ثلاثة أنا خصمُهم يومَ القيامة، رجلٌ أعطي بي ثم غدر، ورجلٌ باعَ حُراً ثم أكلَ ثمنَهَ، ورجل استأجرَ أجيراً، فاستوفى منه العمل، ولم يوفِّه أجره" [٢].

٢٩٠ - وروى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا جمعَ اللهُ الأولين والآخرين يومَ القيامة، يَرفعُ لكل غادر لواء، ويقال: هذه غَدْرَةُ فلان "[٣].

٢٩١ - وروى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "... ذمةُ المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلما فعليه لعنةُ اللهِ والملائكة والناس أجمعين، لا يقبلُ الله منه يومَ القيامة صَرْفاً ولا عدلاً " [٤].

ومعنى: أخفره: غَدره ونقض عهده.

فليحذر أمير الجيش وغيره من الغدر ونقض العهد، فإنه من أقبح ما اتصف به الرجال، وهو مع ما هو فيه من الإثم العظيم سريع الوبال فظيع النكال.

---

[١] رواه البخاري في الإيمان: ١/ ١٢. ومسلم في الإيمان: ١/ ٧٨.
[٢] رواه البخاري في البيوع : ٣/ ٤١.
[٣] رواه مسلم في الجهاد: ٣/ ١٣٥٩.
[٤] رواه مسلم في الحج: ٢/ ٩٩٩. والبخاري في فضائل المدينة: ٢/ ٢٢١.

الخـــاتـــمة

٢٩٢ - روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَـــن أعطي عَطاءً، فَوَجَدَ، فليجز به، فإن لم يَجِد فَلْيُثنِ به، فمن أثني به فقد شكَره، ومَن كتَمَه فقد كَفَره " [١]

وفي لفظ آخر:" مَن اصطنع إليكم معروفاً فجازوه، فإنْ عجزتُم عن مجازاته فادعوا له، حتى تعلموا أن قد شكرتم، فإن الله شاكرٌ يحبُّ الشاكرين".

فما على كل مسلم من الحقوق، أن يرى ما هو فيه من النعم، ويشكر من كان السبب فيها، ويجتهد في الـــدعاء لمن بذل نفسه في سبيل الله، حتى وصل هو مع ضعفه إليها. ويشهد وفور عجزه وقصور همته عن الاقتداء بهـــم في بذل ماله ومهجته.

على المسلم أن يعلم يقيناً أنه لولا من أقامهم الله من الصحابة والتابعين ومن اقتفى سَنَنَهُم من الغزاة والمجاهدين، أنصار الدين وحماته، وشجعان الإسلام وكماته، رجال الطعن والضرب، وفاتحو الشرق والغرب، وما استنجدوه من جنودهم، وحشدوه من حشودهم، وما جمعوه من الجحافل الحافلة، وأنفقوه من الحواصل المتواصلة، وما دافعوه من القساورِ القاسرة، وواقعوه من العساكر الكاسرة، إلى أن ردوا المرتدين عن ملة الإسلام إليها، واستترلوا ملوك الروم والفرس عن أسرتهم وعلوا عليها، واستلبوا ثياب عزهم عن أجسامهم، واجتذبوا تيجانهم عن هامهم، واســـتعذبوا شرب دمائهم بشفاه شفارهم، وألسنة أسنتهم وسهامهم، ومزقوا منهم الجسوم والرسوم، وألحقوا الموجـــود منـــهم بالمعدوم، وأدخلوا جموع الباقين منهم - وإن كانوا ألوف الألوف كثرة - في باب القلة، وأنزلوا شُمَّ الأنوف العالين منهم على رغم الأنوف أرض الهوان والذلة، وأقاموا على محصن حصونهم ومدنهم بالمجانيق، حدود الرجم المشروع، حتى صار واجباً لهم على التحقيق ما كان منها في حكم الممنوع!!

لولا جهود هؤلاء وجهادهم لما كنا قاطنين في أطلال نعمهم، بغمهم فيها وهمهم، ولما عشـــنا آمـــنين في ظـــلال هممهم، بجودهم بأنفسهم وكرمهم!!

[١] رواه أبو داود في الأدب: ٥/ ٨ ١٥،والحديث حسن.

إلى أن جهلنا بمؤانسة العوائد ما اجتهدوا عليه، وذهلنا عن مقايسة المعاند والخروج إليه، واستغنينا بما أسدوا إلينا عن شرب كؤوس الحُتوف، في الاكتساب بالرماح والسيوف، وإستعنّا بالرفاهية في ذلك والنعيم، على ما أوجبه علينا البيع القديم من التسليم، وقنعنا بما نحن فيه من الأنشاب والأسباب، وغبطنا أنفسنا بالزائل من المنازل والأحباب، وركنا إلى الدنيا ركون الظمآن إلى شراب السراب، وسكَنا إلى دار الغرور سكون من ليس له عنها انقلابٌ ولا مآب، وأعرضنا عن الجهاد إذ لا فرق ولا فقر يدعو إليه، وأخلدنا من أوج الجلاد إلى حضيض الكسل، إذ لا أحد يذكر الغزو، ولا يحضُّ عليه.

فأخلق الجديد مع الأمان ثوب الجهاد، بعد أن كان جديداً بهياً، وذوى بالهوى والهوان غصنُه بعد أن كان نضيداً زهياً، وهوى نجمه من سماء عزةٍ بعد أن كان مشرفاً سنياً، وانمحى رسمه واسمه كأن لم يكن له من قبل سمياً!!

فضعف الدين لذلك بعد أن كان أيّداً قوياً، ووهى ركن المسلمين بعد أن كان مؤيداً محمياً.

فصرنا نُتخطَفُ بأيدي العدو برّاً وبحراً، ونُلتقط كما يلتقط الطائر الحب سراً وجهراً، ونؤخذ جمعاً وفرادى بالمواسط والسواحل، فلا تتحرك القلوب لذلك، كأنهم على الحقِّ ونحن على الباطل!!

فلا تنكر أيها الأخ ما بنا من فساد الأحوال، وما آل إليه أمرنا من النقص بعد الكمال إذ تركنا من الدين شعيرته العظمى، وأهملنا من أمور المشركين ما به كُلفنا، وأقبلنا على بناء المساكن والدور ورغبنا من دار الشرور في كلِّ محذور، فلا يمر بنا الجهاد أبداً على بال، ولا نرى مندوحةً عن الاجتهاد في طول الآمال وكتر الأموال، والكتمان لما نحن فيه أولى من المقال، ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فما لهم من دونه من وال.. اللهمَ: ببابك أوقفنا ركائب الذل والانكسار، وبجنابك أَنَخْنا نجائبَ العجزِ والافتقار، ولعطائِك مددنا يد الفاقة والاضطرار، وبفنائك وقفنا، وأنت عالم الأسرار..

ربِّ فلا تجعل ما ألَّفته قرائحنا مردوراً إلينا بالطرد والإبعاد، ولا ما سَطَرتهُ أناملنا شهيداً علينا يوم يقوم الأشهاد، وارزقنا شهادةً ننالُ بها أعلى رتب الزُلفى لديك، وبيِّض وجوهنا يوم تسوَدُّ الوجوه وتَبْيَضُّ بين يديك، فأنت، ذو الطَّوْلِ العظيم، والفضل العميم، ولا حول ولا قوة إلا بك!

اللهمَّ وصلِّ أفضل صلاة واكلمها، وأشرفها قدراً وأجزلها، على سيدنا محمد، الذي أذهبت ظلم الشرك باجتهاده، وأرهبت أمم الإفك بجهاده وجلاده. وعلى آله الأعيان الأمجاد، وصحبه الشجعان الأنجاد، ما أومضت

بوارق البوارق في ظلمات القساطل، وركضت سوابق الفيالق في صدمات الجحافل، وسلِّم تسليماً كــثيراً دائمــاً أبداً!!

والحمد لله رب العالمين.

المحتوى

الصفحة